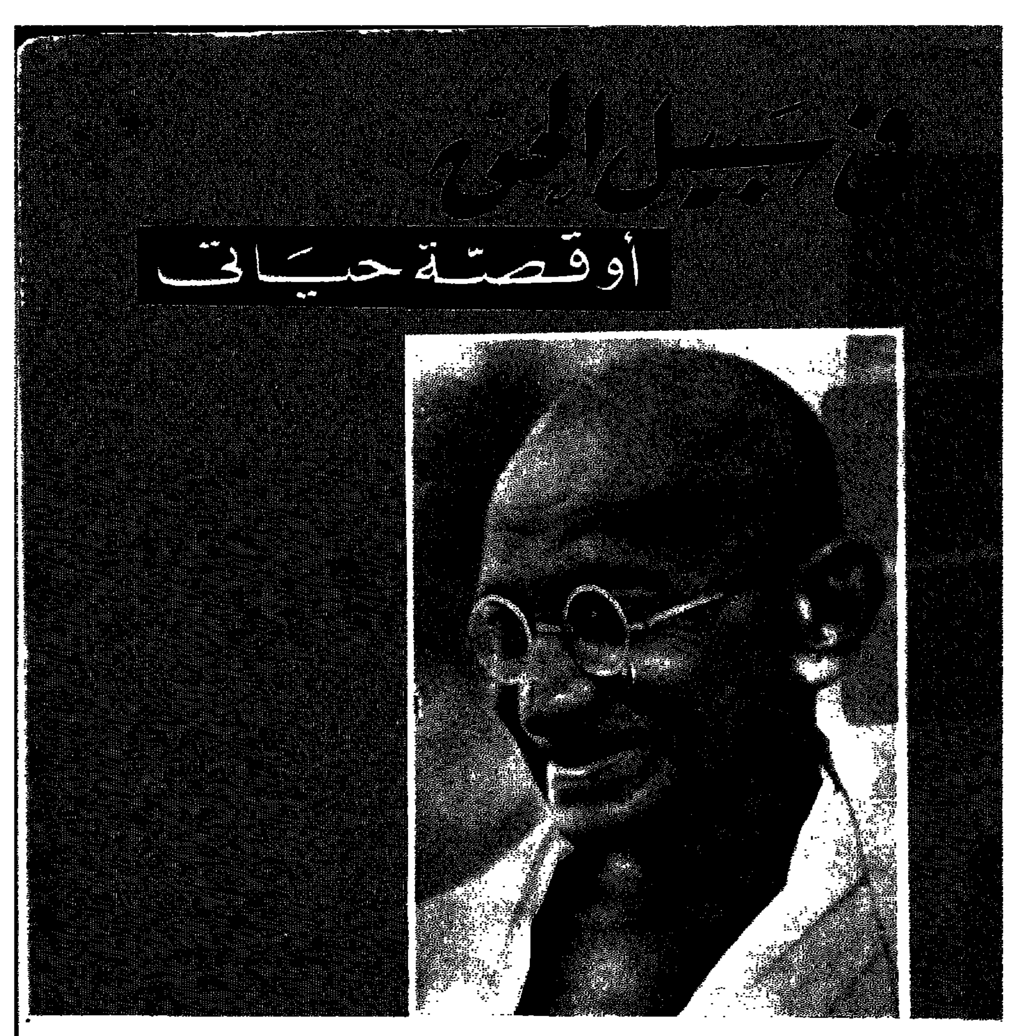


تأليف : المهاتما غاندى
ترجمة : محمّد سامى عاشور

مكتبة الثقافة الشعبية – ٦

في سبيل الحق

أو

قصة حياتي

تأليف

المهاتما غاندي

ترجمة

محمد سامي عاشور

دار المعارف بمصر

AN AUTOBIOGRAPHY
OR
THE STORY
OF
MY EXPERIMENTS WITH TRUTH.

This is an authorized translation
by the permission of Navajivan
Trust, Ahmedabad—14.

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

شَبِيهُ الرُّسْلِ فِي الذَّوْ د عَنِ الحَقِّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَــــدْ عَلَّمَ بِالحَـــــقِّ وبِالصَّبْرِ وبِالقَصْــدِ

من قصيدة لشوقى في تحية غاندى

١ ـ مولدى ـ وبنوتى

ينتمى آل غاندى الى طبقة بانيـا ، وهى احـــدى طبقات الهند الاجتماعية ، وكانوا فيما يبدو يشتغلون بدالين فى أول أمرهم ، ولكن الأجيال الأخيرة منهم ، ابتداء من جدى ، لم يلبثوا أن أصبحوا رؤساء للوزارات فى عدد كبير من مقاطعـات كاثياواد ، ولا بد أن جـــدى اوتامشاند غاندى ، أو أوتا غاندى وهو الاسم الذى كان يشتهر به ، كان رجلا ذا مبادىء ، فقـد ألجأته المؤامرات فى دوائر الحكومة الى الهجرة من بورباندر ، حيث كان يشغل منصب رئيس الوزراء فيها ، والالتجاء الى جاناجاد • فلما كان هناك حيى أميرها بيده اليسرى • ولاحظ أحد الموجودين هذه الفعلة النابية ، فلما طلب منه ايضاحا عن هذا السلوك كان رده : « ان يدى اليمنى قـــد ارتبطت من قبـل ببورباندر » •

وقد تزوج أوتا غاندى للمرة الثانية بعد أن فقد زوجته الأولى ، وكان له من الأولاد ستة ، أربعة منهم من زوجته الأولى واثنان من الثانية ، كان خامسهم كرمشاند غاندى ، أو كابا غاندى كما كان يطلق عليه ، وسادسهم تولسيداس غاندى ، وقد رأس كلاهما الوزارة فيما بعد فخلف أحدهما الآخر فى هذا المنصب • وكابا غاندى هو أبى • كان عضوا فى محكمة راجستانيك ، وهى هيئة كان لها نفوذ كبير فى ذلك الوقت فى فض ما قد يشجر بين رؤساء العشائر وأفرادها من خلاف ، ثم عين بعـــد ذلك رئيسا للوزارة فى راجكوت ثم فى فانكانر ، وكان لما مات يتناول معاشا من ولاية راجكوت •

وقد تزوج كابا غاندى أربع مرات متتابعة ، بعد أن ماتت زوجته السابقة في كل مرة ، وقد رزق ببنتين من زوجتيه الأولى والثانية ، وأنجبت له زوجته الأخيرة ، بوتيلباى ، بنتا واحدة وثلاثة من البنين ، كنت أنا أصغرهم ٠

كان أبى بارا بأهله ، صادقا شجاعا جوادا ، ولـكنه كان سريع الانفعال ، ولعله كان ميالا بعض الميل كذلك الى الملذات الحسية ، فقد تزوج من زوجته الرابعة بعد أن كان قد جاوز الأربعـين من سنى حياته ٠ بيد انه كان فى عمله مبرأ من كل شائنة ، يشهد له أهله وغير أهله بالنزاهة وعدم التحيز ٠

ولم تستهو الثروة أبى على الاطلاق ، فلم ينصرف الى جمع المال ، ولم يترك لنا منه الا القليل ٠

كذلك لم يكن له حظ من التعليم سوى ما اكتسبه عن طريق التجربة ، فلم يصل فى تعليمه ، على أحسن الفروض ، الا الى الفرقة الخامسة من مدارس جوجيرات ٠وكان مبرأ من كل دراية بعلوم التاريخ والجغرافيا ، وان كانت تجاربه في النواحي العملية قد أكسبته مكانة عالية وقدرة على حل أعقد الأمور وأكثرها استعصاء ، ومكنت له من سياسة أمور الناس ٠ كذلك لم يكن له حظ من التعليم الدينى ، ومع ذلك فقد كان يملك ذلك النوع من الثقافة الدينية الذى يكتسبه كثيرون من الهندوس عن طريق زيارتهم للمعابد ، وحضور مجالس البحث الدينى ٠ وفى أيامه الأخيرة بدأ يقرأ الجيتا بناء على مشورة أحد علماء البراهمة من أصدقاء العائلة ، فكـان يجهر بصوته وهو يتلو بعض آياتها كل يوم فى أوقات الصلاة ٠

أما الأثر الذى خلفته أمى فى نفسى فهو الشعور بالقداسة والطهر٠

فقد كانت شديدة الورع لم تفكر يوما فى أن تأكل قبـل أن تؤدى صلاتها • وكان الذهاب الى الهافيلى ، وهو معبد أتباع مذهبفاشنافا، واجبا تؤديه كل يوم ولا تتخلف عنه لعـذر من الأعذار • ولست أذكر ، بقدر ما تعي ذاكرتي ، أنها انقطعت يوما عن أداء فريضـــة « شاتورما »(١) • وكانت اذا نذرت لله نذرا لا تهدأ لها نفس حتى توفى به مهما كان شديدا • أذكر مرة أنهـا مرضت خلال صــوم الشاندرايانا(٢) فما سمحت لمرضهـــا بأن يعطلهـا عن أداء هـذه الفريضة • ولم يكن بالأمر الذى يقلقها أن تتابع الصــوم فترتين متتاليتين ، أو حتى ثلاثا ، من غير طعام ، بل كثيرا ما كانت تصــوم يوما كاملا من كل يومين متعاقبين فلا تتناول فيه طعاما على الاطلاق • وقد حدث أن نذرت مرة نذرا لتمتنعن عن تناول الطعام الا اذا أبصرت الشمس فى كبد السماء ، فكنا نحن الأطفال نقف فى تلك الأيام لنترقب ظهورها حتى نزف اليها النبأ • وكلنا تعلم أن الشمس كثيرا ما تعز على الناس فلا تشرق عليهم بطلعتها عندما يبلغ فصل الأمطار ذروته • وانى لأذكر تلك المرات التى كنا نجرى اليها فيهـــا كلما ظهرت الشمس فجأة لنحمل اليها الخبر فكانت تخرج لتراها بنفسها فلا تكـــاد تصل خارج الباب حتى تكون الشمس الهاربة من خلف السحاب قد عادت الى مكمنها فتحرمها من تنـــاول وجبتها ، فكانت تقول وهى مستبشرة النفس : « هذا لا يهم • ان الله لم يشأ أن آكل اليوم » ، ثم تعود أدراجها لتؤدى واجباتها المنزلية •

وكان لأمى حظ وفير من الذكاء ، فكانت تلم الماما واسعا بشئون

---

(١) فترة الصيام المقررة خلال الأشهر الأربعة الممطرة •

(٢) فترة أخرى من الصـــيام يزيد فيهـا الناس من طعامهم أو ينقصونه حسب نمو القمر أو نقصانه •

الولاية ، وكان نساء البلاط يقدرن فيها ذلك · وكثيرا ما كنت أفيد من المزايا التى تبيحها الطفولة فأصحبها فى بعض زياراتها ، ومازلت أذكر كثيرا من المناقشات الحامية التى كانت تدور بينهـــا وبين أم صاحب مقاطعة ثاكور الأرملة ·

من ذلك الأب ، ومن تلك الأم ، ولدت فى بورباندر فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٩ حيث أمضيت سنى طفولتى ·

٢ ـ طفولتي

لا بد انني كنت في السابعة من عمري عندما ترك أبي مقاطعة بوربادر لكي يصبح عضوا في محكمة راجستانيك • وفي راجستانيك أدخلت احدى المدارس الابتدائية • واني لأذكر تلك الأيام الأولى بوضوح ، وأذكر أسماء المعلمين الذين كنت أتلقى العلم على أيديهم ، بل أذكر خصائصهم وما كان يتصف به كل منهم • ولم يكن في حياتي الدراسية ، وأنا في راجستانيك ، ما يستحق تسجيلا ، فقد كنت تلميذا متوسط الذكاء • فلما بلغت الثانية عشرة دخلت المدرسة الثانوية • ولست أذكر في تلك المرحلة أنني كذبت ولو مرة واحدة ، سواء على معلمي أو على زملائي التلاميذ • وكنت خجولا أهرب من المجتمع حياء من الناس ، فلم يكن لي رفاق غير كتبي ودروسي • كنت أذهب الى المدرسة عند دق الناقوس ايذانا ببدء الدراسة ، فاذا انتهت الدروس عدت الى بيتي مهرولا • كانت هذه عادتي كل يوم • كنت أعود الى بيتي مهرولا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، لأنني لم أكن أحتمل التحدث الى أحد ، ولأنني كنت أخشى أن يسخر الناس مني أو يهزءوا بي •

وقد وقع لي حادث خلال أحد الاختبارات وأنا في السنة الأولى من المدرسة الثانوية يجدر بي أن أسجله • فقد جاء المستر جايلز مفتش التعليم الى المدرسة في زيارة تفتيشية ، وألقى الينا بخمس كلمات طلب منا أن نكتبها ليختبر قدرتنا على الهجاء • وكان من بين هذه الكلمات كلمة أسأت هجاءها ، وهي كلمة « غلاية » — Kettle — وحاول المعلم أن يلفت نظري الى هذا الخطأ بغمزة من مقدم حذائه ،

ولكني لم أفهم ما يريد ، لم أفهم أنه كان يريد منى أن أنقل الهجاء الصحيح من لوح التلميذ الذى يجلس الى جوارى ، فقد كنت أظن دائما أن عمل المعلم انما هو مراقبتنا حتى يمنعنا من الغش . وكانت النتيجة المحتومة أن جميع التلاميذ ، باستثنائى وحدى ، استطاعوا أن يأتوا بالهجاء الصحيح للكلمات الخمس . وهكذا كنت الغبى الوحيد بينهم ، وعبثا حاول معلمى فيما بعد أن يكشف لى عن غباوتى فلم أستطع يوما أن أحذق فن الغش .

على أن هذا الحادث لم ينقص من قدر معلمى فى نظرى مثقال ذرة ، فقد كنت بطبيعتى ، عندما يكون الأمر متصلا بأخطاء من يكبروننى سنا ، أعمى لا أرى ولا أبصر . بل لقد عرفت فيما بعدالكثير من نواحى النقص الأخرى فى هذا المعلم ، ولكن احترامى له ظل ثابتا لا يتغير ، فقد تعلمت طاعة الكبار ، لا نقد أعمالهم .

وثمة حادث من نوع آخر كان له أثر لا يمحى فى حياتى . فقد استأذنت أبى فى أن أذهب لمشاهدة تمثيلية كانت تقوم بها احدى الفرق فى المدينة . كانت الرواية موضوع التمثيل هى رواية هاريتشاندرا . لقد ملكت على قصتها كل حواسى ولم أسأم من رؤيتها مرة بعد مرة . « ترى لماذا لا نسلك جميعا مسلك هاريتشاندرا ؟ » — كان هذا هو السؤال الذى لم أمل من توجيهه الى نفسى بالليل وبالنهار، أن نسلك طريق‌الحق ، وأن نحتمل ما احتمله هاريتشاندرا من محنة وبلاء . لقد صار مسلكه المثل الأعلى الذى أوحى الى فى حياتى بما أوحى . نعم فلقد آمنت بكل كبيرة وصغيرة شاهدتها فى تلك التمثيلية . كان مجرد التفكير فى حوادثها كافيا لكى يرسل الدموع الى عينى . اننى أدرك بتفكيرى الآن أن هاريتشاندرا ما كان يمكن أن يكون شخصية تاريخية ، ولكن حوادث قصته لا تزال حيةفى ذهنى ، وأنا واثق من أن تأثرى بها الآن ، لو أننى قرأتها مرة أخرى، لن يقل عن تأثرى بها يومئذ .

٣ ـ زواجي وأنا بعد طفل

كنت أتمنى لو أنني أعفيت نفسي من كتابة هذا الفصل ، لولا أنني أعلم ، وأنا أروى قصة حياتى ، أن على أن أزدرد كثيرا من الجرعات مهما كانت مريرة المذاق ٠ وما كان لى أن أفعل غير ذلك وأنا أسلك سلوك من يقدس الحق ٠ وهكذا كان على أن أسجل هنا قصة زواجى وأنا بعد فى الثالثة عشرة من عمرى ٠ اننى كلما رأيت الصغار فى تلك السن ممن هم فى رعايتى ، ثم ذكرت ظـروف زواجى ، ألفيت نفسى مشفقا على نفسى مما لقيت فى ذلك الوقت ، أحسد هؤلاء الصغار على أنهم قد أعفوا من مثل هذا المصير ٠ انى لا أرى سندا خلقيا يمكن أن يسوغ مثل هذا الزواج المبكر ٠

وأرجو من القارىء ألا يخطىء فى فهم حقيقة الوضع ٠فلقد تزوجت بالفعل فى تلك السن ، ولم يكن الأمر مجرد خطبة ٠ ففى ولايـة كاثياواد نوعان من المراسم فى مثل تلك المناسبات ـ خطبة وزواج ٠ فأما الخطبة فهى وعد أولى من جانب أبوى كل من الفتى والفتاة بأن يربطا حياة طفليهما برباط الزواج ، وهو وعد يمكن الرجوع فيه ، واذا مات الفتى أثناء خطبته فلا تصبح فتاته من بعـــده فى عـداد المترملات ٠ انه اتفاق بين الآباء وحدهم لا شأن للأطفال به ، بل هم كثيرا ما لا يفاتحون فيه على الاطلاق أو يعلمون من أمره شيئا ٠ ويبدو أننى خطبت ثـــلاث مرات فى حيـــاتى ، وان كنت لا أعلم ذلك الا استنتاجا ، فقد قيل لى أن فتاتين سبق أن وقع الاختيار عليهما لتكونا زوجتـــين لى ماتتا الواحدة بعد الأخرى ٠ وأكاد أذكر أن خطبتى

الثالثة تمت وأنا فى السابعة من عمرى وان كنت لا أذكر أننى أخطرت بها على الاطلاق ·

لقد كنا ثلاثة أشقاء · أما أكبرنا فقد كان متزوجا بالفعل فى ذلك الوقت · وقد استقر الآن قرار من هم أكبر منا سنا على أن يزوجونا أنا وأخى الثانى ، وكان يكبرنى بعامين أو ثلاثة ، وابن عمى ، ولعله كان يزيد عنى بسنة ، كلنا فى وقت واحد · وهم حين قرروا ذلك لم يكن تفكيرهم منصرفا الى سعادتنا الشخصية أو الى تحقيق رغبة أبدينا ، وانما كانت المسألة كلها مسألة راحتهم وظروفهم المالية ·

فالزواج عند الهندوس ليس بالأمر الهين أو البسيط ، بل هو كثيرا ما يجلب الخراب على الآباء وينتهى بهم الى الافلاس بسبب ما يتكبدونه فى سبيله من نفقات · فهم يبددون على حفلاته مالهم ويضيعون وقتهم · وتمضى الشهور ، الشهر تلو الشهر ، وهم يستعدون لتلك الحفلات ـ ما بين تطريز الملابس واعداد الحلى وتدبير المال اللازم للمآدب والولائم ، كل فريق يحاول أن يتفوق على غيره فى عدد الأطباق التى يقدمها للمدعوين ، والنساء يتبارين فى الغناء ـ سواء كان لهم رأى فى الموضوع كله أم لم يكن ـ حتى يبح صوتهن ؛ بل حتى يمرضن ، مهما كان فى ذلك من اقلاق لجيرانهن · ويتحمل الجيران كل ذلك ، يتحملون الجلبة والضوضاء ، ويتحملون معهما ما يلقى من القاذورات والقمامات المتخلفة من الموائد التى لا تنقطع ، لأنهم يعلمون أن الوقت سيجىء حين يتصرفون هم أنفسهم مثل هذا التصرف ·

وهكذا رأى من بيدهم أمرنا انه قد يكون من الخير لو أنهم فرغوا من هذه المتاعب كلها دفعة واحدة ، وغنموا الى جانب ذلك اقتصادا فى جملة النفقات مع قسط أوسع من السعة والأبهة ، فان المال حين

يصرف دفعة واحدة ، بدلا من أن يجزأ على ثلاث دفعات • يكون أبعد أثرا وأدنى الى تحقيق الهدف • ولعل أبى وعمى ، وقد كانا شيخين فى ذلك الوقت وكنا أصغر أولادهما ، قد أرادا الى جانب ذلك أن ينعما بأوفر قسط من السعادة للمرة الأخيرة فى حياتهما •

كل هذه الاعتبارات حدت بأبوينا الى عقد قران ثلاثتنا ، ومضت الشهور الطويلة فى الاستعداد لتلك المناسبة •

ولم ندر وقتهـــا ما كانت تخبئه لنـا الأيام الا عن طريق تلك الاستعدادات • وما أحسب أن الزواج كان له معنى عنـدى فى ذلك الوقت أكثر من أنه مناسبة لارتداء الجديد من الملبس والاستمتاع بدق الطبول وبالموائد الدسمة ، ثم بعد كل ذلك فتاة ألعب معها • وما زلت أذكر فى وضوح كيف جلسنا ، أنا وفتاتى ، فـوق المنصـة ونحن نزف الى بعضنا ، وكيف أدينـــا مراسم السابتابادى(١) ، وكيف كان كل منا ، ونحن بعد عروسان على عتبـــة الزواج ، يدس الكانسارا(٢) فى فم الآخر •

(١) سبع خطوات يؤديها العروسان الهندوسيان معا وهمايتبادلان مواثيق الاخلاص والوفاء ، يصبح الزواج بعدها رابطة لا انفصام لها•

(٢) حلوى تجهز من القمح يتناولها الزوجان معا عقب اتمام مراسم الزواج •

٤ ـ أؤدي دور الزوج

فى حوالى الوقت الذى تزوجت فيه كانت تباع كتيبات رخيصة لا يكاد يتجاوز ثمن الواحد منهـــا ما يوازى أربعة مليمات ، تتناول مشكلات الحياة الزوجية وزواج الأطفال وغير ذلك من الموضوعات ، فكنت كلما وقع فى يدى واحد منها التهمته التهاما • وكان من عادتي دائما أن أنسى مالا أستسيغه منها ، وأن أظل أذكر ما يعجبنى فيهـــا ثم أحاول أن أطبقه على نفسى فى حياتى العملية • من ذلك مثلا ماقرأته فيها من ضرورة اخلاص الزوج لزوجته مدى الحيـــاة وتعففه عن كل ما فيه انتهاك لعهده لها ، فقد ظل ذلك الدرس منطبعا فى نفسى طوال حياتى • ثم لمـــا كان التعلق بالحق أحد الصفات المتأصلة فى نفسى ، فقد كان عدم الوفاء لزوجتى خارجا عن نطاق الاحتمال • أضف الى ذلك أنه لم يكن أمامى من فرص الخيانة لها الا القليل فى هذه السن النضرة •

على أن هذا الدرس فى الاخلاص الزوجى كان له أثر غير متوقع، فقد قلت لنفسى اذا كان على أن أكون وفيا لزوجتى فان عليها كذلك أن تكون وفية لى • وتحولت تحت تأثير هذه الفكرة الى زوج شديد الغيرة حتى جعلت لنفسى من واجبها فى ذلك حقا مشروعا يجيز لى أن أنتزع منها اخلاصها انتزاعا • ثم اذا كان لابد أن أنتزع منها هـــذا الحق فان واجبى يقتضينى أن أحرص على هـــذا الحق كل الحرص ، وأن أمارسه الى أقصى حد •

ولم يكن لدى من الأسباب ما يحملنى على التشكك فى اخلاص

زوجتى ، ولكن هكذا شأن الغيرة ، فهى لا تحتاج الى أسباب · ومن هنا كان على دائما أن أكون حذرا ، أرقب حركاتها وسكناتهـا ، ولا أسمح لهـا بالخروج الا باذنى · فكان ذلك مثار نزاع مرير بيننا ، حتى استحالت هذه القيود التى فرضتها عليهـا الى نوع من السجن بالنسبة لها · وما كانت كاستوربای ، زوجتى ، بالفتاة التى يمكن أن تسكت على ذلك ، فقد تعمدت أن تخرج كلمـا أرادت ، وأينما أرادت ، وبقدر ما كنت أتشدد فى تطبيق هذه القيود كانت تستبيح لنفسـها مزيدا من الحرية ، فيزداد غضبى عليهـا ، حتى أصبح الامتناع عن الـكلام أمرا عاديا بيننا ، نحن الزوجين الطفلين · ولا يخالجنى شك فى براءة كاستوبارى حين أباحت لنفسها الخروج على ما فرضته عليها من قيود · وكيف تستطيع فتاة لا تقصد سوءا أن تحتمل تلك القيود حين لا تذهب الا الى المعبد ، أو الى زيارة بعض الأصدقاء ؟ ثم اذا كان لى الحق فى أن أفرض هذه القيود عليها ، أفلا يكون من حقها هى كذلك أن تفرض على مثلها ؟

كل ذلك قد وضح أمامى الآن ·· أما فى ذلك الوقت فقد كان همى منصرفا كله إلى محاولة فرض سلطانى عليها .

٥ ـ رفيق السوء

كان من بين رفاقى القلائل فى المدرسة الثانوية اثنان يمكن أن يقال عنهما انهما كانا صديقين حميمين لى فى فترتين مختلفتين · ولم تدم صداقة أحدهما لى طويلا ، لا لأنى تخليت عنه يوما ، بل لأنه لم يرض عن مصادقتى للآخر · وقد أثبتت صداقتى للثانى أنها كانت وبالا على ، بل مأســاة من مآسى حياتى · وقد دامت صــداقته زمنا طويلا ، فقد صــادقته وأنا مدفوع برغبتى فى أن أقومه ، وأن أقوم نحوه بدور المصلح ·

كان هذا الرفيق فى الأصل صديقا لأخى الثانى · كانا معا فى فرقة واحدة · وكنت أعرف مواطن ضعفه ، ولكنى مع ذلك كنت أعده صديقا وفيا · وقد حذرتنى أمى ، كما حذرنى أخى الأكبر وحذرتنى زوجتى ، من معاشرة من كانوا يرونه رفيق ســوء · وما كان لى أن أعارض رأى أمى أو أخى الأكبر ، ومن ثم فقد عكفت على التوســل اليهما · قلت لهما : « اننى أعرف مواطن الضعف التى تريانها فيه ، ولكنكما لا تعرفان فضائله · ثم هو لا سبيل له الى أن يضلنى لأن الهدف من صداقتى له هو تقويم خلقه · وانى لعلى يقــين من أنه لو أصلح نفسه فسوف ينقلب رجلا فاضلا · انى أتوســـل اليكما ألا تحملا همى بسببه ! » ·

ولكننى أدركت بعــــد ذلك أننى كنت مخطئا فى تقــديرى · فالمصلح لا يجــوز أن تكون له صلة حميمة بمن يتولى اصـــلاحه ، والصداقة الحقيقية هى التى تقوم على تآلف بين روحى الصديقين ،

وهى نادرا ما توجد فى عالمنا هذا ، ولا يمكن أن تدوم الا بين من كانا على شاكلة واحدة • والأصدقاء فوق ذلك يتأثر بعضهم ببعض ، ولهذا كان مجال الاصلاح بين الأصدقاء ضيقا محدودا • وفى رأيى أن من الواجب تجنب كل صداقة مستأثرة تحول دون مصادقة سائر الناس• ذلك ان الانسان يتأثر بالرذيلة بأسرع مما يتأثر بدواعى الفضيلة ، ومن كان يهدف الى أن يظل على وفائه لله يجب عليه أن ينأى بنفسه عن كل ما يورطه ، وأن يتخذ الناس جميعا أصدقاء له •

وتصادف أن كانت موجـــة من « الاصـــلاح » تكتسح ولاية راجكوت فى الوقت الذى تعرفت فيه بصديقى هذا ، فلم يكن غريبا أن يقول لى ان كثـيرين من معلمينا يأكلون اللحم ويشربون الخمر سرا وأن يذكر لى أسـماء بعض الرجال فى راجكوت ، بل أسـماء بعض تلاميذ المدرسة أنفسهم ، ممن زعم أنهم يفعلون ما يفعله معلمونا •

ولقد أدهشنى ذلك بقدر ما غصنى ، وسألت صديقى لم يفعلون ما يفعلون ؟ قال : « اننا قوم ضعيفو البنية لأننا لا نأكل اللحم ، وقد استطاع الانجليز أن يتحكموا فينا لأنهم لا يتعففون عن أكله • وانك لتعلم قوة عضلى ، وتعلم تفوقى فى السباق ، وما ذلك الا لأننى آكل اللحم • ان من يأكلون اللحم لا يمرضون ، واذا مرضوا فهم يتماثلون الى الشفاء سريعا • ان معلمينا وغيرهم من كبار القوم الذين يأكلون اللحم ليسوا سـذجا • انهم يعلمون فضائله ، وعليك أن تفعـل مثلهم ، وما عليك الا أن تجرب لترى بنفسك ما يضفيه عليك أكله من قوة وحيوية » •

ولم يلق صديقى بحججه هذه فى جلسة واحدة ، بل فى جلسات متعددة • وكان أخى الثانى قد زل من قبل فلم يكن غريبا أن يظاهره فيما يقول • ولقد كنت بالفعل هزيلا بالقياس الى أخى أو بالمقارنة الى

هذا الصديق ، وكانت تبهرني الأعمال التي يأتيها صديقي ، فقد كان يستطيع أن يجري مسافات طويلة وبسرعة فائقة · وكان يجيد القفز العالي والطويل ، كما كانت له الى جانب ذلك قدرة عظيمة على احتمال أنواع العقوبات البدنية · والمرء عادة يبهره ما يراه في الغير من الصفات التي يفتقر هو نفسه اليها · وهكذا رأيتني مدفوعا برغبة جارفة الى أن أكون مثله · نعم ، لماذا لا أكون في قوته وصلابته ؟

وكنت فوق هذا وذاك جبانا ، يتسلط على الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعي ، فلم أك أجرؤ على الخروج في الليل · كان الظلام يرعبني ويخيفني ، وكان يستحيل على النوم في الظلام ، ولو فعلت لتصورت الأشباح مقبلة على من ناحية ، واللصوص من ناحية ثانية ، والافاعي من ناحية ثالثة · لذلك لم أكن أفكر في النوم من غير مصباح يضيء حجرتي حتى لا يفتضح أمري أمام زوجتي ، وأنا الصبي الكبير الذي يقف على عتبة الشباب · لقد كنت أعرف أنها أكثر شجاعة واقداما مني ، فكان ذلك يملؤني خجلا · انها لم تكن تخشى الأفاعي أو الأشباح وكان في مكنتها أن تخرج الى أي مكان في ظلمة الليل الموحشة · وكان صديقي يعرف في هذا الضعف ، فكان يقول لي انه يستطيع أن يمسك بيده خمسة أفاع حية ، وأن يتحدى اللصوص جميعا ، وانه لا يؤمن بالأشباح ، وما ذلك بالطبع الا لأنه يأكل اللحم ·

وقد كان لكل ذلك أثره في نفسي ، فقد غلبت على أمري في النهاية وصرت أعتقد أن الخير كل الخير في أكل اللحم ، وأن أكله سيجعلني أكثر قوة واقداما ، وأن الانجليز لابد مدحورون مغلوبون لو أن البلاد كلها شرعت تأكل اللحم ·

وتحدد يوم معين لكي أبدأ فيه تجربتي الجديدة في السر ، فقد

كان أبواى ينتميان الى طائفة الفيشنافا ، وهى طائفة شديدة التدين الى حد التزمت · واذ كنت شـــديد الاخلاص لهما فقد عز عـلى أن يصيبهما مكروه اذا علما بأننى آكل اللحم ، ولـكننى كنت مشغولا بحركة « الاصلاح » الجديدة ، فضلا عن أن رغبتى فى أكل اللحم لم تكن عن لذة ، اذ الواقع اننى لم أكن أعرف أن له طعما خاصا ، بل كان كل ما أهدف اليه أن أصير قويا شـجاعا ، وأن يصبح مواطنى جميعا ذوى قوة وبأس حتى نهزم الانجليز ونحرر الهند · نعم ، لقد أعمتنى الرغبة فى « الاصلاح » حتى استطعت أن أقنع نفسى ، بعـد أن تأكدت من بقاء الأمر سرا ، بأن اخفاء ما كنت مقدما عليه عـلى أبوى لا ينطوى على خروج عن جادة الحق ·

٦ ـ مأســـاة

وجاء اليوم الموعود ، وانه ليصعب على أن أصف حالى فى ذلك اليـــوم ٠ كانت تنتابنى عوامل متباينة ٠ كنت من ناحية متحمسا « للاصلاح » ألتمسه حتى ولو اقتضى الأمر خروجى عن طريق الحياة المألوف ٠ وكنت من ناحية أخرى خجلا من تسترى كما يتستر اللص لكى أفعل ما أنا فاعل ٠ وذهبنا أخيرا نلتمس مكانا خفيا عند النهر ، وهناك رأيت للمرة الأولى فى حياتى ــ اللحم : ومعه خبز مما تخرجه الأفران العامة ٠ ولم أستسغ شيئا منهما ، فقد كان لحم الماعز جامدا كالجلد فلم أستطع أكله ، بل لقد تقايأت ما دخل جوفى منه واضطررت الى الكف عن الأكل ٠

وأمضيت بعد ذلك ليلة من أسوأ الليالى ، انتابنى فيها كابوس مخيف ، وكنت كلما غلبنى النوم أحسست كما لو كان ماعز حى يثغو فى جوفى فأهب من نومى ملوما محسورا ، ثم أعود فأذكر نفسى بأن أكل اللحم واجب يجب أداؤه فيعاودنى بعض الرضا ٠

ولم يكن صديقى بالشخص الذى يستسلم للهزيمة فى سهولة، فقد أخذ يعد من أنواع اللحم بعـد ذلك ما لذ وطاب ، وجعل يعنى بطريقة تقديمه عناية ملحوظة ٠ ولم تعد بنا حاجة بعد ذلك الى التماس بقعة منعزلة على شـــاطىء النهر بل كنا نتناول غداءنا فى بيت من البيوت التى تملكها الحكومة بما فيه من قاعة للطعام وموائد وكراسى كان صديقى قد أعده لهذا الغرض بالاتفاق مع رئيس طهاته ٠

وكان لهذا الطعم الذى ألقى به صديقى أثره ، فأخذت أتغلب على كراهيتى لهذا النوع من الخبز ، وتخليت عن الشعور بالرحمة نحو الماعز ، وأخذت أستطيب أطبـــاق اللحم وان لم أستطب اللحم نفسه · واستمر الحال يجرى على هذا المنوال سنة كاملة لم يزد عدد ولائم اللحم فيهـــا على ست مرات ، اذ لم يكن البيت الحـكومى فى متناولنا دائما ، فضلا عما كان يتطلبه اعداد تلك الأطباق الشهية من نفقات لا قبل لى بها ، فلم يكن عندى من النقود ما أدفعه فى سبيل هذا « الاصلاح » ، فكان صديقى يتولى تدبير ما تستوجبه هذه الولائم من نفقات ·

وكنت فى كل مرة يتاح لى فيها أن أنعم بتلك المـآدب السرية لا أجد فى نفسى اقبالا على العشاء فى البيت ، فكانت أمى تسألنى عما بى فأقول لها : « ليست عندى شهية اليـوم · ان هضمى ليس على ما يرام » · ولم يكن اختلاقى لهذه الأعذار يمر دون وخز من ضميرى ، فقد كنت أعلم اننى أكذب ، واننى أكذب على أمى ، وكنت أدرك أنه لو أتيح لأمى وأبى أن يعرفا عنى هذه الزلة لارتاعا من هول الصدمة· كان ادراكى لهذا كله ينهش فى قلبى نهشا ·

وقلت لنفسى أخيرا : « قد يكون من الضرورى أكل اللحم ، وقد يكون من الواجب متابعة هـذا « الاصلاح » فى غذاء البلاد ، ولـكن الخداع والـكذب على الأب والأم أشد اثما من الامتناع عن تنـاول اللحوم · واذن فلا مفر من الـكف عن تناولها ما دام أبواى على قيد الحياة ، فاذا وافاهما الأجل ، وظفرت بعـد ذلك بحريتى ، أكلت اللحم علنا ، فالى أن يحين ذلك الوقت سأظل ممتنعا عن أكله » ·

وأطلعت صديقى على هـــذا القرار الذى اتخذته · ومنذ ذلك الوقت لم أعد الى تناول اللحم مرة واحدة ، ولم يعرف أبواى اطلاقا أن ابنين لهما قد أكلا اللحم يوما ·

فلقد حـــرمت اللحم على نفسى بعـــد ذلك ، مدفوعا برغبتى الصادقة فى ألا أكذب مرة أخرى على أبوى ، ولكننى مع ذلك لم أكف عن معاشرة هذا الصديق ٠ لقد جلب على حبى فى تقويمه كثيرا من البلاء ولكننى بقيت طول الوقت فى جهل مما كنت أعمه فيه ٠

٧ ـ مأساة أخرى

لقد كان من الجائز أن تنتهى بى معاشرة هذا الصديق الى خيانة زوجتى لولا أن الله أنقذنى بفضله ، فقد أخذنى صديقى مرة الى بيت من بيوت الدعارة بعد أن قام بترتيب كل شيء من أجلى ودفع كل شيء مقدما ٠ وهكذا سرت بقدمى بين فكي الرذيلة ، ولكن الله تعالى الذى وسعت رحمته كل شيء عصمنى من نفسى ، فقد ألفيت نفسى ، وأنا فى ذلك البيت ، أعمى لا أبصر وأبكم لا أنطق ٠ لقد انعقد لسانى فلم يستطع أن يقول شيئا ، حتى ضاقت بى ذرعا وشيعتنى الى البـاب وهى تمطرنى بوابل من السباب والشتائم ٠

لقد شعرت وقتها أن شيئا قد خدش رجولتى ووددت لو انشقت الأرض فابتلعتنى وأراحتنى مما أنا فيه ٠ ولم أكف من وقتها عن حمد الله على ما أفاء على من رحمته فأنقذنى مما كنت مقبلا عليه ٠

ان مثل هذه الحالة ، اذا حكمنا عليها من الناحية الأخلاقيـة البحتة ، على الرغم من نجاتى منها ، زلة بشعة لا تقل فى اثمها عن الوقوع فى الاثم نفسه ٠ أما من الناحية العرفية فان الرجل الذى ينجو من الاثم ، حتى ولو كان على غير ارادة منه ، يعتـبر كمن لا اثم له ٠ ولذلك فلم أكن مبرءا من الاثم الا على هذا الاعتبار وحده ٠ فهناك حالات تكون النجاة فيها مجرد توفيق من الله سواء للمرء نفسه أو لمن حوله، وما ان يفيق المرء من سلطان الوسواس حتى يحمد الله ويثنى عليه على أن قدر له الهرب مما كان يراود نفسه ٠ اننا نعلم أن العناية الالهية كثيرا ما تتدخل لتنقذ بعض الناس رغم أنفسهم ٠ أما كيف يحدث ذلك ، وهل الانسان مخير أم مسير فى أفعاله ، وما هو أثر ارادته

الحرة ، وأين يتدخل القدر ، فهى كلها أمور ستظل لغزا يستعصى على كل حل ٠

ولم يقف أثر صديقى عند هذا الحد ، فقـد كانت معاشرته أحد أسباب خلافى مع زوجتى ، فقد كنت مولعا بزوجتى بقـدر ما كنت أغار عليها ٠ وكان صديقى هذا لا يكف عن اشعال نيران الظنون من جهتها فى صدرى ، ولم أكن أتشكك فى صدق قوله ٠ اننى لن أغفر لنفسى قسوتى على زوجتى وما سببته لها من شقاء بسبب استماعى لكلامه ، ولعل المرأة الهندوسية وحدها هى التى تستطيع أن تحتمل مثل ما احتملت زوجتى ، حتى لقد أصبحت منذ ذلك الوقت أعتبر المرأة رمزا مجسدا على التسامح والاحتمال ٠

ولم تقتلع الشكوك من نفسى تماما الا بعد أن بدأت أفهم معنى المحبة المبرأة من العنف (أحمسا) وأخذت أطبقها فى حياتى ، وأدركت أن الزوجة ليست أمة للزوج بل هى رفيقه فى الحياة وعونه عليها ، هى شريكته فى السراء والضراء ، لها من الحرية ما له فى اختيـــار سبيلها فى الحياة ٠ اننى كلما فكرت فى تلك الايام الموحشة ، حين كانت تنتابنى الشكوك والظنون ، امتلأت نفسى اشمئزازا مما كنت سادرا فيه من سخف ومن قسوة ممزوجة بالشهوة ، وكرهت اخلاصى الأعمى لذلك الصديق ٠

٨ ـ سرقة ٠٠ ثم ندم

لا بد لى كذلك من أن أسرد هنا بعض نواحى الضعف الكامنة فى نفسى فى خلال الفترة التى كنت آكل فيها اللحم وما قبلها بقليل ٠

فقد تعلقت وقتها ، أنا وقريب لى ، بالتدخين ، لا لأننا وجدنا فيه ما يحببه الى نفوسنا ، ولا لأننا أغرمنا بطعم السجائر ونكهتها ، بل لأننا كنا نجد لذة فى اطلاق سحب كثيفة من الدخان من أفواهنا ٠ وكان عمى ممن اعتادوا التدخين ، فكنا كلما رأيناه يدخن وجدنا فى أنفسنا شوقا الى تقليده ٠ ولكن أنى لنا بالسجائر ولم نك نملك من النقود ما يسمح لنا بشرائها ؟ لقد شرعنا نلتقط أعقاب السجائر التى يلقى بها عمى كلما انتهى من واحدة منها ٠

غير أن هذه الأعقاب لم تكن متوفرة دائما ، وحتى لو كانت متوفرة فهى لا تسمح باطلاق كثير من الدخان من بين شفاهنا ٠ وهكذا عمدنا الى سرقة بعض قطع العملة الصغيرة من مصروف خادمنا لكى نشترى بما نسرق بعض السجائر الهندية ٠ وكان علينا بعد ذلك أن نواجه صعوبة أخرى ، اذ كيف نخفى أمرها ونحن لا سبيل لنا الى تدخينها فى حضرة من هم أكبر منا سنا ؟ ومع ذلك فقد استطعنا أن نشبع شهوتنا من الدخان بضعة أسابيع من تلك الدريهمات المسروقة ٠

وترامى الى سمعنا فى الوقت نفسه أن سيقان نبات معين فيها من المسام ما يسمح بتدخينها كالسجائر فأتينا ببعضها وأخذنا نجرب هذا النوع من الدخان ٠

ومع ذلك فقد كنا أبعد ما نكون عن الاكتفاء بمثل تلك المحاولات،

اذ كانت نفوسنا تتوق الى الاستقلال بعد أن لم نعد نطيق عجزنا عن أن نأتى شيئا الا باذن من كانوا أكبر منا سنا ، وأخذ منا اليأس أخيرا كل مأخذ حتى ضاقت بنا الارض بما رحبت فقررنا أن ننتحر ٠

ولكن كيف السبيل الى الانتحار ؟ ومن أين لنا بالسم ؟ لقد كنا سمعنا أن بذور الداتورة سم قاتل ، فانطلقنا الى حرش قريب نبحث عن تلك البذور ، حتى وجدناها أخيرا ٠ واستقر رأينا على أن الليل هو أنسب الأوقات لنفعل فعلتنا ٠ وهكذا ذهبنا الى معبد كادار وبعد أن وضعنا بعض الزيت فى مصباحه أخذنا نبحث عن مكان قصى لننفذ ما اعتزمناه ٠ وهنا خانتنا شجاعتنا ٠ ماذا لو أننا لم نمت من السم على الفور ؟ ثم ما الحكمة من قتل أنفسنا بأنفسنا ؟ أليس من الخير أن نرضى بما نفقده من استقلال شخصى عن أن نفعل هذه الفعلة البشعة؟ ومع ذلك فقد ابتلع كل منا بذرتين أو ثلاثا مما كان معنا ، ولم نجرؤ على أن نزيد عليها فقد كنا فى خوف من الموت ٠ وذهبنا بعد ذلك الى معبد رام لكى نستعيد هدوءنا النفسى ونستعيذ من فكرة الانتحار ٠

أدركت بعد ذلك أن الانتحار ليس بالسهولة التى يستطيع المرء أن يفكر فيه ، وكنت كلما سمعت بأن شخصا يهدد بالانتحار كان تأثرى بهذا التهديد قليلا أو معدوما ٠

بل لقد أدت بنا فكرة الانتحـــار التى راودتنا بعض الوقت الى الاقلاع عن عادة تدخين أعقاب السجائر وعن سرقة نقود الخادم لكى نشترى بما نسرق حاجتنا من السجائر ، ولم تعد لى رغبة فى التدخين بعد ذلك ، بل لقد ظللت أعتبر عادة التدخين عادة همجية قذرة بقدر ما هى ضارة ٠ وفى الحق اننى عاجز عن ادراك سبب واحد لحمى التدخين التى تنتاب العالم كله فى هذه الأيام ، بل لا أطيق السفر فى عربة من عربات السكة الحديد يكثر فيها المدخنون ٠ اننى أشعر وقتها باننى أكاد أختنق ٠

على أن هناك سرقة أخرى في حياتي كانت أدهى وأمر من تلك التي سردتها • ففي المرة الأولى كنت أسرق الدريهمات وأنا بعد في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري ، بل لعلي كنت أصغر من ذلك • أما في هذه المرة فقد سرقت وأنا في الخامسة عشرة ، اذ استوليت على بعض الذهب من سوار لأخي الذي اعتاد أكل اللحم • فقد كان أخي هذا قد جر على نفسه دينا بلغ نحو خمس وعشرين روبية ، ولما كان يلبس حول ذراعه تميمة من الذهب فلم يكن بالأمر العسير على أن أقتطع من هذه التميمة بعض أجزائها دون أن يحس •

نعم ، لقد فعلت ذلك ، وانتهى دينه على كل حال ، ولكن هذه السرقة كانت أكثر مما أحتمل ، فقررت بيني وبين نفسي ألا أعود الى السرقة مرة أخرى ، وصممت على أن أعترف لأبي بما فعلت • ومع ذلك فقد خانتني الكلمات ، لا لأنني كنت أخشى أن يضربني أبي — لا ! فلست أذكر أنه ضربني مرة واحدة — ولكن لأنني كنت أخاف مما قد أسببه له من ألم • على أنني شعرت ، على الرغم من ذلك ، أن الأمر يستحق هذه المجازفة ، وأنه لا سبيل الى تطهير نفسي ، الا باعتراف خالص وصريح •

واستقر رأيي أخيرا على أن أقدم اعترافي لأبي كتابة وأن أطلب منه الصفح والمغفرة • وكتبت اعترافي على قصاصة من الورق سلمتها له بنفسي ، لم أقتصر فيها على الاعتراف بذنبي ، بل رجوته فيها كذلك أن يوقع على عقابا جزاء حقا على ما ارتكبت يداي ، وألا يعذب نفسه بذنبي ، وعاهدته على أن تكون توبتي توبة نصوحا ، فلا أعود الى السرقة مرة أخرى •

لقد كنت أرتعد خجلا وأنا أسلم اعترافي لأبي ، وزاد من خجلي أنه كان يشكو من علة ألزمته الفراش ، ولم يكن فراشه يزيد على أن يكون لوحا من الخشب ، فجلست قبالته على الأرض ، بعد أن سلمته اعترافي •

وقرأ أبى الرسالة ، وأخذت الدموع تتساقط على خده كحبات اللؤلؤ حتى ابتلت رسالتى بدموعه ، ثم أغلق عينيه لحظة أخذ بعدها يمزق الرسالة اربا ، ثم عاد يستلقى على فراشه ، بعد أن كان قد جلس يقرؤها · وبكيت أنا كذلك · لقد كنت أحس بما يعتمل فى نفس أبى من ألم وحزن · ولو أننى كنت فنانا لاستطعت حتى فى يومنا هذا أن أرسم صورة رائعة لهذا المشهد الغريب الذى لا يزال يعلق فى ذهنى الى الآن ·

لقد غسلت هـذه الدموع التى انهمرت من مآقى أبى ، وكان مبعثها الحب الخالص ، كل ما فى قلبى من اثم ، ومحت ذنبى الذى عكر على صفو حياتى · ولن يقدر ذلك حق قدره الا من جرب هـذا الحب الخالص ·

لقد كان هذا الحادث درسا عمليا فى المحبة الخالصة ، فان هذا التسامى فى المغفرة لم يكن من طبيعة أبى · لقـد كنت أظن أنه سيغضب ، وسيوجه الى قارص الكلام ، ويضرب رأسه بيده ، ولكنه لم يفعل ، بل كان هادئا هدوءا غريبا أعتقد أن مرده كان اعترافى الخالص ، فان الاعتراف الخالص ، الذى يصحبه وعد بالتوبة الحقة ، اذا قدم لمن يملك العفو ، هو أسمى آيات التوبة والندم · ومن ثم فقد شعرت بأن اعترافى قد بعث فى نفس أبى شعورا بالسكينـة ، وزاد فى محبته لى زيادة لا تقدر ·

٩ - أبى يمرض ثم يموت

كنت الآن فى السادسة عشرة من عمرى · وقد كان أبى ، كما سبق القول ، طريح الفراش ، من اثر علة من العلل ، فكنت أنا وأمى وخادم عجوز ، أكثر الناس رعاية له ، وقياما على شئونه أثناء مرضه· كنت أقوم بدور الممرض ، أضمد جرحه ، وأسقيه الدواء ، وأخلط له العقاقير كلما كان خلطها يتم فى البيت ، وأدلك رجليه كل ليلة ، فلا أكف الا اذا طلب منى ذلك ، أو الا اذا غلبه النوم · فلقد كان القيام على خدمته أمرا محببا الى نفسى · ولست أذكر أننى أهملت واجبى فى ذلك ليلة واحدة · لهذا كنت أمضى كل ما لدى من وقت، بعد أداء واجباتى اليومية ، بين المدرسة ، وبين العناية بأبى ، ولم أكن أخرج من المنزل للمشى فى المساء ، الا اذا سمح هو لى بذلك ، أو كانت حالته فى تحسن ·

وجاءت الليلة الرهيبة أخيرا · كان ذلك فى الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة مساء · كنت منهمكا ليلتها فى تدليك قدميه حين عرض على عمى أن يريحنى قليلا · ورحبت بما عرض وانصرفت الى حجرة نومى · كانت زوجتى المسكينة فى سبات عميق · ولكن كيف تنام بينما أنا فى الحجرة ؟ لقد أيقظتها من نومها ، ولم تمض الا خمس دقائق أو ست حتى كان الخادم يطرق الباب وهو يقول : « قم ! فقد اشتد المرض بأبيك » · لقد كنت أعرف أن مرض أبى شديد فلم يصعب على أن أدرك فى تلك اللحظة ما قصده من هذه العبارة · وقفزت من فراشى ، وأنا أقول : « خبرنى ! ما الأمر ؟ » وجاء الرد الذى أجهز على كل آمالى : « لقد انتهى أبوك » ·

وهكذا انتهى كل شىء ، ولم أستطع أن أفعل أكثر من ان أفرك

يدى • لقد كنت فى خزى وبؤس فى وقت واحد ، فلولا أن تغلبت على الشهوة البهيمية حين أعمتنى لكنت تجنبت ألم الفراق عن أبى فى تلك اللحظات الأخيرة • لقد ظل سلوكى فى تلك الليلة وصمة تلاحقنى فلا أستطيع أن أنساها أو أتحلل من أثرها ، وأدركت أننى على الرغم من اخلاصى الشديد لأبوى وحبى لهما ، واستعدادى لأن أفعل كل شىء من أجلهما ، فان حبى واخلاصى قد انتقص من قدرهما هذا السلوك الذى لا سبيل الى الاغضاء عنه • نعم ! فلقد كنت أسير شهوتى فى ذلك الوقت ، ولم أتمكن من التخلص من ربقة أسرها الا بعد وقت طويل ، وكان لابد من أن أمر بمحن كثيرة قبل أن أستطيع التغلب عليها •

١٠ ـ لمحات من الدين

لما كنت قد ولدت على عقيدة الفيشنافا ، فقد كان على أن أذهب كثيرا الى معبد الهافيلى ، وان كنت لم أستسغ الذهاب اليه ، اذ لم يكن يعجبنى ما فيه من بريق ، ومن مظاهر الأبهة والعظمة ، فضلا عما كان قد ترامى الى سمعى من آثام ترتكب فيه • ولذلك فقد رغبت عنه ولم أفد من الذهاب اليه شيئا •

غير أن ما فاتنى منه قد جنيته عن طريق مربيتى ، وهى خادم عجوز فى خدمة الأسرة لا زلت أذكر حبها لى وحنانها على • وقد سبق لى أن ذكرت أن الخوف من العفاريت والأرواح كان يستبد بى ، وقد اقترحت رامبها ـ فقد كان هذا هو اسمها ـ أن أتلو الرامانااما المرة بعد المرة علاجا لهذا المرض • ولما كانت ثقتى بهـــا أكثر من ثقتى بعلاجها ، فقد أخذت أتلوها وأنا فى تلك السن النضرة ، وأكرر تلاوتها التماسا للشفاء • ولم يدم هذا العلاج طويلا ، ولكن البذرة الصالحة التى غرستها هذه المرأة الطيبة فى نفسى ، وأنا لا أزال فى طفولتى ، لم تغرس سدى فقد ظلت الراماناما علاجا نفسيا لا يخيب معى الى يومنا هذا •

وكان أبى يقيم فى بورباندر خلال بعض فترات مرضه ، فكان وهو هناك يستمع كل مساء الى تلاوة الراماناما من قارىء ورع وهبه الله صوتا جميلا ، فكان ينشد الثنائيات والرباعيات ثم يأخـــذ فى تفسيرها فينسى نفسه فى تيه الحديث بعد أن يكون قد حمل سامعيه معه • ومع أننى كنت لا أزال فى الثالثة عشرة فى ذلك الوقت فلا زلت أذكر ما كان لتلاوته وتفسيره من وقع كبير فى نفسى •

وفى راجكوت تلقيت دروسى الأولى فى التسامح نحو جميـــع المذاهب الهندوسية ونحو غيرها من الأديان الشقيقة · فقد كان أبى وأمى يزوران معبد الهافيلى كما كانا يزوران معابد شيفا وراما عــلى السواء ، وكانا فى تلك الزيارات يصحبان‌نا نحن الصغار معهما تارة، وتارة أخرى يبعثان بنا اليها جميعا ·كذلك كان بعض الكهنة من أتباع الجينية يزورون أبى أحيانا ، وكثيرا ما كانوا يخرجون عن طريقهم المألوف فيطعمون من طعامنا نحن الذين لم نكن ندين بدينهم ، بل كثيرا ما كانوا يتذاكرون مع أبى فى موضوعات شتى ، منها ما هو دينى ، ومنها ما هو دنيوى ·

وكان لأبى فوق ذلك أصدقاء من المسلمين ومن المجوس ، كانوا يأتون اليه ويتحدثون معه فى شئونهم الدينية ، فكان ينصت اليهم دائما فى اجلال واحترام ، وفى كثير من الاهتمام · وأتاح لى قيامى على شئون أبى ، خلال مرضه ، فرصة الاستمـــاع الى تلك الأحاديث · كل ذلك تجمع فى نفسى وغرس فى قلبى روح التسامح نحو جميع الأديان ، الا دينا واحدا فى ذلك الوقت ، هو المسيحية ، فقد كانت له كراهية خاصة فى نفسى يومئذ لسبب معين ·

ذلك أن المبشرين المسيحيين كانوا قد اعتادوا فى تلك الأيام أن يقفوا فى ركن قريب من المدرسة الثانوية ، فينطلقوا فى تبشيرهم ، ويسخروا من الهندوس ، ويستهزئوا بآلهتهم · ولم تحتمل نفسى ذلك · ولعلى لم أقف لأستمع اليهم الا مرة واحدة ، ولكن هذه المرة الواحدة كانت كافية لأن تصرفنى عن تكرار التجربة · وزاد الطين بلة أننى سمعت فى حوالى ذلك الوقت عن هندوسى معروف ارتد الى المسيحية ، وكانت المدينة كلها تتحدث عنه وتلوك بألسنتها مسلكه بعد ارتداده ، كيف أكل عند تنصيره لحم البقر وشرب بعض المشروبات الروحية ، وكيف بدل ملابسه فأخذ يمشى بين الناس بالزى الأوروبى بما فيه القبعة · واشمأزت نفسى من كل ذلك وقلت لنفسى ان دينــا

يرغم الناس على أكل لحم البقر وعلى شرب الخمر وعلى تغيـــير زيهم لا يمكن أن يكون جديرا بهذا الاسم · بل كنت قد سمعت فوق ذلك أن هذا المرتد قد شرع يسخر من دين أجداده وآبائه ويهزأ بعاداتهم وببلادهم · كل ذلك ولد فى نفسى شعورا بالكراهية للمسيحية فى ذلك الوقت ·

على أن هذا التسامح نحو الأديان الأخرى ، الذى تعلمته فى صغرى ، لم يعن بالضرورة أن الايمان بالله ، عن ادراك ووعى ، كان يملأ على نفسى فى تلك الأيام ، ومع ذلك فان شيئا واحدا كان قد تغلغل الى أعماق نفسى فى ذلك الوقت ــ ذلك هو الايمان بأن الأخلاق أساس كل شىء ، وبأن الحق هو أساس الأخلاق ، ومن ثم فقد أصبح الحق الهدف الذى أبتغيه ، وأخذ ايمانى بالحق يزداد على مر الأيام ، وادراكى لمعناه يتسع فى مداه شيئا فشيئا ·

١١ ـ الاستعداد للسفر الى انجلترا

كان الكبار من أفراد أسرتي يريدونني على أن أستكمل دراستي في احدى الكليات عقب حصولي على شهادة اتمام التعليم الثانوي ٠ وكان أمامي كليتان يمكن أن ألتحق باحداهما ، واحدة في بهافناجار ، والأخرى في بومباي ٠ ولما كانت أولاهما أقل في مصروفاتها ، فقد استقر رأيي على أن ألتحق بها ـ تلك هي كلية سامالداس ٠ ودخلت الكلية المذكورة ، ولكنني وجدت نفسي فيها في دوامة عنيفـــة من الارتباك ٠ كان كل شيء فيها صعبا ، حتى عجزت عن متابعة ما يلقى فيها من دروس ، وافتقدت كل شوق اليها ٠ ولم يكن الخطأ في ذلك خطأ الأساتذة ، فقد كانوا من خيرة أساتذة الكليات ، ولكنني كنت لا أزال فجا لم أنضج بعد ٠ وهكذا ما كاد ينتهي الفصـــل الدراسي الأول حتى عدت الى بيتي ٠

وكان لنا في ماف جي دافي ، وهو برهمي يتسم بالحكمـة والمعرفة ، صديق قديم ، وناصح أمين ، ظل على اتصال بنا حتى بعد وفاة أبي ٠ وتصادف أن جاء لزيارتنا في فترة عطلتي ، وتطرق الحديث الى السؤال عن أحوالي المدرسية ، فلما علم أنني التحقت بكلية سامالداس قال يخاطبنا أنا وأمي وأخي الأكبر : « لقد تغير الزمن ، فلم يعـــد فيكم من يستطيع أن يصبو الى منصب أبيكم الرفيع الا من أوتي بسطة في العلم وتابع مراحل تعليمه على خير وجه ٠ ولما كان هذا الصبي لا يزال في مراحل الدراسة فالواجب أن تتطلعوا الى مستقبله حتى يستأثر بمنصب مثل منصب أبيه ٠ ان تعليمه العالي هنا سيقتضيه أربع سنوات أو خمسا قبل أن يحصل على درجة البكالوريوس ، وهي

درجة تؤهله في الكثير لوظيفة مرتبها ستون روبية ، لا الى منصب من مناصب الوزارة • أما اذا سلك الطريق الذى سلكه ابنى واتجه الى دراسة القانون فان الأمر سيقتضيه مدة أطول من ذلك • وفى تلك الفترة يكون قد تخرج حشد كبير من المحامين الذين يتطلعـــون الى المناصب الرفيعة • لذلك أفضل أن تبعثوا به الى انجلترا • اتجهوا بنظركم الى ذلك المحامى الذى عاد منهـا أخيرا وانظروا كيف يعيش عيشة راقية • انه يستطيع أن يظفر بمنصب كبير بمجرد أن يطلبه • اننى أنصحكم بشدة أن توفدوا موهانداس الى انجلترا هذا العام • ان كيفالرام له أصدقاء عديدون فيهـا وهو سيبعث اليهم برسـائل يوصيهم فيها به • وهكذا تصبح اقامته فيها سهلة ميسرة » •

وانتقل جوشى جى ـ هكذا كنا نناديه ـ ببصره الى وكله ثقـة ويقين ، ثم قال : « ألست تفضل أن تذهب الى انجلترا ؟ » • ولم يكن شىء فى الواقع أحب الى نفسى من ذلك ، فقد كنت عاجزا عن ملاحقة دروسى فى الكلية • فلم أكد أسمع منه هذا العرض حتى تشبثت به وقلت له : « وخير البر عاجله » • أما أخى فقد كان فى شغل شاغل ، اذ أنى له بالمال الذى يكفى لسد نفقات سفرى واقامتى فى انجلترا ؟ ثم هل من الحكمة ارسال شاب مثلى لا يزال فى مقتبل العمر الى الخارج وحده ؟ • وأما أمى فقد أسقط فى يدها • كانت تكره فكرة فراقى عنها فأخذت تسأل أسئلة دقيقة ، اذ كان قد بلغها من واحد من الناس أن الشباب يضلون الطريق السوى وهم فى انجلترا ، وبلغها من آخر أنهم يأكلون اللحم فيها ، وبلغها من ثالث أنهم لا يستطيعون العيش فيها اذا هم لم يعاقروا الخمر • وسألتنى أمى : « ما رأيك فى كل هذا ؟» • وأجبتها على الفور ؟« ألا تأتمنيننى ؟ انى لن أكذب عليك اطلاقا ، وأقسم لك على أننى لن أمس شيئا من ذلك • ولو كان هناك خطر على من ذلك أفكنت تظنين أن جوشى جى كان يسمح لى بالسفر ؟ » •

وردت على تقول : « اننى أأتمنك ، ولكن كيف أأتمنك وانت فى بلد ناء بعيد ؟ اننى فى حيرة من أمرى ولا أعرف ماذا أفعل ، وسأسأل فى ذلك بيشار جى سوامى » ٠

وكان بيشار جى راهبا من رهبان الجينيين وكان هو الآخـــر ناصحا أمينا للعائلة ، شأنه فى ذلك شأن جوشى جى ، فلما استشارته أمى سارع الى عونى وهو يقول : « سأجعل هذا الصبى يقسم اليمين على أن يرعى العهود الثلاثة ، ثم بعد ذلك يستطيع أن يسافر » ٠ وحلفنى اليمين بعد ذلك فاقسمت أمامه على ألا أمس الخمر ولا أقرب النساء ولا آكل اللحم ، فلما فرغت من قسمى أذنت لى أمى بالسفر ٠

وأقامت المدرسة الثانوية حفلا لتوديعى ، اذ لم يكن بالأمر العادى أن يسافر شاب من راجكوت الى انجلترا ٠ وأعددت بضـــع كلمات لألقيها على سبيل الشكر ، ولكننى ما كدت أقف على قـــدمى لأتكلم حتى ارتج على ووجدت نفسى عاجزا حتى عن التلعثم بتلك الكلمات من بين شفتى ٠ ولا زلت أذكر كيف دارت رأسى وقتها وكيف اهتز كيانى كله وأنا أقوم لألقى تلك الكلمات القليلة ٠

وسافرت الى بومباى وأنا قرير العين منتعش الفؤاد يصحبنى رضاء أمى ودعواتها بعد أن خلفت ورائى زوجة وطفلا لا تتعدى سنه شهورا معدودات ٠ فلما وصلت الى بومباى قال بعض أصدقائنا فيها لأخى ان أمواج المحيط الهندى تشتد وتتلاطم خلال شهرى يونيـــة ويولية وان الواجب ألا يسمح لى بالسفر حتى يحين شهر نوفمبر بالنظر الى أن هذه كانت أول رحلة لى بالبحر ٠

أما أهل الطائفة التى أنتمى اليها فقد كانوا فى ثورة عارمة من جراء سفرى الى الخارج ، فعقدوا اجتماعا عاما منهم وطلبوا الى أن أحضره ٠ وحضرته بالفعل وان كنت لا أدرى كيف استجمعت من

الشجاعة يومها ما جعلني أذهب لمواجهتهم · لم أخش شيئا وقتها ولم أشعر برهبة أو وجل ، وتقدمت اليهم في غير تردد على الاطلاق ·

وبدأ الشيت ، او رئيس الجماعة ، وكانت له بنا قرابة بعيدة كما كان على صلة طيبة بأبى ، بدأ يهاجمني على النحو التالى :

« من رأى الطائفة أن اعتزامك السفر يتجافى مع كل رأى سديد · فديننا يحرم السفر الى الخارج ، وقد سمعنا فوق ذلك أن من المستحيل على المرء أن يعيش هناك من غير أن يتورط في أمور دينه ، فهو لا مفر له من أن يأكل ويشرب مع الأوروبيين » ·

وأجبته : « انني لا أظن أن سفرى الى انجلترا يتعارض اطلاقا مع ديننا · انني أعتزم السفر اليها لمتابعة دراستي وقد عاهدت أمي عهدا صادقا على البعد عن أمور ثلاثة هي أخشى ما تخشونه · وأنا واثق من أن العهد الذى قطعته على نفسى سيجعلنى في مأمن من الزلل » ·

وعاد الشيت يقول : « ولكننا نقول لك ان من غير الممكن المحافظة على دينك وأنت هناك · وانك لتعلم صلتى بأبيك ويجب عليك أن تستمع الى نصحى لك » ·

وقلت له : « انني أدرك هذه الصلة ، وأدرك أن لك في نفسى المكانة التي هي لكل من يكبرني سنا ، ولكنى لا أملك من أمرى شيئا في هذا الموضوع ولن أستطيع أن أعدل عما اعتزمته من السفر الى انجلترا · ان صديق أبى وناصحه ، وهو برهمى واسع العلم ، لم ير في سفرى اليها ما يجوز أن يكون موضع معارضة ، وقد أذنت لى أمي وأخى فوق ذلك بالسفر » ·

ــ « ولكنك في ذلك تعصى أوامر طائفتك » ·

ـ « انني في ذلك لا أملك من أمرى شيئا • ومن رأيى أنه لا ينبغى للطائفة أن تتدخل في هذه المسألة » •

غير أن هذه العبارة الأخيرة أحنقت الشيت ، فجعل يسبنى • وجلست ساكنا لا أتحرك، فلم يسعه الا أن يصدر أمره قائلا : «يجب أن يعامل هذا الصبى معاملة المطرودين من الطائفة ، وكل من يساعده فى سفره أو يذهب لتوديعه فى الميناء ستوقع عليـــه غرامة قدرها روبية واحدة وأربع أنات » •

بيد أن هذا القرار الذى أصدره الشيتلم يكن له أثر فى نفسى، فاستأذنته فى الانصراف ، دون أن أدرك ما عساه يكون وقعـــه فى نفس أخى • على أن من حسن حظى أن أخى بقى ثابتا لا يتغير فكتب الى يؤكد لى رضاءه عن سفرى على الرغم من الأمر الذى أصـــدره الشيت •

وأبحرت أخيرا من بومباى فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر •

١٢ ـ على ظهر السفينة

لم أكن قد اعتدت التحدث الى الناس باللغة الانجليزية ، بينما ركاب الدرجة الثانية الآخرون ، باستثناء السيد مازمادور وهو محام هندى ضليع كان يزاملنى فى مقصورتى ، كانوا جميعا من الانجليز . وهكذا لم أكن لأستطيع التحدث الى أحد منهم ، فقد كنت عاجزا عن تتبع عباراتهم اذا تحدثوا الى ، واذا فهمتها كنت أشد عجزا عن الاجابة ، اذ كان على أن أكون الجملة فى عقلى قبل أن تجرى عبارتها على لسانى .

وكنت فوق ذلك أجهل طريقة استعمال الشوكة والسكين ، وتنقصنى فوق ذلك الشجاعة اللازمة لكى أستفسر عن الأطباق الخالية من اللحم بين الأصناف الواردة فى قائمة الطعام ، ومن ثم فاننى لم أتناول طعامى فى قاعة الطعام ولو مرة واحدة بل كنت أتناول وجباتى كلها فى مقصورتى ، وكانت تتألف فى الغالب من الحلوى والفاكهة التى جئت بها معى . أما السيد مازمادور فلم يجد فى ذلك صعوبة على الاطلاق . كان يختلط بالناس جميعا ، ويتنقل فوق ظهر السفينة فى حرية وسهولة ، فى حين كنت أقبع طيلة النهار فى مقصورتى فلا أجرؤ على الصعود الى ظهر السفينة الا بعد أن يكون الموجودون عليه قد تضاءلوا فى أعدادهم حتى أصبحوا قلة لا تذكر . كل ذلك على الرغم من توسلات السيد مازمادور ومحاولته اقناعى بكل الوسائل بضرورة الاختلاط بالركاب والتحدث اليهم فى حرية . كان يقول لى ان المحامى يجب أن يكون له لسان طويل ، ويقص على تجاربه فى المحاكم ، ولا ينفك ينصحنى بأن أفيد من كل فرصة سانحة لكى أتحدث باللغة الانجليزية غير مبال فى ذلك بما قد أقع فيه من أخطاء لا سبيل لكل من يتحدث بلغة أجنبية الى تجنبها .

كل ذلك دون جدوى ، فقد عجزت عن التغلب على حيائى وعلى انطوائى الذاتى ٠

واستطاع أحد الركاب الانجليز ، كانت قد أخذته الشفقة بى ، أن يجرنى يوما الى الحديث ، وكان يكبرنى سنا ٠ سألنى ماذا آكل ؟ ومن أكون ؟ والى أين أذهب ؟ ولماذا يعترينى ما يعترينى من خجل ؟ الى غير ذلك ، ثم نصحنى بأن أتناول وجباتى فى قاعة الطعام ، وضحك منى حين علم باصرارى على تحريم أكل اللحم ، وقال ، وكنا وقتها نشق طريقنا فى البحر الأحمر : « حسنا ما فعلته الى هنا ، ولكن عليك عندما نصل الى خليج بسكاى أن تعيد النظر فى قرارك ، فان الجو فى انجلترا من البرودة بحيث لا يستطيع المرء أن يعيش فيها دون أن يأكل اللحم » ٠

وقلت له : « ولكننى سمعت أن من الممكن أن يعيش الانسان فيها دون أن يفعل ذلك » ٠

وأجابنى : « تأكد أن ما سمعته انما هو أكذوبة ، فليس فى انجلترا ، فيما أعلم ، من يعيش من غير آكلى اللحوم ٠ ثم ألست ترى اننى لا أحاول اقناعك بشرب الخمر على الرغم من أننى أشربها ؟ أما اللحم فاننى أعتقد أن من واجبك أن تأكله ، اذ لا سبيل لك أن تعيش من غيره » ٠

قلت له : « أشكرك على نصيحتك الطيبة ولكننى وعدت أمى وعدا لا أحنث فيه بألا أقرب اللحم ومن ثم فلن أفكر فى أكله ، فاذا تبين لى استحالة البقاء بدونه فانى أفضل العودة الى الهند على أن آكله لكى أبقى فى انجلترا » ٠

ودخلنا خليج بسكاى فلم أشعر مع ذلك بحاجتى الى اللحم أو

الخمر على السواء · ثم بلغنا أخيرا ميناء سوثامبتون ، وكان اليوم على ما أظن يوم سبت · لقد كنت وأنا في السفينة أرتدى بذلة سوداء، أما البذلة البيضاء التى أهدانيها بعض أصدقائى فى الهند فقد احتفظت بها خصيصا لكى ألبسها عندما أنزل من السفينة ، اذ اعتقدت أن الملابس البيضاء أليق بى وأنا على البر · وهكذا لبست حلتى البيضاء قبيل مغادرة السفينة ، وكنا وقتها فى أواخر شهر سبتمبر ، وعجبت عندما وجدتنى الشخص الوحيد الذى يلبس ملابس بيضاء · فلما هبطنا من السفينة تركت حقائبى مع مندوب محل جريندلى وشركائه ومعها المفاتيح بعد أن رأيت الكثيرين يفعلون ذلك فأردت أن أحاكيهم ·

وكنت أحمل معى خطابات توصية الى أربعة أشخاص ، هم الدكتور ب·ج· ميهتا ، والسيد دالباترام شوكلا ، والاميررانجيتسينه جى ، ودادابهاى ناوروجى · وكان أحد ركاب السفينة قد أشار على بالنزول فى فندق فيكتوريا بلندن ، فنزلنا به أنا والسيد مازمادور · لقد كان خجلى من أننى الشخص الوحيد الذى بدا فى ملابس بيضاء قد بلغ منى فى ذلك الوقت كل مبلغ · فلما علمت وأنا فى الفندق أننى سوف لا أتسلم حقائبى من محل جريندلى وشركائه فى اليوم التالى ، اذ كان يوم أحد ، شعرت بضيق وحرج لا حد لهما ·

وجاء الدكتور ميهتا ، وكنت قد أبرقت اليه من سوثامبتون ، لزيارتى بالفندق فى حوالى الثامنة مساء ، فى نفس اليوم الذى وصلنا فيه لندن ، فحيانى تحية حارة وابتسم عندما رآنى فى بذلتى البيضاء · وبينما نحن مشغولون بالحديث مددت يدى الى قبعته السوداء العالية فى شىء من النزق وجعلت أمر عليها بيدى لأتحسس مدى نعومتها ، غير أننى فيما يبدو مررت عليها بيدى فى الاتجاه العكسى فعبثت بوبرها ، وهنا نظر الى الدكتور ميهتا غاضبا ، وطلب الى أن أكف عن الاسترسال فيما أنا فيه ·

لقد كانت هذه الحادثة بمثابة تحذير لى عما يجب أن يكون عليه سلوكى فى المستقبل ، كما كان الدرس الذى لقنه لى الدكتور ميهتا أول درس لى فى آداب اللياقة الأوروبية حين قال مبتسما بعد ذلك : « حذار أن تلمس ما يخص غيرك او تسأل الناس أسئلة على نحو ما نفعل نحن فى الهند عند أول لقاء لك معهم ! واياك والتحدث بصوت مرتفع أو مخاطبة أحد من الناس فتقول له «سيدى !» على نحو مانفعل فى الهند ، فالخدم والأتباع هم وحدهم الذين يخاطبون أسيادهم بهذا الأسلوب » الى غير ذلك من النصائح والعظات . كذلك أشار على بالاقامة بين عائلة من العائلات نظرا لما تتطلبه الاقامة فى الفنادق من نفقات مرهقة .

وقد وجدت ، أنا والسيد مزمادور ، أن الاقامة فى الفندق متعبة بالفعل ، فضلا عن نفقاتها المرهقة . ولما كنا ونحن فى السفينة قد تعرفنا على رجل من أهل السند ، ركب معنا السفينة من مالطة ، وكانت له دراية واسعة بأساليب الحياة فى لندن ، فقد عرض علينا أن يبحث عن حجرات نستأجرها ، ووافقنا . وما ان وصلت حقائبنا فى يوم الاثنين حتى دفعنا حسابنا فى الفندق واتجهنا الى المكان الذى استأجره لنا صديقنا السندى . وأذكر أن حسابى بلغ يومئذ ثلاثة جنيهات ، وهو مبلغ أذهلنى ، فقلت لنفسى أحشفا وسوء كيلة . والحق أننى كدت أموت جوعا وأنا فى الفندق رغم ما تكبدته فيه من نفقات ، اذ لم أستطب شيئا من طعامه ، وكنت اذا لم يعجبنى نوع من الطعام طلبت غيره ، فكان على أن أدفع ثمن الطبقين معا ، كل هذا وأنا أعتمد طول الوقت على ما أحضرته معى من المؤونة من بومباى .

غير أننى لم أشعر وأنا فى حجرتى الجديدة بشىء من السكينة والهدوء النفسى ، فقد كنت دائب التفكير فى أهلى وبلدى . كان حبى لأمى يملك على كل تفكيرى ، فاذا جاء الليل انهمرت الدموع من عينى وعاودتنى ذكريات الأسرة العديدة فلا تدع للنوم الى عينى سبيلا .

ولم يك في استطاعتي أن أشرك أحدا معي فيما كنت فيه من هم مقيم ، وحتى لو استطعت فماذا عساى أن أجنى من وراء ذلك ؟ وهكـــذا وجدتني عاجزا عن الاهتداء الى شيء يمكن أن يهدىء من روعي · كان كل شيء غريبا على : الناس ، وطريقة حياتهم ، حتى مساكنهم · وكنت فوق ذلك حديث عهد بآداب السلوك عند الانجليز ، فكـان على أن أكون دائمـا حذرا متحفظا · أضف الى كل ذلك المضايقات الناجمة عن العهد الذى قطعته على نفسى بأن أظل نباتيا ، اذ حتى الأطباق التى كان يمكن أن آكلها كانت مائعة لا طعم لها · وهكذا ألفيت نفسى بين شرين أحلاهما مر · فأما الحياة في انجلترا فقد كنت عاجزا عـــن احتمالها ، وأما العودة الى الهند فأمر كان لا يمكن التفكير فيه · على أن صوتا كان يحدثنى من أعماق نفسى فيقول لى : أما وقد حضرت الى انجلترا ، فعليك أن تقضى السنوات الثلاث المقررة ·

١٣ ـ في لندن

جاء الدكتور ميهتا الى فندق فيكتوريا في اليوم الذى غادرناه فيه ، فلما علم بأننا غادرناه أخذ عنواننا الجديد وحضر لزيارتنا فيه. وبعد أن تفقد حجرتي الجديدة وتبين كـــل الظروف المحيطة بها هز رأسه عنوانا على عدم موافقته عليها ، ثم قال لى : « هذا مكان لايصلح، فنحن لا نأتى الى انجلترا بقصد الدراسة ، بقدر ما نأتى اليها لكى نكتسب عادات الانجليز وطريقتهم في الحياة • ولذلك فان من واجبك أن تعيش وسط عائلة من العائلات • ومع ذلك فمن رأيى قبـــل أن تفعل ذلك أن تمضى فترة من التمرين مع صـــديق لى سآخذك اليه بنفسى » •

وقبلت اقتراحه معترفا له بالجميل والفضل، وانتقلت الى حجرة ذلك الصديق الجديد ، فوجدته يفيض شفقة وحنـانا • كان شديد الاهتمام بأمرى ، يعاملنى كما لو كنت أخاه ، ويعلمنى آداب الانجليز وطريقة حياتهم ، ويغرس في عادة التحدث بلغتهم • ولـكن مشكلة طعامى ظلت مع ذلك تستعصى على الحل ، فقـد عافت نفسى الخضر المسلوقة من غير ملح أو توابل • وكانت صاحبة البيت نفسها في حيرة من أمرها لا تدرى ما تعده لى • كنا في العادة نتناول العصيدة في الصباح فكانت تشبعنى الى قدر • أما في الغداء والعشاء فقد كنت أقوم جائعا •

وحاول صديقى أن يحملنى على أكل اللحم فكنت دائما أذكـره بعهدى لأمى ، ثم أظل صامتا • كان طعامى في الغداء والعشـاء على

السواء يتألف عادة من الاسفانخ والخبز وبعض المربى · وعلى الرغم من أننى كنت أكولا تتسع معدتى لكثير من الطعام ، فقد كنت أستحيى من أن أطلب أكثر من شريحتين أو ثلاثا من الخبز اذ خيل الى أن أى استزادة عن هذا القدر قد لا تتفق مع المسلك اللائق · أضف الى ذلك افتقاد اللبن ظهرا ومساء · وضاق صديقى ذرعا بى فقال لى يوما : « لو أنك كنت أخى شقيقى لطلبت اليك أن تحزم حقائبك وأن تعودالى الهند فورا · فما قيمة عهد قطعته لأم غير مثقفة لا تعلم من ظروف الحياة هنا شيئا ؟ ان الذى فعلته معها لا يمكن أن يكون عهدا على الاطلاق ، ولا هو عهد فى عرف أى قانون ، وانك لواهم حين تتمسك به · دعنى أقول لك ان اصرارك هذا لن يساعدك على أن تفيد شيئا من بقائك هنا · فأنت تعترف بأنك أكلت اللحم واستطبته من قبل ، ولكنك أكلت اللحم وقتها حيث لم يكن أكله ضروريا ثم تمتنع الآن عن أكله حين يكون أكله أمرا لا مناص عنه · ان حالك يثير الشفقة »·

ولكننى مع ذلك بقيت ثابتا لا أتزعزع ··

غير أن صديقى لم يفتأ يحاجنى فى ذلك ، فكان كلما أمعن فى حججه زدت عنادا واصرارا · كنت كل يوم أدعو الله أن يحمينى من نفسى ، فكان يتقبل دعائى ، لا لأننى كنت أعرف شيئا عن الله ، فقد كانت معرفتى به حتى الآن عامة وسطحية ، ولكنه الايمان ، الايمان الذى كان يعتمل فى نفسى ، بعد أن غرست بذوره الأولى فى قلبى مربيتى الطيبة ، رامبها ·

وأخذ صديقى بعد ذلك يقرأ لى فقرات من كتـــاب بنتام عن « النظرية النفعية » فكان ذلك أكثر مما أطيق ، فقد كانت لغة الكتاب أصعب من أن أفهمها ، ومن ثم فقد أخذ يشرحها لى · وقلت له أخيرا : « معذرة ! ان هذه المسائل العويصة فوق طاقتى · اننى أعترف لك بأن أكل اللحم ضرورى ، ولكنى مع ذلك لا أستطيـــع أن أحنث فى

يميني · وأنا لا أستطيع أن أحاجك في ذلك لأنني أعرف أنني لست ندا لك ، ولكني أرجوك أن تقطع الأمل مني باعتباري جاهلا أوعنيدا· انني أقدر حبك لى ، وأعرف أنك تريد لى الخير ، كما أدرك أنك لاتفتأ تقول ما تقول لأنك تشفق على ، ولكنى لا حيلة لى فى موقفى ، فالعهد عهد ، ولا ينبغى الحنث به » ·

ونظر صديقى الى دهشا ثم أغلق الكتاب وهو يقول : «حسنا ! لن أحاجك بعد الآن » ·· واغتبطت نفسى لذلك · ولم يعد صديقى الى مفاتحتى فى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكنه لم يكف مع ذلك عن الاهتمام بأمرى · كان يدخن ويشرب الخمر فلا يطلب منى أن أفعل كما يفعل ، بل على العكس، كان دائما يطلب الى أن أنأى بنفسى عن كليهما ، فقد كان كل ما يشغل باله خوفه علـى من أن يزداد بى الضعف ، اذا أنا ظللت ممتنعا عن أكل اللحم ، فتصبح حيـاتى فى انجلترا مما لا قبل لى على احتماله ·

هكذا أمضيت مع صديقى فترة مران استمرت شهرا · ولما كان بيت هذا الصديق فى ضاحية ريتشموند ، فلم يكن فى مكنتى أنأذهب الى لندن أكثر من مرة أو مرتين فى الاسبوع· ومن ثم فقد قررالدكتور ميهتا والمستر دالباترام شوكلا ، أن أقيم بين عائلـة من العائلات الانجليزية · وقد اهتدى المستر دالباترام الى بيت لأصحابه من أصل انجليزى هندى يقع فى حى وست كنزنجتون ، فأسكننى فيه · كانت سيدة هذا البيت أرملة ، وقد أطلعتها على العهد الذى كنت قطعته على نفسى فوعدت بالعناية بأمرى فى ذلك على خير وجه · غير أننى كنت فى هذه المرة على شفا الموت جوعا · كان كل شىء فى ذلك البيت لاطعم له ، وكانت السيدة العجوز تسألنى كل يوم اذا كنت أستطيب أكلها

واذا كان هناك ما يمكنها أن تفعله من أجلى . ولكننى كنت خجولا كأشد ما يكون الخجل فلم أجرؤ على أن أطلب أكثر مما كانت تضعــه أمامى على المائدة . وكان لهذه السيدة فتاتان ، كانتا تصران على أن تقدما لى شريحة أو شريحتين أخريين من الخبز ، ولكن ما أكثر ما كانتا تجهلان أنه لا شىء أقل من رغيف بأكمله كان يمكن أن يسد رمقى .

ولكننى مع ذلك كنت قد أخذت أتحسس مكان قدمى من الأرض فى ذلك الوقت . كانت دراستى المنتظمة لم تبدأ بعد فشرعت أقرأ الجرائد بانتظام بفضل مشورة المستر دالباترام . ومع أننى لم أقرأ جريدة واحدة وأنا فى الهند فقد استعذبت قراءتها وأنا هنـــا حتى شغفت بها حبا .

غير أن ذلك لم يكن ليشغل من وقتى غير ساعة أو بعض ساعة ، ومن ثم فقد اعتدت أن أتجول ، بعد الانتهاء من قراءتها ، فى بعض أنحاء المدينة باحثا عن مطعم من مطاعم النباتيين . كنت أمشى كل يوم عشرة أميال أو عشرين ميلا أدخل خلالها مطعما من المطاعم الرخيصة فآكل من الخبز حتى امتلىء دون أن أحس بالشبع . وفى احدى هذه الجولات عثرت على مطعم نباتى فى شارع فارنجتـــون فأثلجت رؤياه صدرى ، وشعرت بالغبطة التى يشعر بها الطفل عندما يظفر بشىء عزيز عليه . وقبل أن أدلف الى المطعم وقع نظرى على بعض الكتب المعروضة للبيع على مقربة من بابه ، فوجدت بينها كتابا لســـولت عنوانه « مناشدة من أجل النظرية النباتية » فاشتريته بشلن واحد ثم دخلت على الفور الى قاعة الطعام فكان ما تناولته فيها أشهى طعام تذوقته منذ أن وصلت الى انجلترا . نعم ، فلقـــد مد الله الى يد العون .

وطالعت كتاب سولت من أوله الى آخره فتأثرت بما قرأته فيه

كل التأثر حتى لأستطيع أن أقول اننى صرت نباتيا بمحض اختيارى منذ اللحظة التى انتهيت فيها من قراءته ، وحمدت اليوم الذى قطعت فيه على نفسى العهد الذى قطعته أمام أمى · لقد كان امتناعى عن أكل اللحم حتى ذلك اليوم مرده حبى للحق ورعايتى لهذا العهد ، ولكن ذلك لم يمنعنى من أن أتمنى لو أصبح كل هندى من أكلة اللحوم ، وأن أكون واحدا منهم ، آكل اللحم علنا كل يوم وأدعو غيرى الى مشاركتى فيه · أما الآن فقد اتجهت بمحض ارادتى واختيارى الى مشايعة النظرية النباتية وأخذت على نفسى أن أعمل على نشرها ·

١٤ ـ أسلك مسلك الجنتلمان الانجليزى

لم يكف صديقى عن شغل نفسه بأمرى،فدعانى يوما الى الذهاب معه الى المسرح · وكان من المتفق عليه بيننا أن نذهب قبـــل ذلك لتناول العشاء فى مطعم هوبرن · وكان صديقى فيما يبدو من ظروف هذه الدعوة ، يبغى من وراء اصطحابى الى ذلك المطعم أن يكـــون الاحتشام مانعا يمنعنى من السؤال والاستفسار · وكان فى المطعم نفر كبير من الطاعمين جلست أنا وصديقى بينهم نقتسم طرفى المائدة بيننا · كان الطبق الأول يتألف من الحساء ، وســاءلت نفسى مم ياترى يكون قد صنع ؟ ولكننى لم أجرؤ على أن أســـأل صـــديقى ، فاستدعيت النادل الى ، ورأى صديقى تلك الحركة فسألنى عبر المائدة ما الأمر ؟ وأجبته فى كثير من التردد ، اننى أريد أن أستفسر منه اذا كان الحساء يتألف من النباتات وحدها · وصاح فى صديقى يقول : « انك جلف لا تصلح للجلوس فى المجتمعات الراقية · واذا كنت لا تستطيع أن تسلك مسلكا خيرا من هذا ، فأولى بك أن تقوم من هنا · اذهب الى مطعم آخر ثم انتظرنى فى الخارج » واغتبطت لهذا القول وخرجت مسرعا ·

كان على مقربة من هذا المطعم مطعم نباتى قصدت اليه فوجدته مغلقا فأمضيت ليلتى من غير عشاء ·

وذهبت مع صديقى الى المسرح بعد ذلك ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة عن الفصل الذى تسببت فيه · أما من ناحيتى فلم يكن هناك بطبيعة الحال ما يمكن أن أقوله ·

كان هذا الحادث آخر مشادة حبية بيننا · انها مشادة لم تؤثر

على علاقتنا بحال من الأحوال ، فقد استطعت أن أتبين منهـــا مدى ما يكنه لى من حب كان الدافع الى ما بذله من محاولات لكى يحملنى على أكل اللحم • بل لقد كان من أثر هذا الخلاف بيننا فى الفكـر والعمل أن زاد حبى واحترامى له •

بيد أننى قررت بينى وبين نفسى بعد ذلك أن أريح صديقى مما كان يشغل باله وأن أطمئنه الى أننى لن أكون جلفا بعد اليوم ، وأن أحاول أن أكون أكثر تهذيبا فى تصرفاتى فى المستقبل حتى أعوض تشيعى للنباتية بالاستزادة من الكفاية فى نواح أخرى من شأنهـا أن تكفل للمرء مكانا فى المجتمعات المهذبة •

فقد بدا لى يومئذ أن ملابسى التى ألبسها ، وما تتسم به من طابع الملابس المصنوعة فى بومباى ، لا توائم ذوق المجتمع الانجليزى ، ومن ثم فقد عمدت الى شراء ملابس جديدة من مخازن الجيش والبحرية • كذلك اشتريت قبعة من نوع البولر دفعت ثمنا لها تسعة عشر شلنا وهو ثمن باهظ فى تلك الأيام • ولم أكتف بذلك ، بل بددت عشرة جنيهات فى شراء بذلة سوداء مما يلبس فى الحفلات المسائيـــة ، اشتريتها من بوند ستريت ، مركز الأزياء فى لندن ، هذا الى سلسلة مزدوجة للساعة من الذهب الخالص كلفت أخى طيب القلب أن يرسلها لى من الهند • ولما لم يكن من حسن الهندام أن يلبس المرء ربطة عنق جاهزة فقد تعلمت كيف أعقدها بنفسى • وكانت المرآة فى الهند احدى الكماليات التى لا يباح لى الاستمتاع بالنظر فيها الا حين يحضر الحلاق الى البيكت ليجز شعرى • أما هنا فقد كنت أمضى عشر دقائق كل يوم أتطلع فيها الى نفسى فى مرآة ضخمة كى أرقب نفسى وأنا أعقد ربطة عنقى وأصفف شعرى على الوجه المرضى • ولم يكن شعرى بحال من الأحوال ناعما ، فكان معنى ذلك جهادا رتيبا مع الفرشاة كل يوم لكى أحتفظ به فى وضعه الصحيح ، وكنت كلمـــا رفعت قبعتى أو

وضعتها فوق رأسى مررت بيدى فوق رأسى بطريقة آلية لكى أسوى شعرى ·

وكأنى لم أقنع بكل ذلك، فاتجهت الى تفاصيل أخرى ممايفترض فى المرء الالمام بها لكى يكون جنتلمانا انجليزيا · فقد قيل لى ان من واجبى أن أتلقى دروسافى الرقصوفى اللغة الفرنسية وفى فن الالقاء، ولم تكن اللغة الفرنسية لغة فرنسا المتاخمة لانجلترا فحسب ، بل كانت الى جانب ذلك اللغة التىتلقى انتشارا واسعا فى القارة الأوروبية التى كنت أطمع فى أن أسيح فيها يوما من الأيام · ومن ثم فقد قررت أن أتعلم الرقص فى احدى المدارس المخصصة لذلك ودفعت ثلاثة جنيهات كاملة عن فترة دراسية واحدة · ولابد أننى أخذت نحو ستة دروس فى أسابيع ثلاثة ، ولكن اتقان الحركات الايقاعية ظل مع ذلك أمرا بعيد المنال بالنسبة لى ، فلم يكن فى استطاعتى تتبع النغمات المنبعثة من البيانو ، ومن ثم فقد استحال على مراعاة التوقيت الذى تستلزمه الحركات الراقصة ، فماذا أصنع اذن ؟ ان الناسك الذى كان يعيش فى صومعته بعيدا عن الناس ، على حد الخرافة المشهورة ، احتفظ بهرة لكى يطرد الفيران ، ثم أتى ببقرة لكى يطعم الهرة من لبنها، ثم جاء برجل لكى يرعى البقرة ، الى آخر السلسلة · هكذا كانت مطامعى فى ذلك الوقت ، كانت أشبه بأسرة ذلك الناسك ، فى نمو مستمر : فقد فكرت فى تعلم العزف على الكمان لكى أعود أذنى فهم الموسيقى الغربية ، وأنفقت ثلاثة جنيهات فى شراء الكمان ، وثلاثة أخرى أو تزيد رسما لتعلم العزف عليها · ثم لجأت الى مدرس آخر أتلقى على يديه فن الالقاء والخطابة ودفعت له جنيها كرسم مبدئى واشتريت كتابا أشار على بشرائه ·

على أننى لم أكد أبدأ استعمال هذا الكتاب حتى أخذت أثوب الى رشدى · قلت لنفسى اننى لن أقيم فى انجلترا مدى حياتى ، واذن ما الحكمة فى دراسة فن الالقاء ؟ وأنى للرقص أن يجعل منىجنتلمانا؟

أما الكمان ففى مكنتى أن أتعلمها وأنا فى الهند • اننى وأنا فى انجلترا لا أعدو أن أكون طالبا ، ومن واجبى أن أعكف فيها على دروسى ، اذ لا بد لى من أن أجتاز الدراسة التى تؤهلنى لأن أكون محاميا • فاذا كانت أخـــلاقى تسمح لى بأن أكون جنتلمانا فبها ، والا فالواجب يقتضينى أن أعدل عما أنا سادر فيه •

وتملكتنى هذه الأفكار ، وظلت تستبد بى ، الى أن وجدت متنفسا لها فى خطاب بعثت به الى مدرس الالقاء أرجوه فيه أن يعفينى من مواصلة دروسى ، ولم أكن قد تلقيت عليه أكثر من درســـين أو ثلاثة • وبعثت بخطاب شبيه الى معلم الرقص ، كما ذهبت بنفسى الى معلمة الكمان أرجوها أن تبيع الكمان التى اشتريتها بأى ثمن تجده ، فلقيت منها روحا طيبة حملتنى على أن أفضى اليها بما كان يعتمل فى نفسى ، وأن أشرح لها كيف تبينت أننى كنت أجـــرى وراء فكرة خاطئة ، فشجعتنى على الاستمرار فيما اعتزمته من تغيير أســـلوب حياتى تغييرا شاملا •

وهكذا لم يدم الافتتان الذى اعترانى الا نحو ثلاثة أشهر • أما العناية بهندامى فقد بقيت تلازمنى أعواما ، ولكننى مع ذلك أصبحت منذ تلك اللحظة طالبا لا أكثر ولا أقل •

١٥ ـ تطورات فى حياتى

أرجو ألا يتصور أحد من الناس أن تجاربى فى الرقص وماشابهه كانت مرحلة من مراحل الانغماس · ولعل القارىء قد لاحظ أننى ، حتى فى ذلك الوقت ، لم أفقد صوابى يوما · بل ان هذه الفترة التى أغرمت فيها بهذه المسائل لم تكن خالية من قسط من الاستقرار النفسى ، كما أن نفقاتى خلالها لم أترك لها الحبل على الغارب ، بل كنت أحسبها حسابا دقيقا ·

فقد أمكننى ، وأنا أرقب نفسى وأتتبع أسلوب حياتى ، أن أتبين ضرورة الاقتصاد فى نفقاتى · ومن ثم فقد قررت أن أستقل فى سكناى وأن أدبر شئونى بنفسى ، بدلا من الاقامة مع احدى العائلات ، وأن أتنقل دائما من مسكن الى مسكن وفق ما يقتضيه عملى ، وبذلك أظفر بمزيد من التجربة · وقد حرصت منذ ذلك الوقت على اختيار سكنى بحيث أستطيع الذهاب الى عملى سيرا على الاقدام فأوفر بذلك نفقات انتقالى · فقد كنت حتى ذلك الوقت مضطرا الى الاستعانة بوسيلة من وسائل النقل أينما ذهبت مما لم يترك لى ، فوق ذلك ، متسعا من الوقت لكى أمارس رياضة المشى · وهكذا هيأت لى الخطة الجديدةالتى استقر عليها رأيى فرصة المشى مع الاقتصاد ، اذ كانت تعفينى من نفقات المواصلات وفى الوقت نفسه تفسح لى فرصة المشى مسافة ثمانية أميال أو عشرة كل يوم ، فلقد كانت عادة المشى مسافات طويلة رياضة محببة الى نفسى ، ولعلها كانت معظم السبب فى أننى بقيت معافى من المرض خلال الفترة التى أقمتها فى انجلترا ، وفى احتفاظى ببنية لا بأس بها ·

وهكذا استأجرت جناحا يتألف من حجرتين : واحدة للجلوس ، والأخرى للنوم • كانت هذه هي المرحلة الثانية فى أسلوب حياتى وأنا فى انجلترا • أما المرحلة الثالثة فسيأتى ذكرها فيما بعد •

وقد أدى هذا التغيير فى سكنى الى اقتصاد نصف النفقات • ولكن كيف أنتفع الآن بما تهيأ لى من وقت الفراغ ؟ لقد كنت أعرف أن الامتحانات التى تؤهلنى للمحاماة ، لم تكن تحتاج الى كثير من المذاكرة والدراسة ، وأننى لذلك لن أجد نفسى فى ضيق من الوقت • ولما كان ضعف مستواى فى اللغة الانجليزية يسبب لى كثيرا من الحرج، فقد فكرت ألا أكتفى بتأهيل نفسى للمحاماة وأن أحصل الى جانب ذلك على درجة جامعية فى الدراسات الأدبية • واستفسرت عن المناهج فى جامعتى أكسفورد وكمبريدج ، واستشرت فى ذلك بعض أصدقائى فتبين لى أننى لو قررت الالتحاق باحداهما فسوف يقتضينى ذلك مزيدا من النفقات ويستلزم بقائى مدة أطول فى انجلترا • وقد أشار على صديق بأننى اذا كنت حقيقة راغبا فى اجتياز امتحان من الامتحانات العسيرة فما على الا أن أتقدم الى امتحان الماتريكيوليشن من جامعة لندن ، لما يتطلبه من جهد كبير وما يهيئه لى من بسطة فى المعلومات العامة ، دون أن أتحمل فى سبيل ذلك من النفقات ما يستحق الذكر• ورحبت بهذا الاقتراح • بيد أن منهج الدراسة لهذا الامتحان سرعان ما أخافنى وأفزعنى ، فقد كان على أن أدرس اللغة اللاتينية ولغة أخرى حديثة بصفة اجبارية • وساءلت نفسى : أنى لى أن أدرس اللاتينية ؟ غير أن صديقى لم يكف عن تحبيذ دراسة هذه اللغة بكل قوته • كانت حجته فى ذلك ، ان دراسة اللغة اللاتينية لها أكبر فائدة لمن كان يريد أن يشتغل بالمحاماة ، فان الالمام بها له قيمته فى فهم المؤلفات القانونية ، فضلا عن أن ورقة من أوراق امتحان التأهيل للمحاماة فى مادة القانون الرومانى توضع كلها باللغة اللاتينية • هذا

الى أن معرفة اللاتينية من شأنها أن تقوى صاحبها فى اللغةالانجليزية نفسها » ٠

وهكذا عدت الى بيتى وقد صممت على أن أدرس اللاتينية أيا كانت الصعوبات التى تعترضنى ٠

أما اللغة الفرنسية فكنت بدأت فى دراستها بالفعل ، ولهـذا قررت أن تكون اللغة الحديثة التى يتطلبها الامتحان ، والتحقت لهذا الغرض بأحد الفصول الدراسية التى تعد الطلاب لهذا الامتحان ٠كان الامتحان يعقد مرة كل ستة أشهر ، ولم يكن أمامى على أدائه سوى خمسة أشهر ٠ لقد كان عملا يكاد يكون فى حكم المستحيل بالنسبة لى على أن من كان يطمع يوما فى أن يكون جنتلمانا انجليزيا قد انقلبالآن فأصبح يفضل أن يكون تلميذا مجيدا ٠ وهكذا وضعت لنفسى جدولا دقيقـــا التزمته فى مذاكرتى ٠ عـــلى أن ذكائى وذاكرتى مـــع ذلك لم يبشرا بقدرتى على منازلة اللغتين اللاتينية والفرنسية معا ، الى جانب غيرهما من المواد الأخرى التى يشملها الامتحان فى الفترة القصيرة التى تبقت أمامى ٠ وكانت النتيجة أننى رسبت فى اللغـــة اللاتينية ٠ وأسفت لذلك ولكن دون أن يداخلنى يأس أو يعترى همتى فتور ، فقد كنت بدأت أتذوق تلك اللغة ٠ وأما الفرنسية فلا بأس من محاولة أخرى فيها بالاضافة الى مادة أخرى اختارها من بين مجموعة العلوم ٠ وكانت الكيمياء المادة العلمية التى اخترتها للامتحـان فى المرة الأولى ، ولكنها لم تستهونى اذ ذاك لافتقارى الى سبل التجارب العملية فيها ، رغم أنها كان يجب أن تكـــون على أكبر جانب من التشويق بالنسبة لى ، فقد كان من أهم أسباب اختيارى لها فى تلك المرة أنها كانت احدى مواد الدراسة الاجبارية فى الهند ٠ أما الآن فقد اخترت موضوع الضوء والحرارة بدلا من الكيمياء بعد أن علمت أنهما أسهل منها ٠ وقد وجدتهما كذلك بالفعل ٠

وبينما أنا أستعد لمحاولة أخرى لاجتياز هذا الامتحان أخذت أبذل مزيدا من الجهد لكي أجعل حياتي أكثر بساطة مما كانت ٠ فقد كنت أشعر بأن أسلوبي في الحياة كان لا يزال بعيـدا عن أن يوائم ظروف عائلتي ومواردها المتواضعة ، وكان مجرد التفكير في أخي وهو يجاهد في الحياة ويستجيب بعد ذلك في كرم ونبل لطلبـاتي المالية المنتظمة يؤلمني ويؤرقني ٠ وقد تكشف لي يومئذ أن معظم من كانت نفقاتهم تتراوح بين ثمانية جنيهات وخمسة عشر جنيهـا في الشهر كانوا ممن يتمتعون بالمنح الدراسية ٠ وكان أمامي من ناحية ثانيـة أمثلة أخرى على طلبة كانت حياتهم أكثر من ذلك تقشفا ، فقد صادفت عددا لا بأس به من الطلبة الفقراء كانوا يحيون حياة أكثر تواضعـا وشظفا مما كنت أحيا ٠ كان أحدهم مثلا يقيم في حي العمـال في حجرة ايجارها شلنان اثنان في الأسبوع وينفق في الوجبة بنسين لا أكثر ٠ ومع أنني لم أكن أفكر اطلاقا في أن أقتدي به ، فقد شعرت مع ذلك أن في مكنتي أن أكتفي بحجرة واحدة بدلا من حجرتين ، وأن أطهو بعض طعامي في البيت ، ومعنى ذلك اقتصاد أربعة جنيهات أو خمسة كل شهر ٠ وهكذا تركت جناحي واستعضت عنه بحجرة واحدة واشتريت وابورا للطهو ، وشرعت أعد افطاري في البيت ، فكان ذلك كله لا يستنفد من وقتي أكثر من عشرين دقيقة ، اذ كان الأمر لا يزيد على صنع العصيدة وغلي الماء لعمل الكاكاو ٠ وأما الغداء فقد كنت أتناوله في الخارج ٠ وأما العشـاء ، وكان يتألف من الخبز والكاكاو ، فكنت أعده في البيت ٠ وهكذا استطعت أن أعيش على شلن وثلاثة بنسات في اليوم ٠

لقد وفرت لي البساطة في الحياة كثيرا من الوقت ، فاستطعت اجتياز امتحاني بنجاح ٠

ولا يظنن القارىء أن هذا الأسلوب الجديدأدخل على حياتي شيئا

من الكآبة أو الملل ، بل هو على العكس من ذلك قد ناغم بين جوانب حياتى ، الظاهر منها والباطن ، وكان أكثر مواءمة بين نفقاتى وبين موارد أسرتى ، وصارت حياتى بفضله أكثر تمشيا مع مقتضيـــات الصدق والحق • وهكذا لم يعرف السرور الذى دخل الى قلبى بسبب ذلك حدا •

وقد صاحب هذه التعديلات التى أجريتها فى نفقاتى وفى أسلوب حياتى ، بل لعله سبقها ، تعديل آخر أدخلته على غذائى ، فامتنعت عن أكل الحلوى والتوابل التى كنت أحضرتها معى من الهند ، بعد أن اتجه عقلى اتجاها غير ذى قبل تلاشى معه حبى للتوابل ، واستعذبت أكل الاسفانخ المسلوق الذى عافته نفسى وأنا فى ريتشموند وكنت أجده وقتها مائعا لا طعم له ، فكنت أطهوه الآن من غـــير توابل على الاطلاق • نعم ، فلقد علمتنى تجاربى الجديدة أن حاسة الذوق مردها العقل لا اللسان •

وقد بقيت اعتبارات الاقتصاد ماثلة أمامى بغير انقطاع حتى بعد ذلك ، فقد ظهر فى ذلك الوقت رأى يقول بأن شرب الشاى والقهوة يضر بالصحة ، ويحبذ شرب الكاكاو • ولما كنت اذ ذاك مؤمنا بأنه ينبغى على المرء أن يقتصر فى طعامه على ما يشبعه ويسد أوده ، فقد تنازلت عن شرب الشاى والقهوة كليهما واستعضت عنهما بالكاكاو •

وقد صحبت هذه التجربة الرئيسية تجارب أخرى أقل شأنا • من ذلك مثلا الامتناع فى وقت من الأوقات عن أكل المواد النشوية ، والاقتصار فى وقت آخر على الخبز والفاكهة وحدهما ، والاكتفاء فترة من الفترات بالجبن واللبن والبيض • ولعل التجربة الأخيرة جديرة بأن تلفت النظر ، فهى لم تدم الا خمسة عشر يوما • وكان المصلح الذى دعا الى الكف عن المواد النشوية قد تحدث عن فضـــائل أكل

البيض وأطنب في قيمته الغذائية مؤكدا بأن البيض لا يدخل تحت باب اللحوم ، وليس في أكله عذاب لكائن حي . وغرني هـذا الرأي فأخذت آكل البيض رغم العهد الذي قطعته على نفسي . ولـكن هذه الزلة لم تدم طويلا ، فسرعان ما أدركت أنني لا أملك أن أفسر هـذا العهد تفسيرا جديدا ، وأن تفسير أمي له ، وهي من قطعت العهد لها ، هو وحده التفسير الذي يجب أن يؤخذ به . وكنت أعرف أن تعريفها للحوم يشمل البيض كذلك ، ولذلك فما كدت أتبين وجه الحق حتى امتنعت عن أكله وأقلعت عن هذه التجربة .

ومع ذلك فان تجاربي التي قمت بها خلال اقامتي في انجلترا كان الدافع اليها اعتبارات الصحة ومقتضيات الاقتصاد وحدها . أما الجانب الديني في تجاربي فلم يظهر الا فيما بعد ، بعد أن ذهبت الى جنوب أفريقية ، حيث بدأت وأنا هناك أمارس تجارب أشـــد عنفا سأتناولها بالحديث في مكانها .

وقد دفعني تحمسي للنباتية ، الذي كان أشبه في عنفه بشعور من آمن بدين جديد ، الى انشاء ناد للنباتيين في الحي الذي كنت أقيم فيه بلندن ، وهو حي بيزووتر ، ودعوت السير ادوين آرنولد ، أحد سكان الحي ، ليكون نائبا للرئيس . أما الرياسة فقد آلت الى الدكتور أولد فيلد ، رئيس تحرير مجلة «النباتي» ، كما عهد الي بسكرتيريته . وقد لقي هذا النادي نجاحا بعض الوقت ، ولكنه أوصد أبوابه بعد ذلك بأشهر معدودات ، اذ كنت قد انتقلت من ذلك الحي ، تمشيا مع القاعدة التي وضعتها لنفسي ، قاعدة التنقل من حي الى حي .

على أن تجربة النادي هذه ، على قصرها وتواضعها ، قد أكسبتني بعض المران في تنظيم المؤسسات وادارتها .

١٨ ـ الخجل درعي الواقي

انتخبت بعد ذلك عضوا فى اللجنة التنفيذية لجماعة النباتيين ، وقد حرصت عقب انتخابى على ألا يفوتنى اجتماع من اجتماعاتها ،ولكن لسانى ظل معقودا عن الحديث خلال تلك الاجتماعات . ولم أستطع التغلب على هذا الشعور بالخجل الا بعد أن ذهبت الى جنوب أفريقية، وان كنت لم أبرأ منه برءا كاملا . فكان من المستحيل على أن أتحدث ارتجالا ، وكنت أتردد كلما كان على أن أواجه وجوهـا جديدة ، وأتجنب الخطابة كلما وجدت الى ذلك سبيلا .

ولا مناص لى مع ذلك من الاعتراف بأن خجلى الطبيعى، على الرغم مما كنت أتعرض له بسببه من سخرية الناس وضحكهم فى بعض الحالات ، لم يكن بالأمر الذى أساء الى فى حياتى على الاطلاق ، بل انى لأراه أمرا فى مصلحتى ، فان ترددى فى الكلام ، وان تبرمت به فى وقت من الأوقات ، قد صار الآن باعثا على سرورى ، ولعل أهم أثر له فى حياتى أنه علمنى أن أضبط آرائى وأن أمحصها قبل أن يجرى بها لسانى . وقد علمتنى التجربة فوق ذلك أن السكوت جزء من التربية الروحية لكل من كانت تصبو نفسه الى أن يكون لسان صدق ، فان الميل الى المبالغة ، وكتم الحقيقة أو تغييرها عن علم أو غير علم ، انما هو ناحية من نواحى الضعف فى النفس البشرية . ومن كان كلامه قليلا قلما يندفع فى كلامه دون تفكير ، فهو يقيس كل كلمة من كلماته ويزنها قبل أن ينطق بها . ومن الناس على عكس ذلك من يسرفون فى الكلام ، ولكن اسرافهم لا يمكن أن يكون لخير العالم ، بل هـو مضيعة للوقت ، وتبديد للجهد .

ومن ثم فقد كان خجلى حصنا حصينا لى ، ودرعا أحتمى فيه ، ووسيله ساعدتنى على أن أتبين وجه الحق .

١٩ ـ داء البعد عن الصدق

كان عدد الطلبة الهنود فى انجلترا ضئيلا نسبيا منذ أربعين سنة • وكان من عادتهم أن يتظاهروا بأنهم غير متزوجين حتى ولو كانت لأحدهم زوجة فى الهند • ذلك أن طلبة المدارس والكليات من الانجليز كانوا جميعا من غير المتزوجين ، اذ الرأى السائد هناك أن التلمذة والحياة الزوجية أمران لا يتفقان • ولهذا كان الشبان الهنود المقيمون فى انجلترا يشعرون بشىء من الخجل اذا عرف عن أحدهم أنه متزوج • وثمة سبب آخر لهذا التظاهر • فلو أن حقيقة أمرهم كانت معروفة لامتنع على الشبان الهنود مصادقة فتيات العائلات التى يعيشون بينها أو مغازلتهن • وقد كانت هذه المغازلات بريئة بصفة عامة ، وكان أبوا الفتاة يشجعانها أحيانا ، بل قد يكون هذا الاختلاط بين الفتيان والفتيات أمرا ضروريا فى تلك البلاد بالنظر الى رغبة كل شاب هناك فى اختيار رفيقته فى الحياة • أما أن ينغمس الشبان الهنود بمجرد وصولهم الى انجلترا فى مثل تلك العلاقات ، وهى أمر طبيعى بالنسبة الى الشبان الانجليز ، فهو مسلك يحتمل أن تكون له نتائج وخيمة ، بل هو كثيرا ما كان كذلك • وقد بدا لى أن شبابنا قد استسلموا للاغراء واختاروا لأنفسهم طريقا يتسم بالبعد عن الصدق ومجافاة الأمانة من أجل علاقات ، مهما كانت بريئة فى حالة الشبان الانجليز ، فهى بالنسبة لهم أمر غير مستحب •

بل لقد كنت أنا كذلك ضحية هذا الوباء ، اذ انتقلت عدواه الى ، فلم أتردد فى التظاهر بأننى أعزب ، على حين كانت لى زوجة وولد ، وان كنت مع ذلك لم أستشعر شيئا من السعادة طيلة الوقت بسبب هذا الخداع •

فقد كان من الأمور العادية في عائلات كتلك التي نزلت بينها في مدينة فنتنور أن تصاحب ابنة صاحبة الدار ضيوف امها الى نزهات خارجية . وقد أخذتني ابنة مضيفتي هذه يوما الى التـــلال الجميلة المحيطة بالمدينة . وعلى الرغم من أنني كنت مشاء سريع الخطوة فقد بزتني في سرعة خطواتها وسارت وهي تجرني وراءها جرا دون أن تنقطع عن الثرثرة لحظة واحـدة . وكنت أجيب على حديثهـا الذي لا ينقطع بنعم أو لا ، أتمتمها من بين شفتي ، أو كنت أقول في أحسن الحالات : ما أجمل المنظر ! كانت تسير كما لو كانت تطير في الهواء على حين كنت أسائل نفسي : ترى متى أعود الى البيت ؟ ووصلنا أخيرا الى قمة التل ، ولكن المشكلة التي اعترضتني بعد ذلك وشغلت على تفكيري هي كيف ننزل مرة أخرى من مكاننا الذي كنا فيه . أما هي ، الفتاة اليانعة ذات الخمسة والعشرين ربيعا ، فقد مرقت على الرغم من كعب حذائها العـالي من فوق التل كالسهم المنطلق ، حتى خجلت من نفسي وأنا لا أزال أتعثر في طريقي على سفح التل ، بينما هي قد وقفت عند قاعدته تبتسم وتشجعني بعباراتها وتعرض على أن تتقـــدم لمساعدتي . وأخيرا ، وبعد صعوبات لا آخر لها ، اضطررت خلالها في بعض الأحيان الى الزحف على بطني ، وصلت سالما ، فانطلقت تقول : « برافو ! » مما زادني خجلا على خجل .

على أنني لم أخرج من مثل هذه المغامرات سليما معافى ، اذ أراد الله أن يشفيني من الخداع وأن يبرئني من داء البعد عن الحق . فقد كنت ذهبت الى برايتون ، قبل زيارتي لفنتنور ، وهي مثلها من البلاد التي تقع على البحر ، فتعرفت في أحد فنادقها الى أرملة مسنة ذات ثروة لا بأس بها . كان ذلك خلال السنة الأولى من اقامتي في انجلترا، وكانت أصناف الطعام قد كتبت في قوائم المائدة باللغة الفرنسية فتعذر على فهمها . وكانت هذه السيدة تجلس معي على مائدة واحدة فأدركت حيرتي وسارعت الى معاونتي وهي تقول : « يبدو أنك غريب

على المكان ، وانك في شيء من الحيرة • لماذا لم تطلب شيئا من الطعام؟»
وكنت لا أزال مشغولا بالنظر الى قائمة الأكل أكاد أتهجى الحروف التى تتألف منها عباراتها قبل أن أستفسر من النادل عما يدخل فى طهوها من العناصر ، فشرحت لها ما كنت فيه من حرج وما ألقاه من عنت وأنا أحاول أن أتبين أى هذه الأصناف نباتى لا يدخله اللحم فلا أفهم من الأسماء الفرنسية شيئا •

وردت تقول : « دعنى أعاونك وأبين لك ما يمكنك أن تختاره من بين الأصناف الواردة فى القائمة » فشكرت لها صنيعها وطعمت مما أشارت على به ، فكانت هذه الحادثة بداية معرفة بيننا لم تلبث أن نمت وترعرعت حتى تحولت الى صداقة دامت طيلة بقائى فى انجلترا وردحا طويلا بعد عودتى منها •

لقد أعطتنى هذه السيدة عنوانها فى لندن ودعتنى الى تناول العشاء فى بيتها يوم الأحد من كل أسبوع ، هذا غير الدعوات الأخرى التى كانت توجهها الى فى المناسبات الخاصة • وكانت فى كل مرة من هذه المرات تعاوننى على التغلب على حيائى وتقدمنى الى بعض الفتيات من أقاربها وصويحباتها ، بل تدفعنى دفعا الى التحدث اليهن وتخص من بينهن فى ذلك فتاة كانت تقيم معها ، بل كثيرا ما كانت هذه السيدة تتركنا وحدنا فى البيت •

وقد وجدت هذه الزيارات مرهقة فى أول الأمر ، اذ كنت لا أستطيع أن أبدأ الحديث أو أشترك فى تبادل النكات ، ولكنى أخذت بعد ذلك ، بفضل ارشاد هذه السيدة وتوجيهها ، فى تعلم أشياء كثيرة ، حتى صرت على مر الأيام أتطلع الى يوم الأحد من كل أسبوع، لكى أنعم بالحديث مع هذه الصديقة الفتاة •

واستمرت السيدة المسنة توسع دائرة شباكها يوما بعد يوم ، وتبدى اهتماما متزايدا بهذه الاجتماعات التى تتم بينى وبين هـــذه الصديقة ، ومن يعلم ؟ فلعلها كانت لها خطة مدبرة فيما يتعلق بنا نحن الاثنين ٠

أما أنا فقد كنت فى حيرة من أمرى ٠ كنت أقول لنفسى : « ما أكثر ما أتمنى لو أننى كنت قد أطلعت هذه السيدة من أول الأمر على ظروفى الحقيقية وأخبرتها بأننى متزوج ٠ اذن لما فكرت فى السعى الى خطبتنا ٠ ولكن الفرصة مع ذلك لم تفلت بعد لكى أصحح هذا الوضع، فاننى لو أعلمتها الآن بالحقيقة فقد يكون فى ذلك منجاة لى من التردى فى مزيد من الشقاء » ٠ وبينما هذه الأفكار تعتمل فى نفسى جلست لأكتب لهذه السيدة خطابا هذا معناه :

« منذ أن تقابلنا فى برايتون وأنت تضفين على من كرمك وعطفك الشىء الكثير ، حتى عنيت بأمرى كما تعنى الأم بأمر ابنهـــا ٠ وقد فكرت ، مدفوعة بروحك الطيبـــة ، فى أنه قد يكون من واجبى أن أتزوج وأخذت لذلك تعرفيننى بكرائم الآنسات ٠ غير أننى أرى من واجبى ، حتى لاتتفاقم الأمور أكثر مما تفاقمت ، أن أصارحك بأننى لم أكن أهلا لعطفك ، فقد كان على ، عندما بدأت أزورك فى بيتك ، أن أفضى اليك بأننى متزوج ٠ لقد رأيت الطلبة الهنود فى انجلترا يخفون أمر زواجهم فقلدتهم ، وقد وضح لى الآن أننى ما كان يجـــدر بى أن أفعل ما فعلت ٠ ولابد لى من أن أضيف الى ذلك أننى تزوجت وأنا بعد ولد صغير ، وأننى أب لطفل ٠

« وانه ليحز فى نفسى أن أكون قد أخفيت هذه المعلومات عنك طوال هذه المدة ، وان كنت سعيدا الآن بأن الله قد منحنى الشجاعة لكى أقول الحق ٠ فهل لك أن تغفرى لى هذا السلوك ؟ وأؤكد لك فى

الوقت نفسه أنني لم أستبح لنفسى مع هذه الآنسة التى تفضلت بتقديمى اليها حرية لا يقرها شعورى بكرمضيافتك ، فقد ظللت دائما أعرف حدودى • لقد كان طبيعيا ، وأنت في غفلة من أمر زواجى ، أن ترجى لو تمت خطبتنا الى بعضنا ، فرأيت من واجبى أن أطلعك على الحقيقة حتى لا تتعدى الأمور مرحلتها الحالية •

« فاذا أحسست عند استلام كتابى هذا بأننى لم أكن أهلا لكرم ضيافتك ، فانى أؤكد أنه لا لوم عليك فى ذلك ولا تثريب ، فقــد طوقت عنقى ، بما أضفيت على من عطف وكرم ، بدين لا سبيل لى الى نسيانه • أما اذا تراءى لك بعد تلاوته ألا تردينى وأن تظلى تعتبريننى جديرا بحسن ضيافتك، مما سأعمل جاهدا ماحييت لكى أكون جديرا به ، فسأبقى سعيدا وأرى فيما فعلت مظهرا آخر من مظاهر فضلك وكرمك » •

وأرجو من القارىء أن يدرك أننى ما كنت لأستطيع أن أكتب مثل هذا الخطاب فى جلسة واحدة ، وأننى لابد أن أكون قد كتبته ثم أعدت كتابته مرات ومرات • ولكنى ما كدت أنتهى نهائيــا من كتابته ، حتى شعرت وكأن عبئا ثقيلا قد ارتفع عن كاهلى بعد أن أثقله بعض الوقت •

وجاء رد السيدة سريعا • قالت فيه :

« تسلمت خطابك الذى يتسم بالصراحة • وقد سررنا كلانا به وضحكنا ملء قلبينا مما جاء فيه • وان عدم الصدق الذى تقول انك انجرفت اليه لهو مما يمكن أن يغتفر لك • ولكنك مع ذلك قد أحسنت صنعا بأن أطلعتنا على حقيقة الأمر ، ولا تزال دعوتى اليك قائمة ، ونحن بكل تأكيد نتطلع الى حضورك الينا يوم الاحد المقبل والاستماع الى قصة زواجك المبكر ، والاستمتاع بالضحك على حسابك • فهل

ترانى بعد ذلك فى حاجة الى أن أؤكد لك بأن صداقتنا لم تتأثر بهذا الحادث على الاطلاق ؟ »

وهكذا طهرت نفسى من الخداع ، ولم أتردد بعد هذا الحادث لحظة واحدة فى أن أتحدث عن زيجتى كلما اقتضى الأمر منى ذلك ٠

وخلال السنة الأخيرة من اقامتى فى انجلترا ، فيما أذكر ، أى فى سنة ١٨٩٠ ، عقد مؤتمر للنباتيين فى مدينة بورتسموث دعيت اليه أنا وصديق هندى ٠ وبورتسموث ميناء بحرى يضم بين سكانه عددا كبيرا من المشتغلين بأعمال البحر ، وتكثر فيه البيوت التى تسكنها نساء من ذوات السمعة السيئـــة ، ولا أقول من محترفات الدعارة ، بل ممن لا يحسبن حسابا للفضيلة ٠ وقد أسكننا المشرفون على المؤتمر فى بيت من هذه البيوت ، وان كنت لا أرانى فى حاجة الى القول بأن لجنة استقبـــال المؤتمر لم تكن تدرى من أمر ذلك البيت شيئا ٠

وعدنا من المؤتمر فى المساء ، ثم جلسنا بعـــد العشاء نلعب البريدج ، واشتركت صاحبة الدار معنا فى اللعب على نحـو ما هو مألوف فى انجلترا ، حتى فى أحسن الأوساط ٠ والعادة فى مثل هذه الأحوال أن يتبادل اللاعبون النكات البريئة خلال اللعب ، الا أن زميلى وصاحبة البيت أخذا يتبادلان النكات المبتذلة ٠ ولم أكن أعرف أن زميلى يجيد مثل هذا الفن وسرعان ما وجدت نفسى مســوقا الى الاشتراك معهما فى نكاتهما ٠ غير أننى ما كدت أصل الى الحد الذى يجب ألا أتعداه ، تاركا لعبة الورق تنعى نفسها ، حتى تداركتنى رحمة الله فشاءت أن تجرى على لسان صديقى انذارا يردنى عما كنت مندفعا فيه فاذا هو يقول لى : « من أين هـــذا الشيطان الذى تسلل الى نفسك ؟ قم ! قم سريعا ! » ٠

وتولاني خجل شديد ، وان كنت شعرت في قرارة نفسي بالحمد صديقي على هذا الانذار ، وذكرت عهدى لأمي فجريت من المكـان وذهبت الى حجرتي وأنا أرتعد كما ترتعد الفريسة حـــين يطاردها الصياد ٠

لم أكن أدرك في ذلك الوقت كنه الدين ، ولا حقيقة الله ، ولا أعرف كيف يسيرنا في أمورنا ٠ كان كل ما أحسست به أنه أنقذني مما كدت أتورط فيه ٠ نعم لقد كنت كلما افتقدت الأمل ، وتخـلى عنى الصديق والمعين ٠ واظلمت الدنيا في عيني ، أجـد الفرج وقد أتاني من حيث لا أدرى ٠ ومن ثم فان التضرع الى الله ، والعبادة والصلاة ، لا يمكن أن تكون خرافة ، بل هي كلها أمور واقعية بل أكثر واقعية حتى من الأكل والشرب ، ومن الجلوس والمشي ٠ بل لا أغالي اذا قلت انها وحدها الأمور الواقعية ٠ أما ما عداها فهو سراب لا يلبث أن يزول ٠

٢٠ ـ بداية تعرفي على الأديان

في أواخر العام الثاني من اقامتي في انجلترا ، التقيت باثنين من أتباع مذاهب الثيوصوفية ، وكانا أخوين أعزبين ، فأخذا يتحدثان معي عن الجيتا ، بعد أن كانا قد قرآها من ترجمة للسير ادوين آرنولد تحت عنوان « الأنشودة السماوية » ، ودعياني الى قراءتها معهما من الأصل . وتولاني وقتها شعور بالخجل ، اذ لم يسبق لي قراءة هذا الشعر الديني لا بالسانسكريتية ولا بالجوجيراتية ، فاضطررت الى الاعتراف لهما بأنني لم أقرأ الجيتا من قبل ، وقلت لهما انني يسعدني مع ذلك أن أقرأها معهما ، وانني وان كانت معرفتي بالسانسكريتية ضئيلة ، فاني آمل أن أفهمها الى الحد الذي أستطيع معه أن أدلهما على المواطن التي قد تكون الترجمة الانجليزية قد عجزت فيها عن ابراز المعاني الأصلية .

وأخذت أقرؤها معهما فتأثرت بما قرأت حتى لاتزال بعض عباراتها ترن في أذني الى اليوم ، فقد تبين لي أن الجيتا كتاب قيم . وقد ازداد ايماني بذلك على مر السنين ، حتى أصبحت أعتبرها خير كتاب لمن أراد أن يعرف ما هو الحق . وقد ظل هذا الكتاب يمدني بعون كثير ، كلما تولاني ضيق أو اعتراني ضجر بالحياة .

ونصحني الأخوان بدورهما أن أقرأ كتاب « الضوء المنبعث من آسيا » للسير ادوين آرنولد كذلك ، ولم أكن أعرف من أعمال هذا الكاتب سوى « الأنشودة السماوية » . فلما شرعت في قراءة هذا الكتاب ألفيتني مدفوعا الى قراءته بشغف يفوق شغفي حتى وأنا أقرأ

البهاجافادجيتا ، اذ ما كدت أشرع فى قراءته حتى وجدتنى غير قادر على تركه الى أن انتهيت منه ٠

وأخذنى الأخوان مرة من المسـرات الى حيث عرفـانى بمدام بلافاتسكى والمسز بيزانت ، وكانت الأخيرة قد انضمت منذ فترة قصيرة الى الجمعية الثيوصوفية ، فاستمعت باهتمام كبير الى الجدل الذى دار حول موضوع اعتناقها لهذا المذهب ٠ وقد نصحنى الصديقان بالانضمام الى تلك الجمعية ، ولكنى اعتذرت لهما فى أدب ، قائلا : « اننى لا أريد أن أنضم الى أية هيئة دينية ، ومعرفتى بدينى لا تزال على ما هى عليه من الضعف » ٠

وأذكر أننى قرأت بناء على نصيحة هذين الأخوين كتاب «مفتاح الثيوصوفية » لمدام بلافاتسكى ، فأثار ذلك فى نفسى شوقا الى مطالعة الكتب التى تعالج الهندوسية ، كما أبرأنى من الفكرة التى كانت قد رسخت فى عقـلى نتيجة لدعـايات المبشرين فى الهنـد عن امتلاء الهندوسية بالخزعبلات ٠

كذلك التقيت فى حوالى ذلك الوقت برجل من المسيحيين ، من مدينة مانشستر ، قابلته فى أحد فنادق النباتيين المتواضعة ، فأخذ يتحدث الى عن المسيحية ٠ فلما سردت عليه ما كان لى من ذكريات مع المبشرين فى راجكوت تألم لذلك ، واستطرد يقول لى : « ها أنذا أمامك ٠ فأنا نباتى ولا أشرب الخمر ، بينما غيرى من المسيحيين ، وهم كثر ، يأكلون اللحم ويشربون الخمر ، مع أن الكتاب المقـدس لا يحض على أكل اللحم ، ولا يدعو الى شرب الخمر ٠ حبذا لو أنك قرأت الانجيل » ٠ وعملت بنصيحته وأخذت أقرأ الكتاب المقدس من نسخة أعطانيها ، غير أننى لم أستطع أنأشق طريقى فى العهد القديم٠ ومع أننى قرأت الجزء الخاص بسفر التكوين فان الفصول التى تلت

ذلك ، كانت تبعث في نفسي دائما رغبة الى النوم • وقد تحسست طريقي مع ذلك في الأجزاء الأخرى في كثير من الصعوبة وفي غير تشوق أو فهم ، وان كنت كرهت قراءة سفر العدد •

أما العهد الجديد فقد كان أثره في نفسي على خلاف ذلك ، ولا سيما موعظة الجبل ، فقد تسللت الى قلبي ودفعتني الى عقد مقارنة بينها وبين الجيتا • كذلك الآيات التي تقول : « ولــــكني أقول لك لا تقاوم الشر ، ومن ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر ، واذا أخذ أحد من الناس رداءك فقدم له عباءتك » قد أعجبتني وملأتني غبطة لا حد لها ، وذكرتني بعبارة شامال بهات : « من أعطاك قدحا من الماء أعطه وجبة شهية » • وهكذا أخذ عقلي يربط بين الجيتا ، وبين الضوء المنبعث من آسيا ، وبين موعظة الجبــــل ، فقد كانت روح الاستسلام التي تتخللها جميعا أعلى مراتب التدين المحببة الى نفسي •

ولم أستطع أن أتجاوز هذا القدر من الالمام بأمور الدين في ذلك الوقت ، اذ كان الاستعداد للامتحان قد شغل كل وقتي وتفكيري ولم يترك فراغا لغيره من الموضوعات • ولكني آليت على نفسي لأستزيدن من مطالعة الكتب الدينية في المستقبل حتى أتعرف على جميع الديانات الرئيسية •

٢١ ــ في الهند مرة أخرى

جزت امتحاني بنجاح ، وسجلت في جماعة المحامين في العاشر من شهر يونية سنة ١٨٩١ ، وقيدت للمرافعة أمام المحكمة العليا في الحادي عشر • وفي اليوم الثاني عشر ، أبحرت عائدا الى بلدى •

وقد تولاني وقتئذ شعور بالخوف والعجز معا ، اذ على الرغم من دراستي القانونية ، كنت لا أشعر بأنني قد أصبحت مؤهلا لممارسة القانون • نعم ، لقد درست القانون ، ولكني لم أتعلم كيف أمارس القانون الذى درسته • أضف الى ذلك أنني لم أكن قد درست شيئا عن القانون الهندى ، ولم تكن عندى أية فكرة عن الشريعةالهندوسية أو الاسلامية ، بل لم أكن قد تعلمت حتى كيف أحرر عريضة الدعوى، أو أكتب التماسا قانونيا • وهكذا شعرت بأنني في دوامة من الحيرة والارتباك ، وانتابني الشك فيما اذا كان في مكنتي بعد ذلك أنأكسب عيشي عن طريق مهنة المحاماة •

وفي البحر الأحمر ، كان البحر هائجا مائجا على طول الطريق من عدن ، حتى شعر الركاب جميعا بدوار البحر ما عداى ، فقد بقيت فوق ظهر السفينة أشاهد الأمواج المتلاطمة ، وأنعم برذاذ الماء وهو يتساقط على وجهي •

وخيل الى وأنا كذلك ، أن هذه العاصفة الظاهرة ما هي الا رمز على العاصفة الباطنة التي تعتمل في قرارة النفوس • فاذا كنت قد صمدت أمام العاصفة التي تجتاز طريقنا ونحن في البحر وبقيت هادئا

لا أنزعج فكذلك يمكنني أن أقول انني كنت أشعر في داخـل نفسي بالطمأنينة والهدوء النفسي ٠

وكان أخي الأكبر قد جاء الى بومباي لاستقبالي في المينـــاء ٠ وكنت من ناحيتي في لهف شديد على أمي ، أتحرق لرؤياها ، ولم أكن أدرى أنها ماتت ، فقـــد أخفى أخي عني خبر موتها وأنا لا أزال في انجلترا ٠ على أن ذلك لم يقلل من وقع الصدمة التي انتابتني عندما علمت بوفاتها ، فقد حطم موتها معظم آمالي العزيزة على نفسي ، وان كنت أذكر في الوقت نفسه انني مع جزعي الشديد في أعماق قلبي ، لم أستسلم لمظاهر الحزن العنيفة ، واستطعت أن أكبت دموعي ،كأن شيئا لم يحدث ٠

٢٢ ـ كيف بدأت حياتي

كانت العاصفة التي أثارها سفري الى الخارج بين أفراد طائفتي لا تزال قائمة ، بعد أن عدت الى الهند ، وان كانوا قد انقسموا على أنفسهم فريقين : فريق يرى أن أعود الى حظيرتهم مرة أخرى ، وفريق يرى أن أظل مقصيا · أما أنا فلم أحاول أن أعود الى الفريق الذى أقصاني عنه ، بل لم أشعر بشيء من المرارة نحو أحد من زعمائه ، على الرغم من أن بعضهم كان ينظر الى نظرة ملؤها الكراهية · وقد تعمدت أن أتجنب كل ما قد يؤذى مشاعرهم ، واحترمت نظم الطائفة فيما يتعلق بطردى وحرماني في جميع تفاصيلها · من ذلك أن هذه النظم كانت تفرض على أقاربي جميعا ، ومن بينهم حماى وحماتي وأخو زوجتي بل حتى أختي نفسها ، ألايستضيفوني في بيوتهم على الاطلاق، وألا أتناول حتى جرعة من الماء عندهم · ومع أنهم كانوا على استعداد جميعا لتفادى هذا الحرمان في السر ، فقد تعارض ذلك مع طبيعتي وكرهت أن أفعل في الخفاء ما لا أفعله في العلن ·

وكان من أثر هذا التزمت من جانبي ، أنني جنبت نفسي كل ما من شأنه أن يحنق الطائفة على حتى لأستطيع أن أقول انني لم ألق الا كل عطف وكرم من عامة أفراد الفريق الذى كان لايزال يرى أن أبقى طريدا محروما ، بل ان بعضهم كان يساعدني في عملي دون أن ينتظر مني أن أعمل للطائفة نظير ذلك شيئا على الاطلاق · والحق انى مؤمن بأن كل خير صادفني في حياتي ، انما كان مرده نزعتي الى عدم المقاومة · فلو أنني ثرت على من أقصوني عنهم وأرغيت وأزبدت لكي أعود الى حظيرة الطائفة ، أو لو أنني حاولت أن أزيد الطائفة انقساما

على انقسامها ، اذن لثأروا لأنفسهم ، وبدلا من أظل بعيدا عن العاصفة الهوجاء كنت وجدت نفسى على اثر وصولى من انجلترا فى دوامةعنيفة من الاضطراب والقلق ، وكنت من الجائز قد اضطررت الى الانغماس فى بعض أعمال النفاق والمخادعة ·

على أن المشكلة الأولى التى كانت تواجهنى بعـــد رجوعى الى بلدى ، كانت مشكلة عملى · فلو أننى بدأت أمارس المحـــاماة فى راجكوت لكان ذلك مدعاة الى سخرية لا شك فيها ، اذ لم يكن لدى من المعلومات ما يصل فى مرتبته الى معلومات محام من المحامين المؤهلين للمرافعة أمام المحاكم الجزئية ، ومع ذلك فقد كنت أنتظر أن أتقاضى عشرة أضعاف ما يتقاضاه · واذن فلن يوجد من الموكلين من تبلغ به الحماقة حدا يحمله على توكيلى فى قضية له ، وحتى اذا كان وجود مثل هذا الموكل أمرا محتملا فهل يليق بى أن أضيف الى جهلى غرورا وزورا، فأزيد من عبء الدين الذى فى عنقى نحو العالم ؟

وقد نصحنى بعض الأصدقاء بأن أذهب الى بومباى بعض الوقت لأكتسب فيها خبرة ومرانا على أعمال المحكمة العليا ، ولكى أدرس القانون الهندى فيها ، وأحاول الحصـــول على ما قد يتيسر لى من القضايا · على أن الاقامة فى بومباى أكثر من أربعة شهور أو خمسة على أقصى تقدير كانت ، بالنسبة لى ، أمرا مستحيلا ، اذ كان لا بد لى فيها من دخل يسد نفقاتى المتزايدة ·

وتصادف أن جاءنى فى ذلك الوقت عميل يدعى مامیبای بقضية له وكانت « قضية صغيرة » ، فقال لى أحد الناصحين : « عليك أن تدفع عمولة للسمسار » ولكننى أبيت أن أدفع العمولة واحتفظت بالقضية لنفسى ، وكانت سهلة هينة تقاضيت عليها أتعـــابا قدرها ثلاثون روبية ، ولم يكن من المحتمل أن يستمر نظرها أمام المحكمة أكثر من يوم واحد ·

كانت هذه أول قضية لى أمام المحاكم الجزئيـة ، فوقفت أدافع عن المدعى عليه ، فكان على بهذه الصفة استجواب شهود المدعى · غير أننى ما كدت أتقدم أمام هيئة المحكمة حتى غاص قلبى الى قدماى ، ودارت رأسى ، وشعرت بأن قاعة المحكمة بمن فيها وما فيهـا تدور معى · ولا بد أن القاضى تملكه الضحك وقتها ، وأن المحامين الجالسين شعروا بمتعة لا حد لها وهم يشاهدون هذا المنظر الفريد ، ولـكنى كنت قد تجاوزت المرحلة التى أستطيع أن أدرك فيها شيئا ، أو أحس بما يجرى حولى ، فجلست وأنا أقول لموكلى اننى لا أستطيع أن أسير فى القضية ، وخير له أن يوكل باتل ، ودعوته الى استرداد الأتعاب التى كان قد دفعها لى · وتم توكيل باتل بالفعل نظير أجر قدره واحد وخمسون روبية · وبالطبع كانت القضية بالنسبة له لا تزيد على أن تكون كاللعبة فى يد الطفل ·

وسارعت أغادر قاعة الجلسة ، دون أن أعرف هل كسب عميلى القضية أم خسرها ، وقررت بعد ذلك ألا أقبل قضية أخرى الا بعد أن أجد فى نفسى الشجاعة على رعايتها والسير بها أمام المحاكم · ثم لم ألبث أن فكرت فى الالتحاق بوظيفة من وظائف التدريس ، فقد كانت معرفتى باللغة الانجليزية طيبة الى الحد الذى يسمح لى بتدريسهـا ، وكنت أتمنى لو أتيح لى أن أدرسها لتلاميذ احدى المدارس الذين يعدون أنفسهم لامتحان الماتريكيوليشن ، فقد كان من شأن ذلك أن يعيننى على مواجهة بعض نفقاتى الضرورية ·

ووقعت عيناى على اعلان فى احدى الصحف يقـول : « مطلوب مدرس للغة انجليزية للتدريس سـاعة واحدة فى اليـوم ــ المرتب ٧٥ روبية » · وكان الاعلان صادرا عن مدرسة ثانوية معروفة فتقدمت اليها بطلبى ودعيت لمقابلة أولى الشأن فيها · وذهبت فى الموعد المقرر

وأنا أشعر بالسعادة والغبطة ، ولكن ناظر المدرسة ما كاد يعلم بأننى غير متخرج فى احدى الجامعات حتى أبدى أسفه على أنه لا يستطيع أن يقبل طلبى ٠

قلت له : « ولكننى نجحت فى امتحان الماتريكيوليشن منجامعة لندن ، وكانت اللاتينية اللغة الثانية فى ذلك الامتحان » ٠

ورد يقول : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكننا نريد واحدا من الخريجين » ٠

ولم تكن لى حيلة بعد ذلك ، ففركت يدى حسرة وأسى ، كما شعر أخى حين علم بذلك بكثير من الهم ، ووصل كلانا الى أنه لافائدة ترجى من بقائنا أزيد من ذلك فى بومباى ٠

وغادرت بومباى والحسرة تملأ نفسى ، وذهبت الى راجكوت حيث أقمت لنفسى مكتبا فيها ٠ وقد استطعت وأنا فيها أن أشق طريقى بعض الشىء ، فقد كان تدبيج العرائض وكتابة المذكرات يعود على فى المتوسط بدخل قدره ٣٠٠ روبية فى الشهر ، وان كنت مدينا بذلك لنفوذ من كانوا حولى أكثر مما كنت مدينا به لكفـــايتى ومقدرتى الشخصية ٠ فقد كان لشريك أخى مكتب للأعمال القضائية ، فكان يعهد بالقضايا الهامة الى كبار المحامين ٠ أما القضايا الصـــغيرة ، وكانت فى العادة لا تزيد على تحرير عرائض الدعوى الخاصة بالعملاء الفقراء ، فكان يبعث بها الى ٠

٢٣ - أول صدمة لى

كان أخى يعمل سكرتيرا للمغفور لها زوجة أمير بوربانذر ، قبل أن يتولى منصبه الحالى ، وكان فى الوقت الذى نتحدث عنه يواجه تهمة اعطاء مشورة خاطئة حين كان فى منصبه الأول ، ثم انتقل موضوعه فى ذلك الوقت الى يد المندوب السياسى ، وكان هذا متحاملا عليه • وكنت قد عرفت هذا المندوب ، وأنا فى انجلترا ، الى حد يسمح بأن يقال انه كان معى على درجة لا بأس بها من العلاقة الودية • وقد رأى أخى الآن أن أفيد من هذه الصلة فأوصى به لديه حتى أنتزع من نفسه ما كان يحمله لأخى من بغض • ولم ترقنى هذه الفكرة • فقد كنت أرى أنه لا يليق بى أن أستغل الصلة البسيطة التى كانت لى بهذا الموظف الكبير ، وأنا فى انجلترا ، فى مثل هذا الغرض • ثم اذا كان أخى مذنبا حقا فماذا عسى أن تفيده توصيتى ؟ أما اذا كان بريئا فان واجبه كان يقتضيه أن يتقدم بالتماسه بالطريق المألوف ، وأن يواجه النتيجة بعد ذلك وهو مؤمن ببراءته• ولكن أخى لم يستسغ نصيحتى، واستطرد يقول : « انك لا تعرف كاثياواد ، وما زال أمامك وقت طويل لكى تفهم الدنيا • انه لاشىء يجدى هنا ، كما تجدى الوساطة ، ولا يليق بك ، وأنت أخى الشقيق ، أن تحجم عن أداء واجبك ، بينما تستطيع أن توصى به خيرا لدى موظف كبير لك به معرفة » •

ولم يكن فى استطاعتى ، بعد ذلك ، أن أرد رجاءه • وهكذا ذهبت الى هذا الموظف على كره منى ، فقد كنت أدرك أنه لا حق لى فى أن أتصل به فى مثل هذا الموضوع ، وأعرف حق المعرفة أننى باتصالى به انما أقامر باحترامى لنفسى • ولكننى مع ذلك طلبت تحديد موعد

لمقابلته وظفرت بذلك • فلما ذهبت اليه ذكرته بما كان بيننـــا من معرفة ، ولكنني سرعان ما أدركت أن كاثياواد غـــير انجلترا ، وأن موظفا يقابله الانسان وهو في اجازته غيره وهو يجلس الى مكتبـــه ليباشر مهام منصبه • فقد اعترف هذا المنـــدوب الســـامي بمعرفتنا السابقة وان كانت تذكرته بها فيما يبدو قد جعلته يجمد في مكانه ، كما لو كان لسان حاله يريد أن يقول : « أرجو ألا تكون قد حضرت هنا لكي تسيء استخدام هذه المعرفة » • بل لقد بدا هذا المعنى واضحا جليا في عينيه • وعلى الرغم من ذلك ، فقد دخلت في الموضوع • وهنا بدا أن صبره قد عيل ، فصاح يقول : « ان أخاك دساس ، ولا أريد أن أستمع الى أكثر من ذلك منك ، فليس عندى وقت لذلك • واذا كان لدى أخيك ما يحب أن يقوله ، فليرفعه الى بالطريق المعتاد » • كان هذا الرد كافيا ، بل هو رد استحققته بسلوكى • غير أن حب الذات يعمى بصيرة الناس ، فاستطردت أقص عليه قصة أخى ، فما كان من سيادته الا أن هب واقفا وهو يقـول : « يجب أن تنصرف الآن » •

وناشدته أقول : « أرجو أن تستمع الى الى النهاية » ، ولـكن عبارتى زادته غضبا فوق غضبه فنادى حاجبه وأمره بأن يخرجنى • وكنت لا أزال أقف موقف المتردد حين جاء الحاجب فوضع يده فوق كتفى ودفعنى الى الخارج •

وخرجت وأنا أغلى من الغيظ ، فكتبت له رسالة على الفور هذا معناها : « لقد أهنتنى ، بل لقد اعتديت على على يد حاجبك ، فاذا أنت لم تعمل على تصحيح هذا الوضع فسوف أكون مضطرا الى اتخـــاذ الاجراءات القانونية ضدك » •

وجاء رده سريعا على يد ساعيه • قال فيه : « لقد كنت غـــير مهذب معى • فلقد طلبت اليك أن تنصرف فأبيت ، فلم يعد أمامى الا

أن آمر حاجبي بأن يخرجك • وحتى بعد أن طلب اليك حاجبي أن تنصرف من مكتبي أبيت أن تخرج ، وبقيت في مكانك ، فلم يعد أمامه الا أن يستخدم من القوة القدر الضروري لاخراجك • ولك الحرية بعد ذلك في أن تفعل ما تشاء » •

حملت هذا الرد في جيبي وعدت الى بيتي حزينـــا مبتئسا ، وأخبرت أخي بكل ما حدث ، فحزن لذلك ، ولم يدر كيف يواسيني • وقد تحدث في ذلك الى بعض أصدقائه من المحامين ، بعد أن عجزت عن أن أتبين الطريق السوى لاتخاذ الاجراءات القانونية ضد هـــذا المندوب • وتصادف أن كان السير فيروز شاه ميهتا في راجكوت في ذلك الوقت ، اذ كان قد حضر اليها من بومباى ليترافع في احدى القضايا • ولكن أنى لى ، وأنا المحامى الناشىء ، أن أجرؤ على مقابلة من كان مثله ؟ فبعثت اليه بجميع أوراق الموضوع عن طريق محـام يعمل بمكتب الأعمـال القضائية الذى اختاره للمرافعـة في القضية التى جاء الى راجكوت من أجلها ، برجاء أن يتفضل على برأيه • فقال للمحامى الذى حمل الأوراق اليه : « قل لغاندى ان ما وقع له حادث عادى في حياة كثيرين من المحامين • انه لا يزال‌حديث الذاكرة بالأمور في انجلترا ولا يزال محتفظا بحماسه • انه لا يعرف كبار الموظفـين البريطانيين هنا • ان عليه اذا أراد أن يكسب قوته وأن يحيا هنـا حياة ليس فيها ما ينغص عليه عيشه، أن يمزق هذه المذكرة وأن يزدرد الاهانة التى لحقته ، فهو لن يجنى من وراء اتخاذ اجراءات قانونيـة ضد المندوب شيئا ، بل هو على العكس سيهدم نفسه بنفسه اذا سار فيها الى النهاية • قل له انه ما زال في حاجة الى أن يعرف أساليب الحياة » •

كان لهذه النصيحة في نفسى أثر السم الزعاف ، وان وجدتنى مضطرا الى العمل بها • وهكذا ازدردت الاهانة التى وقعت على ، بعد أن أفدت منها فائدة كبرى • فقد قلت لنفسى : « لن أضع نفسى مرة

أخرى في مثل هذا الوضع الزائف، ولن أحاول في المستقبل أن أستغل الصداقة على هذا النحو » · ولم أتخل يوما عن هذا الذى اعتزمته · بل ان هذه الصدمة التى تلقيتها قد غيرت مجرى حياتى نفسه ·

وما من شك فى أننى كنت مخطئا فى الذهاب الى هذا الموظف الكبير ، وان كان ضيق صدره بى وتعاليه على وهو فى سورة غضبه أكثر مما يتناسب مع خطئى ولم يكن ليبرر بحال من الأحوال طردى من مكتبه · والأدهى من ذلك أن معظم عملى كان أمام محكمته ،ولكننى مع ذلك لم أشأ أن أعمل على استرضائه ، بل الواقع اننى بعـد أن هددت بمقاضاته لم أحب أن أظل ساكتا ·

وكنت فى الوقت نفسه قد بدأت أتعلم شيئا عن الأسـاليب التافهة التى تجرى فى الولاية · فلما كانت ولاية كاثياواد تتألف من مجموعة من المقاطعات الصغيرة فقد كان طبيعيا أن يكون حظها من محترفى السياسة وفيرا حتى أضحت المؤامرات بين مقاطعة ومقاطعة ، وبين الموظفين أنفسهم وهم يتنازعون على السلطان ، أمرا عاديا ، وصار الأمراء تحت رحمة من دونهم ، يستمعون الى الوشايات من كل واش وحاسد ·حتى حاجب المندوب السياسى كان لابد من استرضائه· أما رئيس الكتاب فقد كان أشد بأسا من سيده ، فهو عينه التى يرى بها ، وأذنه التى يسمع بها ، ورجله الذى يعتمد عليه فى ترجمـة ما يدور حـوله ، حتى أضحت رغبته قانونا ، وثروته ، فيما تدور به الروايات المتناقلة ، تزيد على ثروة رئيسه · وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة ، ولكن الواقع الذى لا سبيل الى تجاهله انه كان يحيا حياة تفوق مرتبه ·

وقد بدا هذا الجو فى نظرى ساما يمرض النفس حتى صارت مشكلتى الدائمة هى كيف أستطيع أن أعيش فى هذا الجو دون أن تدركنى شروره ·

وضاقت نفسي بكل ذلك · وبينما أنا أفكر في همي اذ بأحد البيوت التجارية في بورباندر يكتب لأخي ليعرض عليه العرض التالي : « ان لنا أعمالا في جنوب أفريقية ومتجرنا فيه من أكبر المتاجر ، ولنا قضية كبيرة منظورة أمام القضاء هناك ندعي فيها بمبلغ ٤٠٫٠٠٠ جنيه · وقد ظلت هذه القضية قائمة فترة طويلة واستخدمنا من أجلها خيرة مكاتب الأعمال القضائية وخيرة المحامين · فلو انك أرسلت أخاك هناك لكان وجوده نافعا لنا وله ، اذ يتيح له توجيه مستشارينا القانونيين خيرا مما نستطيع نحن من هنا ، فضلا عما يجنيه من مشاهدة جزء جديد من العالم وانشاء صداقات جديدة »·

وسألتهم : « ما المدة التي تريدون أن تحصلوا فيها على خدماتي؟ وما هو أجري ؟ » ·

وكان جوابهم : « مدة لاتزيد على السنة ، وسندفع لك أجر السفر والعودة بالدرجة الأولى ، ثم ١٠٥ من الجنيهات بما فيها كل شيء » ·

ولم يكن معنى ذلك انني سأذهب هناك بوصفي محاميا بل ي موظفا من موظفي هذا البيت التجاري · على أنني كنت راغبا ـك الهند فقبلت العرض دون أخذ أو رد وشرعت أستعد للسفر الى جنوب أفريقية ·

٢٤ ـ وصولى الى جنوب أفريقية

دربان هى عاصمة ناتال ٠ فلما وصلت اليها كان عبد الله شيت فى استقبالى على الميناء ٠ وقد تبين لى عندما أخذت السفينـة تنقى مراسيها أن الهنود هناك لم يكونوا موضع احترام كبير ، بل لم يفتنى أن ألحظ نوعا من الترفع فى سلوك أولئك الذين كانت لهم معرفة بعبد الله شيت وفى معاملتهم له ٠ وحز كل ذلك فى نفسى ، وان كان عبد الله فيما يبدو قد اعتاد تلك المعاملة ٠ أما من كانوا ينظرون الى فقد كانوا يرمقوننى فى كثير من الفضول ، فقد كانت ملابسى تختلف عن ملابس سائر الهنود ، اذ كنت وقتئذ ألبس الفروك وأضع فوق رأسى عمامة على نحو ما يفعل أهل البنغال ٠

وأخذنى عبد الله شيت الى مقر الشركة وأدخلنى الى الحجرة التى خصصت لى ، وكانت تجاور مكتبه ٠ على أن عبد الله لم يستطع أن يفهمنى ، ولا أنا استطعت أن أفهمه ٠ لقد قرأ الأوراق التى حملنيها له أخوه من الهند فازداد حيرة وارتباكا ، كما لو كان أخوه قد بعث له بفيل أبيض ٠ وقد راعه منى أسـلوبى فى الملبس وطريقتى فى الحياة ورأى فى كل ذلك أسلوبا باهظ النفقات كأسلوب الأوروبيين ٠ يضاف الى ذلك انه لم يكن هناك عمل محدد يستطيع أن يعهد به الى ، فقد كانت قضيتهم منظورة أمام محاكم الترنسفال ولم يكن هناك ثمة ما يدعو الى ايفادى اليها على وجه السرعة ٠ ثم ما هو المـدى الذى يستطيع عنده أن يطمئن الى كفـايتى ونزاهتى ؟ فهو لن يكون فى بريتوريا ليراقبنى ، بينما المدعى عليهم يقيمون فيها ، ومن يدرى ، فلعلهم يستطيعون أن يؤثروا فى بوسائلهم المختلفـة ٠ ثم اذا كان

لا يستطيع أن يعهد الى بالأعمال المتصلة بتلك القضية فأى عمل آخر يمكن أن يعهد به الى ؟ مع ملاحظة أن أى عمل غير هذا يستطيع أى كاتب عادى أن يؤديه خيرا مما أؤديه · والكاتب فوق ذلك يمكن استجوابه ومؤاخذته ان هو أخطأ ، فهل كان يستطيع أن يؤاخذنى ان أنا أخطأت ؟ وما دام لايستطيع أن يعهد الى بعمل يتصل بهذه القضية فان معنى ذلك أن أبقى بدون عمل ·

ولم يكن عبد الله شيت بالرجل المتعلم ، ولكنه كان يحظى بذخيرة كبيرة من التجارب ، ويستمتع ببديهة حاضرة ، واستطاع أن يلتقط عن طريق المران العملى قدرا كافيا من اللغة الانجليزية يسمح له بالتحدث بها ، وهذا القدر ، على ضآلته ، كان يكفيه لمباشرة أعماله المختلفة ، سواء أكان يتعامل مع مديرى البنوك ، أم مع تجار من الأجانب ، أو كان يشرح قضيته لمستشاره القانونى · وكانت له فوق ذلك منزلة رفيعة فى نفوس الهنود ، كما كان متجره وقتئذ أكبر المتاجر الهندية فى جنوب أفريقية أو على الأقل من أكبرها ·

وقد صحبنى عبد الله شيت فى اليوم الثانى أو الثالث لوصولى ليرينى محكمة دربان · فلما كنا هناك عرفنى الى عدد من الناس ، ثم أجلسنى الى جوار وكيل شئونه القانونية ، واذا بالقاضى يحملق فى وجهى ، ثم يطلب الى أن أخلع عمامتى ، غير أنى رفضت ما دعانى اليه، وغادرت قاعة الجلسة ·

واذن فقد كتب على الكفاح هنا كذلك !

وكتبت للصحف أروى لها الحادث ، وأدافع عن لبس العمامة داخل الجلسة ، وتناولت الصحف هذا الموضوع بالبحث ، وتعددت كتاباتها عنه ، وان وصفتنى بأننى « زائر غير مرغوب فيه » · وهكذا اضفى على هذا الحادث ، ولما يمض على فى جنوب أفريقية الا أيام معدودات ، دعاية لم أكن أتوقعها ، وانقسم الناس حزبين ، منهم من يدافع عنى ، ومنهم من ينقد حماقتى · ولكن العمامة مع ذلك ظلت تلازمنى الى نهاية اقامتى فى جنوب أفريقية ·

٢٥ ــ الى بريتوريا

تسلم المتجر فى ناتال خطابا من محاميه فى بريتوريا يوصونه فيه بالاستعداد للقضية ، ويطلبون من عبد الله شيت أن يحضر اليها بنفسه ، أو يرسل اليها من ينوب عنه · وأعطـانى عبد الله شيت الخطاب وسألنى ان كنت أحب أن أسافر الى بريتوريا · وقلت له : « اننى لا أستطيع أن أقول شيئا فى ذلك الا بعد أن أفهم القضية منك· اننى وأنا عند هذه المرحلة لا أدرى ما يجب على أن أفعله هناك » · وطلب عبد الله شيت الى كتبته أن يشرحوا لى تفاصيل القضية ·

وغادرت دربان فى اليوم السابع أو الثامن من وصولى الى ناتال، بعد أن احتجزوا لى مكانا فى الدرجة الأولى بالقطار · وكانت العادة هناك أن يدفع الانسان خمسة شلنات اضافية نظير استئجار مقصورة للنوم ، وقد ألح على عبد الله شيت أن أحجز لنفسى مكانا للنوم ، ولكنى رفضت ذلك بدافع العناد والكبرياء ، ورغبة منى فى أن أقتصد خمسة شلنات · وعاد عبد الله يحذرنى وهو يقول : « استمع الى : هذا بلد يختلف عن الهند · ونحن بحمد الله عندنا من المـال الكفاية وأزيد من الكفاية ، فلا تقتر على نفسك فى شىء قد ترى نفسك فى حاجة اليه » ·

وشكرته على شعوره الطيب ورجوت منه ألا يقلق باله من أجلى·

ووصل بى القطار الى ماريتزبرج ، عاصمة ولاية ناتال ، فى الساعة التاسعة مساء ، وكانت العادة أن توزع الأسرة فى تلك المحطة·

وجاءني أحد فراشي السكة الحديد يسألني ان كنت أريد أن أحتجز سريرا ، فلما قلت له لا ! ان معي فراشي ، ذهب الى حال سبيله ٠ الا أن راكبا آخر دخـل المقصورة التي كنت فيها بعد ذلك ثم جعـل يحدق في ببصره ويتفرسني من قمة رأسي الى أخمص قدمي ٠ فلما وجدني « ملونا » خرج مستاء ثم عاد ومعه اثنان من موظفي السكـة الحديد ووقف الجميع ساكتين الى أن لحق بهم موظف ثالث ، فقال لي : « تعال معي ! فان مكانك في الدرجة الثالثة » ٠

ـ « ولكنني أحمل تذكرة للسفر بالدرجة الأولى » ٠

ـ « هذا لا يهم في شيء ٠ لقـد قلت لك يجب أن تذهب الى الدرجة الثالثة » ٠

ـ « وأنا أقول لك لقد سمح لي بالسفر في هذه المقصورة من دربان ، وأنا مصر على أن أبقى فيها » ٠

غير أن الموظف استمر في عناده ، ثم أخذ يهددني قائلا : « هذا لن يكون ٠ يجب أن تترك هذه المقصورة ، والا استدعيت البوليس ليخرجك منها عنوة » ٠

ـ « فلتفعل ما تريد ، فانني أرفض أن أخرج من هنا طائعا » ٠

وجاء شرطي فأمسك بيدي ثم دفعني خارج المقصـورة وألقى بحقائبي الى الرصيف ، ولكني رفضت أن أذهب الى الدرجة الثالثة كما أرادوا ، وانطلق القطار في طريقه حتى خرج من المحطة وأنا واقف مكاني أرقبه ٠

واتجهت الى حجرة الاستراحة فجلست فيهـا حاملا معي حقيبة

اليد • أما سائر حقائبى فقد تركتها حيث كانت بعد أن تعهدت بها ادارة المحطة •

كان الفصل فصل الشتاء ، والشتاء فى الأقاليم المرتفعة فى جنوب أفريقية شديد البرودة• ولما كانت ماريتزبرج شديدة الارتفاع، فقد كان بردها قارسا • ولم يكن معطفى معى ، فقد كنت تركته بين متاعى ، ولكنى فضلت أن أجلس حيث أنا ، وأن أظل أرتعد من شدة البرد ، على أن أطلبه فأهان مرة أخرى •

وأخذت أفكر فيما يجب على أن أفعله • هل أدافع عن حقوقى ثم أعود الى الهند على الفور ؟ أم أواصل سفرى الى بريتوريا دون أن أبالى بهذه الاهانة ، ولا أعود الى الهند حتى تنتهى القضية ؟ اننى لو هربت الى الهند قبل أن أتم التزاماتى لكان ذلك الجبن بعينه • أما التجربة القاسية التى تعرضت لها الآن فليست سوى مسألة عارضة ومظهر من مظاهر ذلك الداء الدفين الذى تولد فى عقول الناس بسبب التمييز العنصرى • وأما واجبى الحقيقى فهو العمل بقدر ما أستطيع على اقتلاع هذا الداء الدفين ، وأن أتحمل فى سبيل ذلك كل ما يعترضنى من صعاب •

ولهذا فقد قررت أن أركب القطار التالى الى بريتوريا •

وأرسلت فى الصباح برقية مطولة الى مدير عام السكة الحديد، كما أنبأت عبد الله شيث بما كان لى فتوجه من فوره لمقابلة المدير • وقد حاول هذا فى خلال حديثه معه أن يبرر سلوك موظفيه ، وان طمأنه بعد ذلك على أنه قد أرسل على أية حال تعليمات الى ناظر محطة ماريتزبرج يطلب اليه فيها أن يعمل على التأكد من وصولى الى حيث أريد •

وأبرق عبد الله من ناحيته الى التجار الهنود فى ماريتزبرج ، والى أصدقائه فى جهات أخرى ، برجوهم مقابلتى والاهتمام بأمرى ٠ وجاء التجار لاستقبالى فى المحطة وحاولوا جهـــدهم أن يسروا عنى فأخذوا يقصون على ما صادفهم من صعاب فى هذا الصدد ، ويؤكدون لى أن ما حدث لى انما هو أمر عادى فى حياتهم ،وأن الهنود الذين يسافرون بالدرجة الأولى أو الثانية ، يجب أن يتوقعوا كثـــيرا من المضايقات من موظفى السكة الحديد ومن الركاب البيض ٠

ومر النهار وأنا أستمع الى هذه القصص المخزية حتى وصـــل قطار المساء فركبته وكان لى فيه مكان محجوز ، وان كنت حرصت فى هذه المرة على شراء تذكرة لمقصورة النوم التى رفضت أن أحتجزها وأنا فى دربان ٠

وبلغ القطار مدينة تشارلستون فى الصباح ، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت خط حديدى يربط بين تشارلستون وجوهانسبرج ،فكان الركاب يسافرون اليها بالعربات التى تجرها الجياد ويبيتون ليلتهم فى الطريق فى مدينة ساندرتون ٠ وكنت أحمل معى تذكرة للسفر فى احدى هذه العربات ، وكانت التذكرة لا تزال صالحة للاستعمال ٠ رغم تخلفى فى محطة ماريتزبرج يوما كاملا ٠

ولكن مندوب الشركة التى تسير هذه العربات لم يكن يعوزه الا أوهى الأسباب لكى يحول بينى وبين ركوب العربة ، فزعم أولا أن تذكرتى قد أصبحت ملغاة ، وان كان السبب الحقيقى شيئا آخر غير هذا ، فقد كان عليه أن يجلس الركاب داخل العربة ، ولكن أما وقد كنت فى نظره واحدا من « الكولى » (ومعناها حمال ، وهو لقب يطلق فى جنوب أفريقية على الهنود على سبيل التحقير) فقد رأى ألا يسمح نى بالجلوس بين الركاب ، وأن يجلسنى بدلا من ذلك فى أحد المكانين

اللذين يقعان على جانبى السائق • وكان «الريس» ــ كما كان يطلق على الرجل الأبيض الذى يشرف على العربة ــ يجلس عادة فى أحــد هذين المكانين ، ولكنه فى هذه المرة جلس داخل العربة وأعطانى مكانه• لقد كنت أدرك أن ما فعله ينطوى على ظلم فاحش وعلى اهانة بليغة لى ، ولكنى فضلت أن أتغاضى عن ذلك ، فلم يكن لى سبيل الى اقحام نفسى داخل العربة بالقوة ، فضــلا عن أننى لو احتججت على هــذا العمل لانطلقت العربة من غيرى ، مما يترتب عليه ضياع يوم آخر ، ولا يعلم الا الله ماذا كان يحدث فى اليوم التالى • ولهذا ، فعلى الرغم مما كان يعتمل فى قرارة نفسى من غيظ مكبوت ، فقد آثرت سبيل الحكمة ، وجلست الى جانب السائق •

وفى حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلت بنا العربة الى بارديكوف ، وبينما نحن هناك رغب «الريس» فى الجلوس مكانى اذ كان يريد أن يدخن ، ولعله كان يريد الى جانب ذلك أن يستمتع بالهواء الطلق • فما كان منه الا أن أخذ من السائق قطعة قذرة من قماش الأكياس فوضعه على سلم العربة ، وقال يخاطبنى : « اجلس أنت هنا ، فانى أريد أن أجلس قريبا من السائق » • لقد كانت هذه اهانة لاقبل لى على احتمالها ، فقلت له وأنا أرتعد فرقا « بل أنت نفسك الذى أجلستنى هنا ، مع أن مكانى كان يجب أن يكون داخل العربة ، وقبلت الاهانة مع ذلك • والآن تريد منى أن أجلس تحت قدميك لأنك تريد أن تجلس فى الهواء الطلق وتدخن • اننى لن أفعل ما تطلب منى ، وان كنت مع ذلك مستعدا لأن أجلس داخل العربة »•

وبينما كنت أجاهد لكى تخرج تلك الكلمات هزيلة متثاقلة من بين شفتى ، اذ بالرجل يهجم على ويعمل فى ضربا ولطما ثم يمســك بذراعى ويحاول أن يجرنى جرا من مكانى • وتشبثت بالســياج النحاسى الذى يحيط بالمقعد الذى أجلس عليه ، وصممت على أن أظل

متشبثا به حتى ولــو انكسر معصمى دون ذلك · وجلس الركاب يشهدون هذا المنظر : الرجل وهو ينهال على سبا ويوسعنى ضربا ولكما ، ويحاول أن يجرنى من مكانى جرا ، وأنا وقد بقيت نابتا فى مكانى لا أتزحزح ، وهو القوى وأنا الضعيف الهزيل · وأخذت الشفقة بعضهم فصرخوا فى الرجل : « يا رجل ! دعه وشأنه ! لا تمسه بسوء! انه لا ذنب له · انه على حق · اذا كان لا يستطيع أن يجلس مكانه فليأت ليجلس معنا هنا » · وأجابهم الرجل : « لا ! هذا لن يكون » قالها وان كان بدا متهالكا متخاذلا بعد أن كف عن ضربى · وأخيرا رفع قبضته من حول ذراعى وهو يلعن ويتوعد ، ثم طلب الى السائس الذى يجلس فى الناحية الأخرى من السائق أن يجلس على سلم العربة ليخلى مكانه له ·

وعاد الركاب الى مقاعدهم داخل العربة، وانطلقت الصفارةايذانا لها بالسير · كان قلبى يدق دقات متواصلة ، فقد كنت بدأت أشك فيما اذا كنت سأصل الى المكان الذى أقصده حيا ، وكان الرجل لا يكف عن النظر الى بين الحين والحين بعين ملؤها الغضب وهو يقول: « احترس ! فسوف ترى ما أنا صـــانع بك عندما نصـــل الى ساندرتون » · وهكذا جلست فى مكانى صامتا لا أنطق بكلمة وأنا أدعو الله أن يمد الى يد العون ·

ووصلنا الى ساندرتون ، بعد أن غابت الشمس ، وحل الظلام ، فلما وقع بصرى على بعض الهنود تنفست الصعداء ، وما كدت أنزل من العربة حتى تقدم منى هؤلاء الأصدقاء ليقولوا : « جئنا لاستقبالك واصطحابك الى متجر عيسى شيت ، بعد أن تسلمنا برقيــة من دادا عبد الله » ، فلما وصلناه اجتمع صاحبه ومن يعملون معه من الكتبــة حولى · فلما رويت لهم ما كان من أمرى فى الطريق أســفوا لمــا سمعوه وأخذوا يقصون على تجاربهم المريرة لكى يسروا عنى ويخففوا من وطأة ما لقيت ·

وأردت أن أبلغ الأمر الى وكيل شركة العربات ، فكتبت له خطابا رويت له فيه كل ما حدث ، ولفت نظره الى تهديد رجله لى ، كما طلبت منه توكيدا بأن يعمل على اجلاسى مع سائر الركاب فى مقعد بداخل العربة عندما نستأنف سفرنا فى الصباح · وأجاب الوكيل على رسالتى بما معناه : « سيكون لدينا من ساندرتون عربة أكبر يتعهدها رجال غير أولئك ، ولن يكون الرجل الذى شكوته من بينهم ، وسيكون لك مقعد مع الركاب الآخرين » · وكان لهذه الرسالة أثرها فى تخفيف بعض همى ، اذ لم يكن فى نيتى بطبيعة الحال أن أتخذ أية اجراءات قانونية ضد الرجل الذى اعتدى على · وهكذا أسدل الستار على قصة هذا الاعتداء ·

وفى الصباح جاء رجل من قبل عيسى شيت ليصحبنى الى العربة ، وقد ظفرت بمقعد طيب بداخلها ، ووصلت جوهانسبرج سالما فى المساء ·

واذا كانت ساندرتون قرية صغيرة فان جوهانسبرج مدينة كبيرة · وكان عبد الله قد أبرق الى جوهانسبرج كذلك ، كما كان قد أعطانى قبل سفرى اسم متجر محمد قاسم قمر الدين وعنوانه فيها · غير أن الرجل الذى جاء ليستقبلنى عند موقف العربات ، نيابة عن هذا المتجر ، لم يتعرف على ، ومن ثم فقد قررت أن أذهب الى أحد الفنادق ، وكنت أعرف أسماء بعضها ، واكتريت عربة طلبت من سائقها أن يذهب بى الى فندق جراند ناسيونال ، فلما طلبت من مديره أن يعد لى حجرة نظر الى هنيهة ثم قال فى أدب جم ، وهو يهم بتوديعى الى الباب : « انى آسف ، فان جميع الحجرات مشغولة » ، فعدت أطلب الى سائق العربة أن يتجه بى الى متجر محمد قاسم قمر الدين فوجدت عبد الغنى شيت فى انتظارى هناك · وقد رحب بى ترحيبا حارا ، وضحك من أعماق قلبه لما سمع بما حدث لى فى الفندق وهو

يقول : « كيف خطر ببالك أن يكون نزولك فى أحد الفنادق هنا أمرا ممكنا ؟ » ·

وسألته : « لماذا ؟ »

قال : « ستعرف بعد أن تقيم بيننا أياما معدودات · وفى الحق انه لا أحد غيرنا يستطيع أن يعيش فى بلد كهذا ، فاننا فى سبيل جمع المال لا نبالى اذا أهنا » · ثم أخذ بعد ذلك يقص على قصة الهنود فى جنوب أفريقية وما يلقونه من عنت فيها ·

ثم استطرد يقول : « ان هذا البلد ليس لأمثالك · ان عليك أن تذهب الى بريتوريا غدا وستجد نفسك مضطرا الى السفر بالدرجة الثالثة ، فالأحوال فى الترنسفال أسوأ منها فى ناتال ، وتذاكر الدرجة الأولى والثانية لا تصرف فيها للهنود ألبتة » ·

وقلت له : « اننى أريد أن أسافر بالدرجة الأولى ، فاذا لم أستطع فسأكترى عربة الى بريتوريا ، وهى لا تزيد على مسيرة ٣٧ ميلا » ·

ولفت عبد الغنى شيت نظرى الى ما يستوجبه ذلك من زيادة فى النفقات وضياع للوقت ، ولكنه عاد فوافق على اقتراحى السفر بالدرجة الأولى · ومن ثم فقد أرسلت الى ناظر المحطة مذكرة قلت له فيها اننى محام وأسافر دائما بالدرجة الأولى ، وذكرت له حاجتى الى السفر الى بريتوريا فى أسرع وقت ، وقلت له ان وقتى لا يتسع لانتظار رده كتابة ، واننى لذلك سأتلقى جوابه على هذه المذكرة شفاها عندما أذهب الى المحطة ، واننى على أية حال أنتظر أن أتسلم تذكرة سفر بالدرجة الأولى · وكان لى هدف من قولى اننى « سأتلقى رده شفاها » · فلو أنه أعطى هذا الرد كتابة لكان جوابه بالنفى قطعا ،

يدفعه الى ذلك بصفة خاصة الصورة التى لابد أن تعلق فى ذهنه عن محام من « الكولى » . لذلك رأيت من الأوفق أن أتقدم اليه بنفسى فى زى انجليزى لا تشوبه شائبة ، وأن أتحدث اليه لعلى أستطيع اقناعه بصرف تذكرة بالدرجة الأولى . وهكذا ذهبت اليه فى بذلة الفروك وما يتبعها من رباط العنق الخاص ووضعت جنيها ذهبيا أمام شباك التذاكر وطلبت تذكرة بالدرجة الأولى .

وسألنى : « أأنت أرسلت الى هذه المذكرة ؟ »

قلت : « نعم ! وأكون شاكرا لك جميلك لو صرفت لى تذكرة بالدرجة الأولى ، اذ لا بد لى من الوصول الى بريتوريا اليوم » .

وابتسم ناظر المحطة ثم قال ، وقد أخذه الشعور بالشفقة :«اننى لست من أهل الترنسفال ، بل أنا من أصل هولاندى ، ولذلك فانى أقدر شعورك ، وأشاركك احساسك ، وأود مخلصا أن أصرف لك التذكرة التى تطلبها ، ولكن بشرط واحد ، هو ألا تورطنى فى شىء اذا طلب منك كمسارى القطار الانتقال الى الدرجة الثالثة . أقصد بذلك ألا تتخذ اجراءات قانونية ضد الشركة لو حدث ذلك . اننى أرجو لك سفرا سعيدا ، فانى أراك جنتلمانا بمعنى الكلمة » .

بهذه الكلمات على لسانه صرف ناظر المحطة التذكرة فشكرته وأعطيته التوكيدات اللازمة .

وكان عبد الله شيت قد جاء الى المحطة ليكون فى توديعى . وقد أدهشه هذا الحادث دهشة يخالطها السرور ، ولكنه حذرنى قائلا : « سأحمد الله اذا وصلت الى بريتوريا سالما ، ولكننى أخشى ألا يتركك الكمسارى تجلس فى هـــدوء ، وحتى اذا تركك ، فان الركاب لن يتركوك » .

وجلست فى مقعدى باحدى مقصورات الدرجة الأولى وتحرك بنا القطار وأنا جالس فى مكانى · وجاء الكمسارى ليفحص التذاكر فبدا عليه الغضب ، وأشار الى بأصبعه أن أذهب الى الدرجة الثالثة ، فلما أبرزت له تذكرة الدرجة الأولى كان رده : « هذا لا يهم · هيا الى الدرجة الثالثة » ·

ولم يكن معى فى المقصورة غير راكب واحد ، كان انجليزيا ، فأخذ يناقش الكمسارى الحساب · قال له : « ماذا تقصد من اقلاق هذا السيد ؟ ألا ترى أنه يحمل معه تذكرة بالدرجة الأولى ؟ اننى لا أمانع اطلاقا فى بقائه معى فى نفس المقصورة » ثم التفت الى يقول: « يجب أن تبقى مكانك وألا تدع شيئا يقلقك » ·

وتمتم الكمسارى يقول : « ما دمت تقبل على نفسك أن تسافر مع واحد من « الكولى » فماذا يعنينى ؟ » ·

ووصل القطار بى الى بريتوريا فى الساعة الثامنة مساء ·

٢٦ ــ أولى أيامى فى بريتوريا

فكرت عند وصولى الى محطة بريتوريا فى أن أنتظر حتى ينصرف جميع الركاب ويخف الضغط على جامع التذاكر الواقف عند مدخل المحطة فأعطيه تذكرتى ثم أسأله أن يدلنى على فندق متواضع ، أو أى مكان آخر من هذا القبيل ، أستطيع أن آوى اليه ، والا أمضيت ليلتى فى المحطة · وأعترف أننى خشيت أن أسأله حتى هذا السـؤال البسيط خوفا من الاهانة ·

وخلت المحطة من ركابها أخيرا فقدمت تذكرتى اليه ثم أخـذت أستفسر منه عمـا كنت أبغى ، وأجابنى فى أدب ، وان لم أتبين من اجابته ما يمكن أن يفيدنى كثيرا · وكان أحد الزنوج الامريكيين واقفا على مقربة منا فتدخل فى الحديث وقال يخاطبنى « انى أراك غريبا على المكان ولا أصدقاء لك فيه ، فان شئت أن تصحبنى أخذتك الى فندق صغير صاحبه أمريكى ولى به معرفة وثيقة وأعتقـد أنه لن يرفض استضافتك » ·

ومع أن الشك كان يراودنى فيما يقول ، فقد قبلت اقتراحـه شاكرا ، فصحبنى الى « فندق جونستون للعائلات » ، فلما كنا هناك انتحى بصاحبه جانبا ، وجعل يتحدث اليه · وقبل المستر جونستون أن يستضيفنى بفندقه تلك الليلة ، بشرط أن أتنـاول عشائى فى حجرتى ، ثم أضاف معتذرا : « أحب أن أؤكد لك أننى برىء من كل تفرقة بين الناس بسبب لونهم ، الا أن زبائنى جميعا من الأوروبيين ،

وأخشى ان أنا سمحت لك بتنـــاول عشائك في قاعة الطعـام ، أن ينفضوا عن الفندق » ٠

ورددت عليه اقول : « اشكرك حتى لمجرد استضافتي لليلتي ٠ انني ادرك بعض ظروف الحياة في هذا المكان ، وأفهم حرج موقفك ٠ ولا مانع عندى من ان تقدم لي العشاء في حجرتي ، وارجو ان أتمكن من ترتيب أموري في الغد » ٠

وقادني المستر جونستون الى حجرة للنوم ، حيث جلست أنتظر العشاء ، واستسلمت بحكم وحدتي الى التفكير العميق فيما كنت فيه٠

ولم يكن عدد نزلاء الفندق كبيرا ، ومن ثم فقد كنت أنتظر أن يأتيني النادل بعشائي قبل انقضاء وقت طويل ٠ أما ما حدث بالفعل فهو أن المستر جونستون كان هو الذى دخل علي وهو يقول : « لقد شعرت بالخجل وأنا أطلب اليك أن تتناول طعامك هنا ٠ ولهذا فقد تحدثت الى الضيوف الآخرين بشأنك وسألتهم ان كانوا يمانعون فى تناولك العشاء معهم فى قاعة الطعام ، فأبدوا جميعا موافقتهم عـــلى ذلك ، وقالوا انهم لا يمانعون فى بقائك بالفندق كما تشاء ٠ ولهذا فاني أرجو منك أن تأتى الى قاعة الطعـــام ان شئت وأن تبقى بيننا كما تريد » ٠

وشكرته مرة أخرى ، وذهبت الى قاعة الطعام ، فتناولت عشاء شهيا ٠

٢٧ ـ اتصالات بالمسيحية

في صباح اليوم التالى على وصـولى الى بريتوريا ذهبت لزيارة المستر ا· و· بيكر ، وكيل الشئون القضائية لمحل عبد الله شيت · وكان عبد الله قد زودنى ببعض المعلومات عنه · فلم يدهشنى ترحيبه بى ، فقد استقبلنى استقبالا كريما وجعـل يستفسر عن أحوالى · وشرحت له كل ما يتصـل بى ، فقال ، بعد أن اسـتمع الى فى اهتمام : « ليس لدينا عمل لك هنا كمحام مترافع ، فقد استخدمنا لهذا الغرض خيرة المحامين هنا · والقضية قضـية طويلة ومعقدة ، ولذلك فسوف أستعين بك الى الحد الضرورى للحصول على البيانات اللازمة · وسوف ييسر بقاؤك هنا بطبيعة الحال اتصـالى بموكلى ، فتأتينى جميع البيانات التى أطلبها منه عن طريقك ، وهذا ولا شك غنم كبير لى · اننى لم أحجز لك حتى الآن حجرة لسكنك وفضلت أن أنتظر حتى ألقـاك ، فالناس هنا شـديدو التعصب بسبب فارق اللون ، وليس من السهل أن أوفق الى مكان لمن على شاكلتك ، ولكننى أعرف امرأة فقيرة ، هى زوجة أحد الخبازين ، وأعتقد أنها لن تمانع فى اقامتك عندها · تعال معى نذهب اليها ! »

وأخذنى معه الى بيتها ، فلما ذهبنا اليه تحدث اليها على انفراد وقبلت أن تستضيفنى فى بيتها لقاء ٣٥ شلنا فى الأسبوع ·

وكان المستر بيكر الى جانب عمله فى الشئون القانونية واعظا غير محترف ، شديد التحمس لعمله ، وهو ما زال حيا الى هذا اليوم ينعم بثروة طيبة ، ويكرس حياته لأعمال التبشير بعـد أن تخلى عن

نشاطه القانونى ، وما زال يكاتبنى الى يومنا هذا ، ولكنه لا يكتب الا فى موضوع واحد ، هو التغنى بمحاسن المسيحية ، فهو يؤمن بأن من المستحيل على الانسان أن يجد السلام الدائم والسكينة الباقية الا اذا تقبل المسيح على أنه ابن الله الواحد ، وانه منقذ البشرية ومخلصها •

وقد حرص المستر بيكر ، فى أول مقابلة بينى وبينه ، على أن يستوثق من ديانتى فقلت له : « اننى هنـــدوسى مولدا ، وان كانت معرفتى بالهندوسية قليلة . وأقل منها معرفتى بغيرها من الأديان • بل الواقع أنى لا أعرف أين أنا ولا ما يجب أن أومن به • على أن فى نيتى أن أدرس ديانتى دراسة مستفيضة ، وكذلك غيرها من الديانات الأخرى » •

وقد انشرح صدر المستر بيكر لســـماع ذلك منى وأفضى الى يقول : « اننى أحد مديرى البعثـــة التبشيرية الرئيسية فى جنـــوب افريقية ، وقد بنيت كنيسة على نفقتى ، وأقوم بالوعظ فيها بصفة منتظمة ، كما أجتمع أنا وبعض الرفاق الذين يتعاونون معى فى هذا العمل كل يوم فى الساعة الواحدة لكى نصلى من أجـــل السلام ، ونسعى الى النور الربانى ، ويسرنى لو أنك حضرت اجتماعاتنا لكى أعرفك بزملائى الذين يسعدهم أن يقابلوك » • فشكرته على دعوته ، ووافقت على حضور صـــلاة الساعة الواحدة بانتظام بقـــدر ما فى استطاعتى •

وفى اليوم التالى ذهبت الى هذا الاجتماع فقدمنى الى الآنســة هاريس والآنسة جاب والمستر كوتس وغيرهم• أما الآنستان هاريس وجاب فقد كانتا عانسين • وأما المستر كوتس فقــد كان من أتباع مذهب الكويكرز • وكانت السيدتان تشتركان فى مسكن واحـــد فوجهتا الى دعوة مستديمة لتناول الشاى معهما ومـــع أصدقائهما فى الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم أحد بمنزلهما ، فكنت كلمــا اجتمعت بهـــذا الجمع أقدم للمستر كوتس بيانا بما فعلته خـــلال

الأسبوع فى النواحى الدينية وأتحدث معه فى الكتب التى قرأتها وأثر كل منها فى نفسى . فلما توثقت صلاتنا شرع يعطينى كتبا مما يختاره لى حتى ضاق رف كتبى بما عليه . وقد قرأت عددا كبيرا من هذه الكتب خلال عام ١٨٩٣ .

كان حب المستر كوتس لى حبا صادقا شديدا . رأى مرة حول عنقى عقدا مصنوعا من حبات التولاسى التى يلبسها اتباع مذهب فيشنافا فاعتبر ذلك خرافة وانطلق يقول لى : « ان هذا أمر لا يليق بك . دعنى أقطع هذا العقد ! » .

ومنعته وأنا أقول : « لا ! لن تفعل ذلك فهو هدية مقدسة من أمى » .

ـ « ولكن أتؤمن أنت به ؟ » .

ـ « اننى لا أعرف ما قد يكون لهذا العقد من مغزى غامض قد يخفى على . ومع أننى لا أعتقد بأننى سوف أتعرض للأذى ان أنا خلعته فاننى لا أستطيع ، من غير مبرر قوى ، أن أتخلى عن عقد وضعته أمى حول عنقى تعبيرا عن حبها لى وايمانا منها بأنه سيضاعف من سعادتى وهنائى . أما حين يتآكل بمضى الزمن ، أو ينقطع من تلقاء نفسه ، فلن تكون بى رغبة بعد ذلك فى أن أضع عقدا آخر مكانه . أما هذا العقد بالذات فلن أسمح بقطعه » .

ولم يقدر المستر كوتس حجتى لأنه كان لا يشعر بالعطف نحو دينى ، بل كان يتطلع الى خلاصى من جاهليتى ، فكان حريصا على أن يقنعنى بأنه لا نجاة لى الا اذا تقبلت الدين المسيحى ـ مهما كان للأديان الأخرى نصيب من الصحة ـ فهو الدين الذى يتمثل فيه الحق فى أجلى صوره ، وبأن خطاياى لن تغسل الا اذا كان المسيح شفيعى ، ولن يغنينى عن ذلك عمل مهما كان طيبا .

ولم أر سببا يحملني على تغيير عقيدتي ـ ديني الذى آمنت به. وقد كان من المستحيل على أن أسلم بأنني لن أدخـــل الجنة ، ولن يكون لى خلاص ، الا اذا اعتنقت المسيحية . فلما أطلعت أصدقائى المسيحيين على هذا الرأى صراحة استعاذوا اشفاقا على .

والواقع أن عقلى المدرك لم يكن مستعدا لأن يتقبل حرفيا الرأى الذى يقول بأن المسيح بموته وتضحيته قد افتــدى خطايا النـــاس جميعا ، وان كان من الجائز أن يكون لهذا الرأى نصيب من الصحة من الناحية المجازية . وتقـول المسيحية فوق ذلك ان الروح هى من خصائص الآدميين وحــــدهم دون سائر الكائنات الحية ، وان هـــذه الكائنات لا تلبث أن تتلاشى الى عدم بعد موتها ، بينا عقيدتى التى أدين بها تختلف اختلافا بينا عن ذلك . لقد كنت مستعدا لأن أتقبل المسيح على أنه شهيد تتمثل فيه روح التضحية والفداء ، وأنه معلم سماوى عظيم ، ولكنى لم أكن مستعدا لأن أتقبله على أنه أكمل من ولد من الرجال جميعا .

ولم يوح الى ما شهدته فى حيـــاة بعض المسيحيين من تقوى وورع بشىء لم توح به حياة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . فقد رأيت فى حياة الآخرين نفس الدعوة الى الاصلاح التى سمعتها من أفواه المسيحيين . وليس فى المسيحية من الناحية الفلسفية شىء غير عادى . أما ناحية الفداء فيها فقد بدا لى أن الهنـــدوس يفوقون المسيحيين فى ذلك .

واذا كنت قد عجزت عن تقبل المسيحية ، لا بوصفها دينا كاملا، ولا بوصفها خير دين أخرج للناس ، فقد كانت فكرتى عن الهندوسية لا تخرج عن ذلك ، اذ كانت عيوبها قد أخذت تزداد وضــوحا أمام عينى . فاذا كان نظام المنبوذين يمكن حقا أن يكون جزءا من الديانة

الهندوسية فهو اما جزء متعفن واما جزء دخيل عليها . أكثر من ذلك انني لا أرى ثمة ما يسوغ تعدد الطبقات الطائفية وتعدد المذاهب في الهندوسية . ثم ما معنى ما يقال من ان الفيدا هي كلام الله المنزل ؟

وقد دفعني ذلك الى أن أكتب الى رايتشاندبهاى خطابا أبثه فيه هذه الشكوك التي كانت تراودني كما كتبت الى بعض الهيئات الدينية في الهند ، وجاءتني ردودها ، فكان للرد الذى جاءني من رايتشاندبهاى أثر جميل في نفسي اذ بعث بعض الطمأنينة الى قلبي . فقد نصحني بالصبر وبدراسة الهندوسية دراسة أكثر عمقا واستفاضة ، وقال في احدى عباراته لي : « اني مؤمن ، وأنا أنظر نظرة منزهة الى هذا الموضوع ، انه ما من دين آخر فيه من كياسة الفكرة وعمقها ما للهندوسية ، أو له ما لها من روح الخير وتقدير الروح » .

وكما كان أصدقائي المسيحيون يحاولون أن يحملوني على اعتناق دينهم كذلك كان أصدقائي المسلمون يحاولون حملي على اعتناق الاسلام . فقد ظل عبد الله شيت يقنعني بدراسة الاسلام فاشتريت ترجمة للقرآن من عمل سيل وأخذت أقرؤها كما اشتريت كتبا أخرى عديدة عن الاسلام .

وعلى الرغم من انني سلكت طريقا آخر غير ما أراده لي أصدقائي المسيحيون فقد بقيت أشعر بما في عنقي من جميل لهم ، فقد أثاروا في نفسي شوقا الى البحث الديني ، وسأظل أحمل دائما ذكرى اتصالاتهم الجميلة .

٢٨ ـ بداية تعرفي بالمشكلة الهندية

كان للوجيه حاجى خان محمد فى بريتوريا نفس المكانة التى كانت لعبد الله فى ناتال . فلم تكن هناك مسألة من المسائل العامة الا وتزعمها . وقد تعرفت اليه فى الأسبوع الأول بعد وصولى ، وأطلعته على رغبتى فى الاتصال بكل هندى فى بريتوريا وشوقى الى دراسة أحوال الهنود فيها ، وطلبت منه أن يعاونني على ذلك فوافق عن طيب خاطر .

وكانت أول خطوة لى فى سبيل ذلك الدعوة الى اجتماع حضره جميع الهنود فى بريتوريا ، رسمت لهم فيه صورة مما يلاقيه الهنود من عنت فى الترنسفال ، واقترحت عليهم تأليف رابطة للسعى لدى السلطات المختصة الى ازالة الصعوبات التىتعترض الهنود ، وعرضت عليهم أن أضع تحت تصرفهم كل ما فى مكنتى من جهد ووقت . وقد تقرر على ما أذكر أن تتكرر هذه الاجتماعات مرة كل أسبوع ، أو لعلها كانت مرة كل شهر ، فكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة بانتظام فيتبادل الحاضرون الرأى ، حتى لم يعد فى بريتوريا هندى لم أعرفه أو حالة لم آكن ملما بها .

وقد اضطرنى ذلك الى التعرف علىالمندوب البريطانى لبريتوريا، المستر جاكوباس دى ويت . كان المستر دى ويت يعطف على الهنود ولكنه كان فى الوقت نفسه قليل الحيلة . وقد وافق على أية حال على مساعدتهم فى تحقيق مطالبهم بقدر ما فى استطاعته ودعانى لزيارته كلما أردت .

واتصلت بعد ذلك بالسلطات المشرفة على ادارة السكة الحديد فى بريتوريا وأوضحت لها موانع السفر التى تطبق على الهنود وليس لها ما يسوغها حتى بمقتضى لوائح السكك الحديدية التى وضعتها هذه السلطات نفسها ، فوصلنى منها رد تقول فيه ان تذاكر السفر بالدرجتين الأولى والثانية سوف تصرف للهنود اذا كانوا فى بزة لائقة . ولم يكن فى هذا الرد الترضية الكافية ، فقد ترك الأمر فى يد ناظر المحطة يقرر من من الهنود يرتدى « بزة لائقة » .

وهكذا هيأت لى اقامتى فى بريتوريا فرصة لدراسة أحوال الهنود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الترنسفال وفى ولاية أورانج الحرة دراسة عميقة مستفيضة . ولم أدر وقتها أن هذه الدراسة قدر لها أن تكون ذات فائدة كبرى لى فى مستقبلى ، فقد كنت فكرت فى العودة الى الهند فى نهاية العام ، أو حتى قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التى جئت من أجلها فى خلال السنة .

ولكن الله شاء أمرا آخر .

فقد نص القانون المعدل الذى صدر وقتها على أن يدفع جميع الهنود ضريبة على الرءوس قدرها ثلاثة جنيهات لكل فرد ، كرسم لدخول الترنسفال . ولم يكن للهنود فوق ذلك حق الملكية الا فى أماكن محددة خصصت لهم ، ولم تكن مع ذلك ملكية حرة خالصة . كذلك لم يكن لهم حق التصويت . كل هذا بمقتضى القانون الخاص بالآسيويين الذين لم يقف بهم الحرمان عند هذا الحد بل تعداه الى تطبيق القوانين الخاصة بالأجناس «الملونة»عليهم الى جانب ذلك كله.

فلم يكن للهنود بمقتضى قوانين الملونين الحق فى أن يمشوا فى الشوارع على الأفاريز أو يخرجوا من منازلهم بعد الساعة التاسعة

مساء الا باذن • وكنت كثيرا ما أخرج بالليـــل للتريض مع المستر كوتس ، وكنت نادرا ما أعود إلى بيتي قبل الساعة العاشرة ، فكان مما يزعجنا ويقلق بالنا فكرة احتمال القبض على بسبب ذلك • نعم ، فماذا يكون الأمر لو قبض على البوليس ؟ بل لقد كان المستر كوتس أشد قلقا على من نفسى • لقد كان يعطى جوازات مرور بعد الساعة التاسعة لخدمه من الزنوج ، ولكن أنى له أن يعطيني جوازا بذلك ؟ فالسيد وحده هو الذى يحق له أن يعطى مثل هذا الجواز لخادمه • ولذلك فلو اننى طلبت منه جوازا للمرور ، حتى على افتراض انه كان مستعدا لاعطائه ، لما استطاع أن يفعل ذلك ، لأن الأمر يكون فى هذه الحالة مما يدخل تحت باب الاحتيال •

وهكذا أخذنى المستر كوتس ، أو واحد من أصـــدقائه ، الى الدكتور كراوس ، نائب عام الولاية ، الذى اتضح لى عندما قابلته أنه ينتمى الى نفس رابطة المحامين بلندن التى أنتمى اليها • وقد أبت عليه نفسه أن يكون مثلى فى حاجة الى تصريح لكى يبقى خارج منزله بعد الساعة التاسعة ، ولذلك فبدلا من أن يصدر أمره بمنحى مثل هذا التصريح أعطانى خطابا يبيح لى البقاء فى الخارج فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل دون تدخل من البوليس ، فكنت أحتفظ بهذا الخطاب معى كلما خرجت • واذا كنت لم أجد نفسى يوما فى حاجة الى استعماله فما ذلك الا وليد الصدفة وحدها •

أما اللائحة الخاصة باستعمال أفاريز الشوارع فقد كانت لى بشأنها تجربة أشد وأنكى • فقد اعتدت كلما خرجت للتريض أن أتجه عبر « شارع الرئيس » ومنه الى سهل مكشوف على أطراف المدينة • وكان بيت الرئيس كروجر يقع فى ذلك الشارع ، وكان بيتا متواضعا الى أقصى حدود التواضع ، ليس فى مبانيه ما يلفت النظر ، وليست له حديقة ، ولا يميزه عن غيره من البيوت فى تلك المنطقة شىء •

ولم يكن هناك ما يدل على أن ذلك البيت هو بيت أحد كبار رجال الدولة غير وجود حارس من رجال البوليس أمامه ، فكنت دائما أسير على الافريز وأمر بالحارس دون عائق أو مانع ٠

غير أن الحارس كان يتغير من وقت لآخر حسب نوبة الحراسة٠ وقد حدث في احدى هذه المرات أن انقض على أحد هؤلاء الحراس وأنا أمر أمامه دون انذار سابق ، وحتى دون أن يطلب منى النزول من فوق الافريز ، فأوسعنى ركلا بقدمه وهو يدفعنى بعيدا عن الافريز ٠ وتولانى شعور باليأس والحسرة ، ولكنى قبل أن أجد وقتا لسؤاله عن سبب هذا الاعتداء سمعت المستر كوتس ينادينى ، وتصادف أن كان يمر بهذا المكان فوق حصانه ، وهو يقول :

« غاندى ! لقد رأيت كل شىء بعينى ، وأنا على أتم استعداد لأن أدلى بشهادتى أمام المحكمة اذا شئت أن تتخذ اجراء قانونيا ضد هذا الرجل ٠ انى آسف أشد الأسف على هذه الاهانة التى لحقتك » ٠

وقلت له : « لا تحمل هما ! فماذا يعرف هذا المسكين ؟ ان جميع الملونين واحد فى نظره ٠ انه لا شك يعامل الزنوج كما عاملنى بالضبط ، وقد وضعت لنفسى قاعدة هى ألا ألجأ الى القضاء فى أى اعتداء يقع على شخصى ولذا فانى لا أعتزم اتخاذ أى اجراء قبله » ٠

وقال المستر كوتس : « هكذا أنت دائما ٠ أرجوك أن تفكر فى الأمر مرة أخرى فان من واجبنا أن نلقن مثل هذا الرجل درسا لا ينساه » ٠ ثم اتجه الى الحارس يؤنبه على فعلته ٠ ولم أستطع أن أتتبع حديثهما فقد كان يجرى بينهما باللغة الهولندية بالنظر الى أن الحارس كان من البوير ، ولكنه اعتذر عقب الحديث عما فعل ، وما كانت به فى الواقع حاجة الى الاعتذار فقد كنت عفوت عنه ٠

ولكنى لم أعاود السير فى هذا الشارع مرة أخرى بعد ذلك ، فقد يكون هناك غيره من رجال البوليس فى نوبة من نوبات حراستهم ممن لم يسمعوا بما حدث فيفعلوا ما فعل . فلماذا اذن أجلب على نفسى اعتداء آخر فى غير موجب ؟ ومن ثم فقد اخترت لنفسى طريقا آخر .

وتبينت من كل هذا أن جنوب أفريقية ليس المكان الذى يليق بهندى يحترم نفسه ، وأخذت فكرة اصلاح هذه الحالة ووسيلة هذا الاصلاح تشغلنى شيئا فشيئا . ولكن المسألة العاجلة التى كانت تتطلب كل جهـدى وعنـايتى فى ذلك الوقت كانت قضية الأب عبد الله .

٢٩ ـ القضـــية

بان لى من دراسة وقائع قضية عبد الله أن الحق كان فى جانبه، وأن القانون لابد منتصف له . ولكنى رأيت فى الوقت نفســه أن التقاضى أمام المحكمة ، لو سار فى طريقه ، لا بد أن ينتهى بخراب الطرفين : المدعى والمدعى عليه ، وكلاهما قريب الآخر ومن نفس المدينة . وما كان أحد فوق ذلك يستطيع أن يتنبأ بالمــدة التى قد يستغرقها نظر القضية . وفكرت : أأترك القضية تسير فى مجراها الى أن يبت فيها أمام القضاء ، وقد تظل فى هذه الحالة الى ما لانهاية، دون أن يكون فى ذلك مصلحة لأحد الطرفين ؟ ان كلا الطرفين كان على العكس حريصا على الانتهاء منها على الفور ما أمكن .

واتصلت بطبيب شيت ورجوته أن يقبل التحكيم فيها ، واقترحت عليه أنه لو أمكن تعيين حكم يتمتع بثقة الطرفين فان القضية لا بد أن تنتهى فى وقت قصير . لقد كانت أتعاب المحامين تتزايد وتتراكم بسرعة حتى كان من الممكن أن تبتلع مواردهما على سعة هذه الموارد ، وهما التاجران الكبيران . أضف الى ذلك أن شئون هذه القضية قد شغلت عليهما بالهما فلم تدع لهما وقتا يفكران فيه فى شـــئون تجارتيهما ، فضلا عن أن بقاء القضية معلقة كان كفيلا بأن يزيد لهيب الحقد والكراهية بينهما .

وتملكنى التفكير بهذا الأسلوب حتى رأيتنى أشمئز من مهنتى . أليس على المحامى عن أى الطرفين أن يغوص فى أعمـــاق القضية ليستجمع جميع النقاط القانونية التى تؤيده فى دفاعه عن موكله ؟

وقد بدا لى كذلك ، للمرة الأولى ، أن الطرف الذى يكسب القضية لا يستعيد جميع نفقاته التى أنفقها • فالمحاكم عندما تقضى فى قضية بين طرفين تقدر أتعاب المحاماة وفق فئات معينة تحددها لوائحهـا ، على حين أن المصروفات التى يتكبدها كل منهما بينه وبين محاميـه أكثر من ذلك بكثير •

شعرت وقتها بأن ذلك كان أكثر مما يحتمل ضميرى ، وأن واجبى يقتضينى مصادقة كلا الطرفين والعمل على التقريب بينهما • وحاولت كل جهدى أن أصل الى اتفاق يرضى الطرفين • ووافق طيب شيت ، وتم الاتفاق على تعيين حكم عدل بينهما استطاع بعد استعراض وقائع الخلاف ومناقشة وجهة نظر كل من الطرفين أن يقضى فيها ، وجاء قضاؤه فى مصلحة عبد الله •

ولكنى لم أقنع بذلك • فلو أن موكلى أراد تنفيذ الحكم الذى قضى له به على الفور لاستحال على طيب شيت أن يدبر المبلغ المطلوب كله دفعة واحدة • ومن القوانين غير المكتوبة بين مسلمى بورباندر المقيمين فى جنوب أفريقية أنه خير للمرء أن يمـــوت على أن يوصم بالافلاس • ولما كان من المستحيل على طيب شيت أن يدفع المبلغ الذى حكم به عليه وقدره ٣٧٫٠٠٠ من الجنيهات ، عدا المصاريف ، عـلى الفور ، وقد أبت عليه كرامته أن ينقص من هذا المبلغ درهما ، وكان فى الوقت نفسه لا يريد أن يعلن افلاسه ، فلم يبق أمامه الا طريق واحد ينقذه من هذه الورطة ، وهو أن يقبل عبد الله أن يكون الدفع على أقساط معقولة ، فكان عبد الله كريما فيما طلبه منه طيب شيت وقبل أن يقسط المبلغ على أجل طويل •

وكانت مهمتى فى الحصول على مبدأ التقسيط أشق من مهمتى فى حمل الطرفين على الموافقة على مبدأ التحكيم ، وان كان كلا الطرفين

قد فرح بهذه التسوية فى آخر الأمر وارتفع قدره فى أعين الناس • أما فرحى أنا فلم يكن له حد ، فلقد تعلمت منذ ذلك الوقت فن المحاماة على وجهها الصحيح • تعلمت أن ألتمس فى الناس الجانب الطيب من طبيعتهم البشرية ، وأن أشق طريقى الى قلوبهم ، وأدركت أن واجب المحامى ، كما يجب أن يكون ، هو الجمع بين طرفين فرقت بينهما الخصومة • وانطبع هذا الدرس فى أعماق قلبى حتى أصبحت أكرس معظم وقتى بعد ذلك ، خلال السنوات العشرين التى زاولت فيها مهنة المحاماة ، وفى مئات من القضايا ، لكى أصل الى التقاء الطرفين المتخاصمين عند حل وسط بعيدا عن ساحة القضاء •

ولم أخسر من جراء ذلك شيئا • حتى المال لم أخسره • أما روحى فانى واثق من أننى احتفظت بها مبرأة من كل رجس أو دنس •

٣٠ ـ الانسان فى التفكير والله فى التدبير

أما وقد انتهت القضية الآن فلم يعد ما يستوجب بقائى فى بريتوريا ، ومن ثم فقد عدت الى دربان وأخذت أعد العدة للعودة الى الهند · ولكن عبد الله شيت لم يكن بالرجل الذى يدعنى أسافر دون تكريم فأقام حفلا لوداعى فى مدينة سيدنهام ·

وكانت الخطة الموضوعة تقضى بأن أمضى النهار كله فى تلك المدينة · وبينما أنا هناك أقلب صفحات بعض الجرائد وقع بصرى بطريق المصادفة البحتة على فقرة فى ركن من أركان صفحاتها تحت عنوان « حق التصويت للهنود » · كان الخبر يشير الى مشروع القانون المعروض يومئذ على المجلس التشريعى ، وينص على حرمان الهنود من حق التصويت فى انتخابات مجلس ناتال التشريعى · لقد كنت أجهل أمر هذا القانون من قبل وكذلك كان جميع الضيوف المجتمعين فى سيدنهام ·

وسألت عبد الله شيت فى ذلك فكان جوابه : « وما قدر فهمنا فى مثل هذه الأمور ؟ اننا لا نفهم من الأمور الا ما كان له صلة بأعمالنا التجارية » · ولما كنت على وشك العودة الى بلادى فقد ترددت فى ذكر ما كان يساورنى فى تلك اللحظة من المخاوف بشأن هذا القانون المقترح ، واكتفيت بأن أقول لعبد الله : « ان مشروع القانون هذا لو قدر له أن يصير قانونا فسيجعل حظنا فى الحياة عسيرا لا يحتمل · انه أول مسمار يدق فى نعشنا · انه يهدم احترامنا الذاتى من أساسه » ·

وكان بعض الضيوف ينصتون الى حديثنـــا باهتمام ، فقال أحدهم : « هل أدلك على ما يجب أن تفعله ؟ أن تلغى سفرك على هذه السفينة وأن تمكث بيننا شهرا آخر نجاهد فيه وفق الخطة التى تشير بها علينا » وانضم اليه جميع الحاضرين فى هذا الرأى ٠

ورسمت فى عقلى صورة عامة للحملة التى يجب شنها فى هذه المسألة ، وبعد أن استوثقت ممن كانت أسماؤهم واردة فى كشوف الانتخاب قررت أن أبقى شهرا آخر ٠

وهكذا حدد الله لى اتجاه حياتى فى جنوب أفريقية وغرس فى قلبى بذور الكفاح من أجل الكرامة والوطنية ٠

كان أول شىء فعلناه أن بعثنا ببرقية الى رئيس المجلس التشريعى نرجوه ارجاء بحث مشروع القانون المشار اليه ، وببرقية مماثلة لها الى رئيس الوزراء ٠

وانتهينا بعد ذلك من تدبيج الالتماس الذى اعتزمنا رفعه الى المجلس التشريعى بعد أن بذلت جهدا كبيرا فى اعداده وقرأت فى سبيل ذلك كل ما استطعت أن أصل اليه من الموسوعات التى تعالج هذا الموضوع ٠ وذيل الالتماس بعد كتابته بعشرة آلاف توقيع تم الحصول عليها فى أسبوعين اثنين ٠ ولم يكن الحصول على هذا العدد الضخم من التوقيعات ، من جميع أرجاء الولاية ، بالأمر الهـــين ، ولا سيما اذا ذكرنا أن أصحابها كانوا حديثى عهد بهذا النـــوع من الكفاح ، فكان علينا من أجل ذلك أن نختار متطوعين ممن تتوافر فيهم الكفاية لجمع هذه التوقيعات ، فقد كان من المتفق عليه ألا يوقع أحد على الالتماس الا اذا فهم فحواه ٠ زد على ذلك أن أهل القرى كانوا مبعثرين فى مسافات بعيدة مترامية ، فلم يكن فى الامكان الحصول

على تلك التوقيعات بالسرعة الواجبة الا اذا تولاه نفر من المتطوعين المتحمسين الذين يضعون كل قلبهم فى هذا العمل • وهو ما فعله من اضطلعوا بهذه المهمة •

ورفع الالتماس الى المجلس بعـــد ذلك ، كما طبعت منه ألف نسخة أخرى للتوزيع ، كان من اثرها اطلاع الرأى العام الهندى للمرة الأولى على حقيقة الأحوال فى ناتال ، كما أرسلت صور منها الى أمهات الجرائد التى أعرفها والى جميع المشتغلين بأمور الاعلان والدعاية •

وكتبت جريدة « تايمس أوف انديا » مقالا افتتاحيا أيدت فيه مطالب الهنود • كما كتبت جريدة « التايمس » اللندنية تؤازرها • وهكذا بدأ يراودنا الأمل بأن يكون مصير مشروع القانون المذكور الى الرفض •

ولم يعد فى استطاعتى بعد ذلك أن أغادر ناتال ، فقد أحاط بى أصدقائى الهنود من كل جانب وألحوا على فى البقـــاء بينهم بصفة دائمة • وهكذا استقر بى المقام فى ناتال •

٣١ ـ المؤتمر الهندى بناتال

لم يكن ارسال الالتماس بشأن حرمان الهنود من حق التصويت الى المجلس التشريعى كافيا وحده ، بل كان لا بد من أن نتبع ذلك بحركة دائبة يكون لوقعها صدى لدى وزير المستعمرات البريطانى . وقد رؤى لهذا الغرض انشاء منظمة دائمـــة . واستشرت في ذلك الوجيه عبد الله وغيره من الأصدقاء واتفق رأينا جميعا على تأليف هيئة عامة يكون لها طابع الدوام . وهكذا ظهر المؤتمر الهندى بناتال الى الوجود فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو .

وعلى الرغم من أن عضوية المؤتمر كانت تشـــمل من بين من تشملهم الهنود المولودين فى تلك المستعمرات ، وتشمل طبقة الكتاب كذلك ، فان العمال غير الفنيين ، أولئك الذين كان يؤتى بهم من الهند للعمل فى جنوب أفريقية لمدد معينة بمقتضى عقود ملزمة ، قد ظلوا بعيدين عنه . ذلك أن المؤتمر لم يكن مؤتمرهم بعـــد ، فقد كانت وسائلهم المادية أضعف من أن تمكنهم من دفع رسوم الاشتراك التى يقتضيها الانضمام الى عضويته . وما كان المؤتمر ليستطيع أن يجتذبهم اليه ، ويحملهم على الانضمام الى عضويته ، الا عن طريق خدمة يؤديها لهم . وسرعان ما سنحت الفرصة المواتية لأداء تلك الخدمة . فلم أكد أمارس المحاماة فى ناتال ثلاثة أو أربعة أشهر ، ولم يكد المؤتمر يحبو خلال الشهور الأولى من طفولته ، حتى جاءنا رجل تاميلى ، أغبر الوجه ، ممزق الملبس ، يحمل قلنسوته فى يده ، وقد انكسرت سنتان من أسنانه الأمامية وأخذ الدم ينزف من فمه . جاءنا يرتعد ويبكى بعد أن ضربه سيده ضربا مبرحا حتى أدماه . وقد عرفت كل شىء عن هذا

الزائر المسكين من كاتبى وهو تاميلى مثله . فقد كان بالاسوندرام — وهذا هو اسم البائس المسكين — يقضى مدة العمل التى يفرضها عليه عقد العمل فى خدمة أحد الأوروبيين المعروفين من المقيمين فى دربان . وقد غضب عليه سيده يوما وفقد رشده فأوغل فى ضربه حتى كسر سنتيه .

وبعثت به على الفور الى طبيب يفحصه ويضمد جراحه ، ولم يكن هناك فى تلك الأيام من الأطباء الا الأطباء البيض . وكنت فى الواقع أريد شهادة طبية من الطبيب عن نوع الاصابة التى لحقته ومداها . وحصلت على الشهادة المطلوبة وذهبت بها من فورى الى قاضى الأمور الجزئية ومعى المصاب وقدمت له بلاغا بما حدث ، فلما قرأه القاضى استشاط غضبا وأرسل فى طلب المخدوم .

كان القصاص من المخدوم على فعلته أبعد ما يكون عن رغبتى ، فقد كان كل ما يعنينى أن أعفى بالاسوندرام من العمل فى خدمته ، اذ كنت قد اطلعت على القانون الخاص بالعمل التعاقدى فوجدته ينص على أن الخادم العادى اذا ترك خدمة سيده دون انذار سابق كان عرضة لأن يقاضيه سيده أمام المحكمة المدنية . أما الخادم الذى يعمل فى ظل النظام التعاقدى فله شأن آخر ، فهو يتعرض فى تلك الحالة الى المحاكمة أمام محكمة الجنايات ، وقد ينتهى به الأمر الى السجن اذا ثبتت ادانته . ولعل هذا ما حدا بالسير وليم هنتر الى وصف نظام العمل التعاقدى بأنه نظام يكاد يصل فى مساوئه الى مرتبة الرق ، فالعامل الذى يعمل فى حدود هذا النظام ، شأنه فى ذلك شأن الرقيق تماما ، هو ملك لسيده .

ولم يكن أمام بالاسوندرام سوى طريقين اثنين لكى يعفى من خدمة سيده الذى اعتدى عليه ، فاما الحصول على موافقة « راعىالعمال

المتعاقدين » على الغاء عقده أو تحويل هذا العقد لمصلحة مخدوم آخر ، واما حمل مخدومه على اطـــلاق سراحه · ومن ثم فقـــد ذهبت الى مخدومه وقلت له : « اننى لا أريد أن أسير فى اجراءاتى القانونيـــة ضدك بغية القصاص منك ، ولا أخالك الا مدركا أنك قد ضربت هذا الرجل ضربا مبرحا ، ويكفينى أن تحول عقد خدمته الى شخص آخر غيرك » ، فوافق على هذا العرض فى غير تردد · ثم قابلت راعى العمال فوافق كذلك ، على شريطة أن أجد له مخدوما آخر غيره ·

وهكذا أصبح لزاما على أن أجد مخـــدوما لبالاسوندرام غير مخدومه الأول · وانطلقت أبحث عن هذا المخدوم الجديد· وكان لا بد أن يكون من الأوروبيين ، فمـا كان يحق للهنود أن يستخدموا عمالا تعاقديين · ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت من الأوروبيين الا عـددا محدودا · وقد قابلت أحدهم فأظهر استعدادا كريما وقبل أن يلحقه بخدمته · أما مخدومه الأول فقد أدانته المحكمة واكتفت بتسجيـل موافقته على نقل عقد العمل الى شخص آخر ·

ووصل حادث بالاسوندرام الى آذان كل هندى من العمال الذين يعملون تحت نير هذا النظام فشرعوا ينظرون الى على أننى صـديقهم المخلص ، ورحبت بهذه الصلة أيمـا ترحيب ، وأخذت أفواجهم تتدفق على مكتبى من كل حدب وصوب ، مما أتاح لى فرصة أتعرف فيها على آلامهم وآمالهم ، على مسراتهم ومآسيهم ·

٣٢ ـ ضريبة الجنيهات الثلاثة

فى حوالى سنة ١٨٦٠ ، أحس الاوروبيون ، بعـد أن تبين لهم وجود فرص كبيرة أمامهم لزراعة قصب السكر ، بافتقارهم الى الأيدى العاملة ، وبأن زراعة قصب السكر وصناعته لن تتأتيا الا بالاستعانة بعمال من الخارج ، اذ كان الزولو من أهل ناتال لا يصلحون لمثل هذا العمل • ومن ثم فقد اتصلت حكومة ناتال بحكومة الهند واستطاعت أن تظفر منها بتصريح يخول لها جلب العمال اللازمين ، فكـان على هؤلاء العمال أن يوقعوا تعهدا بالعمل فى ناتال خمس سنوات يكون لهم بعدها حق الاستقرار فيها والتمتع بحقوق ملكية الارض • هـذه هى سبيل الاغراء التى كانت تقدم لهؤلاء العمـــال لتشجيعهم على الهجرة •

على أن الهنود قد أعطوا ناتال أكثر مما كان يطلب منهم ، فقد ضاعفوا من زراعة الخضر فيها ، كما أدخلوا أنواعا جديدة منها مما يزرع فى الهند ، واستطاعوا فوق ذلك انتـاج الأنواع الوطنية منها بتكاليف أقل ، كذلك كان لهم الفضل فى ادخال زراعة المانجو فى ناتال • ولم تقف جهودهم عند حد الزراعة • فقد ولجوا كذلك أبواب التجارة واشتروا الأرض لاقامة المبانى عليها • وهكذا ارتقوا بأنفسهم من مرتبة الأجراء الى مرتبة الملاك من أصحاب البيوت والاراضى • وتبع هذا الرعيل الأول تجار آخرون جاءوا من الهند بعد ذلك واستقروا فى جنوب أفريقية بقصد الاتجار • وكان المغفور له الوجيـه أبو بكر آمود فى طليعة هؤلاء فنجح فى تكوين أعمال تجارية واسعة النطاق •

وانزعج التجار البيض لذلك • فهم حين رحبوا بالعمال الهنود فى أول الأمر لم يكن يدور بخلدهم أن تكون لهم هذه القدرة على ادارة

الأعمال التجارية · وقد يكون من السهل احتمالهم كمزارعين يشتغلون لحساب أنفسهم · أما أن ينافسوا البيض فى مجال التجارة ، فهو ما لا يمكن التغاضى عنه ·

ومن هنا بدأت بذور الكراهيـــة للهنود والحقد عليهم تنمــو وتترعرع ، وساعد على نموها عوامل أخرى مختلفة · فقد وجدت هذه الكراهية متنفسا لها فى التشريعات التى تهدف الى مضايقة الهنــود وعرقلة جهودهم ، منها مشروع القـــانون بحرمان الهنود من حـــق التصويت ، ومشروع القانون الآخر الذى ينص على فرض ضريبة على العمال الهنود الذين يعملون تحت نير نظام العقود · وهناك غير هذا وذاك نواح أخرى لا تتصل بالتشريع ، ولكنها كانت أشبه بوخز الابر ، ساعدت بدورها على تسميم الجو ·

فقد اقترح أولا ترحيل العمال الهنود بالقوة الى الهند قبل أن يحل أجل انتهاء عقود العمل التى يرتبطون بها · ولما كان من غــير المحتمل أن توافق حكومة الهند على هذا الاقتراح ، فقد اقترح اجراء آخر هذا مضمونه :

١ ــ أن يعود العامل الهندى الى بلاده على الفور بمجرد انتهاء مدة عقده أو

٢ ــ أن يوقع العامل الهندى عقدا جديدا كل سنتين ، على أن تعطى له علاوة فى كل حالة من حالات التجديد ·

٣ ــ اذا رفض العامل العودة الى الهند ، أو أبى تجديد عقد عمله ، فعليه أن يدفع ضريبـــة قدرهــا ٢٥ جنيها فى السنة ·

وأوفد السير هنرى بينز والمستر ميسون فى وفد الى الهنـــد ليحاولا الحصول على موافقة حكومتها على هذا الاقتراح · وكان نائب

الملك في الهند في ذلك الوقت هو اللورد الجين فاعترض على أن تكون الضريبة ٢٥ جنيها ووافق بدلا من ذلك على ضريبة على الرءوس قدرها ثلاثة جنيهات في السنة · واعتقدت وقتها ، ولا زلت أعتقد ، أن هذا العمل من جانب نائب الملك ينطوى على خطأ جسيم ، فان جبـــاية ضريبة سنوية تصل الى ١٢ جنيها من عائلة قوامها أربعة أشخاص ــ رجل وزوجته وطفلاهما ــ بينما متوسط دخل الزوج لا يزيد فى جميع الحالات على ١٤ شلنا فى الاسبوع ، كان عملا ظالما ، لا عهــد للناس به فى أى مكان آخر فى العالم ·

وأصبح لزاما علينا بعد ذلك ، أن ننظم حملة عنيفة لمقاومة تلك الضريبة · ومما لا شك فيه أن جماعة الهنود لو أنهــا لانت قناتها وتقاعست عن جهادها ، أو لو أن المؤتمر تخلى عن جهوده فى هــذا السبيل وقبل هذه الضريبة على أنها مسألة لا حيلة له فيها ، لظلت هذه الضريبة الكريهة تجبى من الأجراء الهنود الى يومنا هذا ، مع كل ما ينطوى عليه ذلك من معرة للهنود جميعا فى جنوب أفريقية وفى الهند على السواء ·

وكنت فى ذلك الوقت قد قضيت ثلاث سنوات فى جنوب افريقية عرفت خلالها الناس وعرفونى · وفى سنة ١٨٩٦ استأذنت زملائى فى السفر الى الهند لمدة ستة أشهر أعود بعدها اليهم ، بعد أن تبينت أن الظروف تقضى على بالاقامة فى جنوب أفريقية اقامة طويلة ، فقد كان لى فيه مكتب ناجح ، وكنت فوق ذلك أدرك أن الهنود المقيمين به كانوا يشعرون بحاجتهم الى وجودى بينهم · ومن ثم فقد قررت أن أرجع الى الهند ثم أعود ومعى زوجتى وأطفالى ·

٣٣ – في الهند مرة أخرى

ذهبت الى راجكوت عقب وصولى الى الهنـــد دون أن أتوقف فى بومباى ، وعكفت على الفور على وضع كتيب عن الموقف فى جنــوب أفريقية ، استغرقت كتابته وطبعه قرابة شهر • وكان لهذا الكتيب غلاف أخضر ، ومن ثم فقد صار يعرف باسم « الكتيب الأخضر » • وقد تعمدت فيه أن أرسم صورة مضغوطة عن أحوال الهنود فى جنوب أفريقية • وطبع من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة أرسل بعضها الى مختلف الصحف وزعماء الأحزاب السياسية المختلفة فى الهند ،فكانت جريدة « البيونير » (الطليعة) أول جريدة تعلق على ما جاء فيه فى مقال افتتاحى لها ، أبرقت وكالة أنباء رويتر ملخصا له الى انجلترا ، ثم أبرق مكتب رويتر فى لندن ملخصا لهذا الملخص الى ناتال لم يزد طوله على ثلاثة أسطر • وكان هذا الملخص صورة مصغرة ، وان كانت صورة مبالغا فيها ، للصورة التى كنت رسمتها فى كتيبى عن المعاملة التى يلقاها الهنود فى ناتال ، صورة صيغت فى عبارة غير عبــارتى • وسنرى فيما بعد ما كان لذلك من وقع فى ناتال • وفى الوقت نفسه أخذت كل جريدة من الجرائد التى يعتد بها تعلق فى اسهاب على هذا الموضوع •

ولم تكن مهمة ارسال نسخ من هذا الكتيب بالمهمة اليسيرة ، بل كان من الجائز الى جانب ذلك أن تكون عملية كثيرة التكاليف باهظـة النفقات لو أننى استعنت فى أدائها بمعاونين مأجورين يتولون عملية التغليف وما اليها من النواحى الضرورية الأخرى ، ولولا أننى اهتديت الى خطة تتسم بالبساطة بقدر ما كانت تمتاز بقلة المصروفات • ذلك

أنني جمعت أطفال الحي الذى أعيش فيه ، وطلبت اليهم أن يتطوعوا لمعاونتى ساعتين فى صباح يوم من الأيام حتى لايكون عليهم أن يذهبوا الى المدرسة • وقبل الأطفال ذلك عن طيب خاطر ووعدتهم فى نظير ذلك بأن أباركهم وبأن أعطيهم على سبيل المكافأة بعض طوابع البريد المستعملة التى كنت قد جمعت منها مجموعة كبيرة • وأتم الاطفال عملهم فى أسرع ما يمكن ، فكانت هذه أول تجربة لى فى استخدام الأطفال كمتطوعين ، وما زال اثنان من هؤلاء الأصدقاء الصغار يعملون معى الى هذا اليوم •

واذ كنت فى راجكوت أعمل على اعداد هذا الكتيب ، سنحت لى فرصة لزيارة بومباى زيارة خاطفة ، فلم أتردد فى الافادة منها ، فقد كان فى نيتى أن أعد الرأى العام فى المدن الهندية الكبرى وأستدر عطفه على الهنود فى جنوب أفريقية عن طريق اجتماعات عامة تعقد لهذا الغرض • فلما كنت فى بومباى بدأت أولا بمقابلة رانادى القاضى بمحكمة الاستئناف فاستمع الى باهتمام كبير ثم أشار على بمقابلة السير فيروز شاه ميهتا(*) فلما قابلته فى نهاية الأمر كانت تطغى على نفسى الهيبة من لقائه ، فقد كنت سمعت عن الألقاب الشعبية التى أضفتها عليه الجماهير وكنت أدرك أننى مقبل على المثول أمام « أسد بومباى » و « ملك الولاية غير المتوج » • ولكن لا « الأسد » ولا «الملك» أخافنى ، فقد لقينى كما يلقى الأب الكريم ابنه الكبير ، وأنصت الى وأنا أتحدث اليه ، ثم التفت الى وهو يقول : « غاندى : انى أعتقد أن من واجبى أن أساعدك ولابد لى من الدعوة الى اجتماع عام فى المدينة » •

(*) أحد كبار رجال الأعمال فى بومباى وكان على صلة وثيقة بمؤتمر الهند الوطنى ، بل كان له ضلع فى تكييف سياسته وتوجيهها وكان من السياسيين المعتدلين •

بهذه الكلمات اتجه السير فيروز شاه الى سكرتيره ، السيد منشى ، وطلب اليه تحديد موعد لهذا الاجتماع ، وحدد الموعد بالفعل، ثم استودعني الله وهو يحييني أطيب تحية ٠

وعقد الاجتماع فى قاعة معهد السير كواس جى جيهانجر ٠وكنت قد سمعت أن هذا المكان على سعته يغص بالحاضرين حتى لا يبقى مكان لقدم ، كلما كان المتحدث هو السير فيروز شاه ، ولا سيما من الطلبة المتشوقين الى سماعه ، فكان هذا الاجتماع أول تجربة لى من نوعها ٠ وقد أعجب السير فيروز شاه بخطابى الذى ألقيته فيه مما أسعدنى حقا ٠

وقد يسر السير فيروز شاه بذلك مهمتى فى الأيام المقبلة وفتح الطريق أمامى فى الجهات الأخرى التى ذهبت اليها ٠

وذهبت من بومباى الى بونا ٠ كان فيها حزبان ، ولكنى آثرت أن أظفر بمعاونة الناس جميعا على اختلاف ميولهم وآرائهم ٠ وقد ذهبت أولا لمقابلة لوكامانيا تيلاك(*) فقال لى :

« انك على حق فى التماس المعونة من جميع الأحزاب ، فلن يختلف الرأى فى موضوع جنوب افريقية ، ولكن الواجب يقضى كذلك بأن يرأس الاجتماع رجل غير حزبى ٠ ويجدر بك من أجل ذلك أن تقابل الاستاذ بهاندركار ، فقد ظل بمنأى عن جميع الحركات العامة فى المدة الأخيرة ، وقد يكون فى موضوعك ما يخرجه من عزلته ٠ قابله ثم دعنى أعرف ما يقوله لك ! اننى أريد معاونتك الى أقصى حد، وبالطبع فى استطاعتك مقابلتى فى أى وقت تشاء فأنا تحت تصرفك»٠

(*) سياسى متطرف عمل على اثارة الروح الوطنية فى صفوف العامة ٠

ثم قابلت جوكهال(*) بعد ذلك فاستقبلني استقبالا حافلا وأسر قلبي منذ اللحظة الأولى بأسلوبه وحديثه • كان هذا أول لقاء بيننا ، ومع ذلك ، فقد خيل الى وهو يحدثني أننا انما نستعيد صداقة قديمة كانت بيننا • لقد بدا السير فيروز شاه أمامي كالهيمالايا • أما لوكامانيا فقد كان أشبه بالمحيط • وأما جوكهال فكان كنهر الكنج • ففي هذا النهر المقدس يستطيع المرء أن يغتسل فتنتعش روحه • أما جبال الهيمالايا فهي تستعصى على كل من يريد أن يرتقيها • وأما المحيط فليس من السهل على المرء أن يعبره •

لقد أخذ جوكهال ، عندما التقينا ، يتفحصني عن كثب كما يتفحص المعلم تلميذا يريد أن يلتحق بالمدرسة ، فجعل يحدثني عمن يجب على أن أتصل به ، وكيف أتصل به ، وطلب أن يطلع على خطابي الذي أعددته ، وتجول بي في أنحاء الكلية ، ثم آكد لي أنه يضع نفسه تحت تصرفي ورجاني أن أطلعه على نتيجة مقابلتي للدكتور بهاندركار، وودعني وأنا أسعد ما أكون •

واستقبلني الدكتور بهاندركار استقبال الأب لابنه • لقد كان الوقت ظهرا عندما ذهبت لمقابلته فأعجب هذا العالم الكبير ، الذي لا يعرف الكلل الى نفسه سبيلا ، أن يراني وقد انهمكت في عملي الى حد مقابلة الناس في تلك الساعة من النهار ، كما كان لاصراري على ألا يرأس الاجتماع الا رجل غير حزبي صداه في نفسه فاستجاب الى رجائي على الفور •

(*) هو مؤسس « جماعة خدام الهند » وهو سياسي معتدل ، ووطني غيور ، وكان شديد الحدب على الفقراء •

وهكذا استطاع هذا الفريق من الرجال من أهل بونا ، أولئك الذين تنزهوا عن كل أنانية ، أن يعقدوا اجتماعا عاما في مكان متواضع في غير جلبة أو ضوضاء ، حتى تركتهم وأنا أكثر ايمانا بمهمتي .

وانتقلت بعد ذلك الى مدراس فوجدتها شعلة من الحماس ، اذ كان لحادث بالاسوندرام صداه فيها .ومع أن خطابي الذي ألقيته فيها كان في نظري طويلا بعض الطول ، فقد أنصتت الجماهير المحتشدة باهتمام الى كل كلمة من كلماته ، وما كاد ينتهي الاجتماع حتى تهافت الناس على اقتناء نسخ من الكتيب الأخضر ، وكنت قد طبعت منه عشرة آلاف نسخة أخرى ، فبيع منها عدد كبير .

ومن مدراس ذهبت الى كلكتا ، وبينما أنا هناك وصلتني برقية من دربان تقول : « سيفتتح البرلمان في يناير ، عد سريعا ! » .

وكان دادا عبد الله قد فرغ في ذلك الوقت من شراء الباخرة « كورلاند » فأصر على أن أسافر عليها أنا وعائلتي دون أن يتقاضى على ذلك أجرا . وقبلت شاكرا ، ثم أبحرت في شهر ديسمبر في طريقي الى جنوب افريقية للمرة الثانية ، ولكنني في هذه المرة كنت أصطحب معي زوجتي وولدي والابن الوحيد لأختي المترملة . وقد سافرت معنا في نفس الوقت سفينة أخرى اسمها « ناديري » كان وكلاؤها هم دادا عبد الله وشركاؤه كذلك . ولا بد أن عدد الركاب الذين حملتهم السفينتان كان يصل الى نحو ثمانمائة راكب ، نصفهم كانوا في طريقهم الى الترنسفال .

٣٤ ـ وصول عاصف الى جنوب افريقية

ألقت الباخرتان مراسيهما فى ميناء دربان فى يوم ١٨ ديسمبر ، أو حوالى ذلك التاريخ • وكان النظام فى موانىء جنوب افريقية يقضى بألا يسمح لأحد من الركاب بالنزول من السفينة الا بعد أن يفحص فحصا طبيا دقيقا ، فاذا تبين أن أحدا من ركابها مصاب بمرض من الأمراض المعدية ، احتجزت السفينة كلها فى الحجر الصحى فترة من الوقت • ولما كان مرض الطاعون متفشيا فى بومباى عندما أبحرنا ، فقد خشينا أن نتعرض لفترة قصيرة من الحجر الصحى • وبالفعل جاء الطبيب الى الباخرة ليفحص ركابها ثم أمر بوضعنا تحت الحجر لمدة خمسة أيام ، اذ كان من رأيه أن ميكروب الطاعون يبقى ثلاثة وعشرين يوما ، على أكثر تقدير ، قبل أن تظهر أعراضه • وهكذا صدر الأمر الى باخرتنا بالبقاء فى الحجر الصحى حتى اليوم الثالث والعشرين من يوم ابحارنا من بومباى • على أن هذا الأمر كان يخفى وراءه ما هو أكثر من الأسباب الصحية •

فقد كان السكان البيض فى دربان هائجين مائجين فى ذلك الوقت يطالبون باعادتنا الى الهند ، فكان هياجهم هذا أحد أسباب هذا الأمر • كانوا يعقدون الاجتماعات الحاشدة فيتهددون ويتوعدون ، بل لقد لجأوا الى محاولة استعمال سبل الاغراء مع شركة عبد الله وشركائه ، فعرضوا عليهم تعويض الشركة عن كل ما قد يصيبها من ضرر اذا عادت السفينتان بنا الى الهند • ولكن رجال الشركة لم يكونوا بالرجال الذين يخشون وعيدا ، أو يثنيهم اغراء • فقد صمم الوجيه عبد الكريم حاج آدم ، وكان فى ذلك

الوقت الشريك الذى يشرف على ادارة الشركة ، على ارساء السفينتين عند رصيف الميناء لينزل منهما الركاب مهما كلفه الأمر ٠

لقد تحولت دربان فى تلك الأيام الى مسرح لمبارزة عنيفة ، كان طرفاها غير متساويين ، فكان فى ناحية منه نفر من الهنـود الذين لا حول لهم ولا قوة يساندهم عدد محدود من أصدقائهم الانجليز ، بينا اصطف فى الناحية الأخرى منه جميع البيض ، أقوياء بكثرتهم ، أشداء بأسلحتهم وبثرواتهم وبحظهم من التعليم ، تظاهرهم الحكومة فى موقفهم ، وتشد من أزرهم ٠ نعم فلقد كانت حكومة ناتال تساعد البيض علنا ، بل لقد كان المستر هارى اسكومب ، وهو أشد أعضاء الوزارة فى ناتال بأسا وأقواهم نفوذا فى ذلك الوقت ، يشترك معهم فى اجتماعاتهم التى كانوا يعقدونها ٠

وبينا مسرح الحوادث فى دربان يعج بحركة لا تنقطع كنا فى سفينتنا ننظم الألعاب بغية تسلية الركاب ٠ عـلى أننى فى الوقت الذى كنت أشترك فيه فى هذه التسلية كان عقلى مشغولا بما يجرى فى دربان ، فقد كنت أدرك أننى الهدف المقصود من كل هذه الحركة، وأعلم أننى متهم بتهمتين : الأولى أننى ، وأنا فى الهند ، أطلقت لنفسى العنان للحط من شأن سكان ناتال البيض ، والثانية أننى ، رغبـة منى فى اغراق ناتال بالهنود ، قد تعمـدت أن أصطحب معى ملء سفينتين منهم ليستقروا فيها ٠

وفى الحق اننى كنت أشعر فى ذلك الوقت بما فى عنقى من مسئولية ٠ كنت أدرك أن المشرفين على شركة دادا عبد الله وشركائه قد خاطروا بأنفسهم وبشركتهم من أجلى ، وأن حياة الركاب كانت فى خطر ، وبأننى قد عرضت عائلتى للتهلكة باحضارها معى ٠

ولكننى كنت أعلم من ناحية أخرى أننى برىء من كل ما نسب الى، فأنا لم أحمل أحــدا على المجىء الى ناتال ، بل لم أكن أعرف الركاب عندما اســتقلوا السفينة ، واذا استثنينا قريبين اثنين من أقاربى ، كنت لا أعرف اسم واحد من المئات الذين جاءوا على ظهر السفينة أو أعرف عنوانه . زد على ذلك أننى لم تصدر منى وأنا فى الهند كلمة واحدة ضد البيض فى ناتال لم أكن قلتها فى ناتال نفسها من قبل ، بل كان عندى من الأدلة ما يكفى لتعزيز كل كلمة قلتها .

وطالت بنا الأيام بما تباطأت ونحن على ظهر السفينة .

وأخيرا سمح للسفينتين بدخول الميناء بعد انقضاء الأيام الثلاثة والعشرين المقررة ، وصدر الاذن للركاب بالنزول الى أرصفة الميناء .

غير أن المستر اسكومب كان قد أرسل الى قائد السفينة يخطره أنه بالنظر الى ما كان عليه السكان البيض من ثورة عارمة ضدى ، وبالنظر الى ما قد يتهدد حياتى من جراء ذلك ، فقد يكون من الخير أن أنتظر فى السفينة ، وألا أنزل منها الا تحت جنح الظلام ، فيتولى المستر تاتام ، قومندان الميناء ، حراستنا ، أنا وأسرتى ، حتى تصل الى بيتنا . وأوصل قائد السفينة هذه الرسالة الى فوافقت عليها . ثم لم يمض على ذلك نصف ساعة حتى كان المستر لوتون قد حضر ليقول لقائد السفينة : « أريد أن أصطحب المستر غاندى معى اذا لم يكن عنده مانع من ذلك ، وأنا بوصفى المستشار القانونى للشركة أقول لك انك غير ملزم بتنفيــذ الرسالة التى أبلغهــا لك المستر اسكومب » . وجاء قائد السفينة الى بعد ذلك ليقول لى ما معناه : « اذا لم تكن خائفا فانى أقترح عليك أن تذهب المسز غاندى والأطفال الى منزل رستم جى وأن نتبعهم ، أنا وأنت ، سيرا على الأقدام ، فانى لا أحب لك أن تدخل المدينة تحت ستار الليل كما يدخلها اللصوص،

بل اننى لا أعتقد بأن هناك خطرا حقيقيا من أن يعتدى عليك أحد ، فقد تفرق البيض وأصبح كل شيء هادئا فى المدينة » • وقبلت ما عرضه على شاكرا ، فذهبت زوجتى مع الأطفال الى منزل المستر رستم جى فى احدى العربات فبلغوه سالمين • أما أنا فقد نزلت من السفينة مع المستر لوتون ، بعد استئذان قائدها ، وكان منزل المستر رستم جى يقع على مسيرة ميلين من الميناء •

غير أننى ما كدت أهبط من السفينة حتى عرفنى بعض الصبيان فأخذوا يصيحون : « غاندى ! غاندى ! » ولم يلبث أن لحق بهم نحو ستة من الرجال يشاركونهم فى صياحهم • وخشى المستر لوتون أن يزداد عدد المتجمهرين فنادى على عربة يجرها رجل • ولم أكن فى يوم من الأيام أستعذب ركوب هذا النوع من العربات ، ولو قدر لى أن أركبها وقتئذ لكانت أول مرة فى حياتى ، ومع ذلك فقد حال الصبيان بينى وبين ركوبها وجعلوا يخيفون الرجل الذى يجرها ويطاردونه حتى انطلق يطلب النجاة لنفسه • وكنا كلما سرنا فى طريقنا ازداد عدد المتظاهرين حتى استحال علينا السير بعد ذلك • ولم يلبث المتظاهرون أن أمسكوا بالمستر لوتون فباعدوا بينه وبينى • فلما تم لهم ذلك ، أخذوا يرجموننى بالحجارة والبيض الفاسد ، ثم هجم على واحد منهم فخطف عمامتى ، بينا انهال على الآخرون ضربا وركلا حتى انتابنى شعور بالاغماء ، فأمسكت بدرابزين أحد البيوت حتى لا أقع على الأرض ، فازداد هياج الجماهير وصخبهم وأوغلوا فى الاعتداء على بأيديهم وأرجلهم • وتصادف أن كانت المسز الكسندر ، زوجة مدير البوليس ، تمر فى تلك اللحظة ، وكانت تعرفنى ، فأبت عليها مروءتها الا أن تتقدم لمساعدتى ، ففتحت مظلتها ، على الرغم من أن الشمس لم تكن فى السماء ، ووقفت بينى وبين الجماهير حتى استحال عليهم أن يتمادوا فى الاعتداء على دون أن يصيبوها بأذى •

وكان أحد الشبان الهنود الذين شهدوا الحادث ، قد جرى فى أثناء ذلك الى مركز البوليس يستنجده ، فأرسل مديره بعض رجاله لكى يحتاطوا بى ويخفرونى الى حيث أريد الذهاب • واستطعنا أخيرا أن نصل تحت حماية البوليس الى منزل المستر رستم جى ، دون أن يقع على اعتداء آخر ، وان كنت قد أصبت مع ذلك بكدمات ورضوض فى جميع أجزاء جسمى لم يلبث أن تعهدها الدكتـــور داديبارجوز طبيب السفينة ، وكان قد حضر الى المنزل ، بعنـــايته وقدم لى كل الاسعافات الطبية الممكنة •

كان السكون يخيم على منزل المستر رستم جى فى الداخل • أما فى الخارج فقد أحاطت به جموع البيض على الرغم من ظلام الليل وهم يصيحون : « لابد لنا من غاندى ! » • وجـــاء مدير البوليس يحاول أن يهدىء من صخبهم ، ولجأ الى الترغيب دون التهديد لكى يصرفهم عما كانوا فيه • ثم أرسل الى فى الخفاء رسالة يقول فيها : « اذا أردت أن تنقـــذ منزل صديقك وتنقذ حيـــاة عائلتك فعليك الهروب ، بعد أن تتخفى على النحو الذى أقترحه عليك » •

وعلى نحو ما اقترحه على مدير البوليس تنكرت فى زى شرطى هندى ووضعت فوق رأسى كوفية مدراسية ملفوفة حـــول طبق من المعدن لتقوم مقام الخوذة ، ثم صحبنى اثنان من المخبرين أحـــدهما يتخفى فى زى تاجر هندى ، بعد أن صبغ وجهه بطلاء يضفى عليـــه بشرة الهنود • أما الآخر فلا أذكر الآن كيف كان يتخفى ، حتى اذا وصلنا الى الباب الخلفى لمتجر قريب عن طريق حارة ضيقة أخـذنا نشق طريقنا عبر مخزنه ، وسط الأكياس المكدســة من البضائع ، حتى خرجنا من بابه العام ودخلنا الى عربة كانت تنتظرنا فى نهـــاية الشارع • وسارت بنا العربة حتى وصلنا الى مركز البوليس حيث

جاء المستر الكسندر بعد ذلك لاستقبالى فشكرت له ، كما شكرت للمخبرين اللذين اصطحباني ، حسن صنيعهم بي ٠

فبينما كنت أحاول الهرب من منزل المستر رستم جى وفق الخطة التى اقترحها المستر الكسندر كان هو يحاول ملاطفة الجماهير وصرفهم عن مطاردتى بترتيل هذه الانشودة :

اشنقوا غاندى العجوز ، اشنقوه !
فوق شجرة التفاح الحامض

حتى اذا بلغه أننى قد وصلت الى مركز البوليس سالما قال للجماهير المحتشدة : « لقد هربت فريستكم عن طريق حانوت قريب، وأولى بكم الآن أن تذهبوا الى بيوتكم » ٠ فلما سمع المتظاهرون ذلك منه غضب بعضهم ، وضحك بعضهم الآخر ، ورفض البعض أن يصدق ما سمع ٠

واستطرد قائد البوليس يقول : « اذا كنتم لا تصدقون ما أقول ، فما عليكم الا أن تنتدبوا واحدا أو اثنين من بينكم ليريا بنفسيهما ، وأنا مستعد لأن أدخل معهما الى المنزل ، فاذا عثرا على غاندى فيه فأنا كفيل بأن أسلمه اليهما وأنا جد مغتبط ٠ أما اذا لم يعثرا له على أثر فان عليكم أن تنصرفوا من هنا ، فأنا واثق من أنكم لا تبغون اتلاف منزل المستر رستم جى ، أو ايذاء زوجة المستر غاندى أو أطفاله » ٠

وأرسل المتجمهرون مندوبين عنهم الىالمنزل ليفتشاه ، فلم يلبثا أن عادا اليهم بالنبأ الذى خيب آمالهم ٠ وانفضوا أخيرا ٠ أما كثرتهم فكانت معجبة بحكمة مدير البوليس وحسن تصرفه ٠ وأما قلتهم فكانت حانقة غاضبة ٠

وقد أبرق المغفور له المستر تشمبرلين، وكان وزير المستعمرات

البريطاني في ذلك الوقت يطلب الى حكومة ناتال معاقبة المعتدين ، فأرسل المستر اسكومب في طلبى ، فلما ذهبت اليه أبدى أسفه على ما وقع على من اعتداء ، وما أصابنى من أذى • ثم قال : « صدقنى اننى لا يمكن أن يداخلنى أدنى شعور بالسعادة لأقل اذى يمكن أن يقع على شخصك •لقد كان من حقك أن تقبل مشورة المستر لوتون وأن تواجه بذلك أسوأ ما كان يمكن أن يحدث لك ، ولكنى واثق من أنك لو أوليت اقتراحى عليك بعض عنايتك لما وقعت هذه الحوادث المؤلمة • ومع هذا فاذا استطعت أن تتعرف على المعتدين عليك فانى مستعد للقبض عليهم ومحاكمتهم ، بل ان المستر تشمبرلين يريد منى ذلك » •

فكان ردى عليه : « اننى لا أريد محاكمة أحد • وقد يكون فى استطاعتى أن أتعرف على واحد أو اثنين منهم ، ولكن ما الفائدة من عقاب هؤلاء ؟ بل أكثر من ذلك اننى لا ألوم أولئك الذين اعتدوا على، فقد قيل لهم اننى أدليت وأنا فى الهنـد بتصريحات عن البيض فى ناتال تتسم بالمبالغة ، واننى اغتبتهم وأنا هناك، فاذا كانوا قد صدقوا ما ألقى فى روعهم فهم لا شك كانوا محنقين على • ان الزعماء ــ اذا سمحت لى بأن أقول ذلك ــ وأنت من بينهم ، هم الملومون عما حدث• فقد كان فى استطاعتكم أن توجهوهم توجيها خـيرا من ذلك • حتى أنت قد صدقت ما أبرقت به رويتر ، واعتقدت مثلهم أننى قد أطلقت لنفسى العنان فى مثل هذه المبالغات وأنا فى الهنـد • اننى لا أريد القصاص من أحــــد ، وأنا واثق من أنهم حين يعرفون الحقيقـــة سيشعرون بالحزن والأسف على ما صدر منهم » •

ورد المستر اسكومب يقول : « هل تسمح بأن تعطينى رأيك هذا كتابة ؟ اذ لابد لى من أن أبرق به الى المستر تشمبرلين • اننى لا أريد منك أن تتعجل فى ردك ، وقد تحب أن تستشير المستر لوتون وبعض أصدقائك قبل أن تصل الى قرار نهائى فى ذلك ، وان كنت

أعترف لك فى الوقت نفسه بأنك لو تنازلت عن حقك فى القصاص ممن اعتدوا عليك ، فسوف تساعدنى بذلك مساعدة قيمة على اعادة الهدوء والأمن ، فضلا عما يعود عليك من جراء ذلك من ارتفاع قيمتك فى أعين الناس » ٠

وقلت له : « أشكرك ، فلست فى حاجة الى استشارة أحد من الناس ٠٠ لقد كونت رأيى فى هذا الموضوع حتى قبل أن أحضر اليك ٠ ان رأيى الذى لا أحيد عنه هو أنه لا ينبغى محاكمة المعتدين . وأنا على استعداد لأن أسجل فى هذه اللحظة قرارى هذا كتابة » ٠

وما أن فرغت من كلمتى هذه حتى شرعت أكتب له اقرارا بذلك ٠

وكان مندوب جريدة « ناتال أوبزرفر » قد حضر لمقابلتى قبل نزولى من السفينة وقدم الى عددا من الأسئلة استطعت خلال ردى عليها أن أدحض كل فرية وجهت الى ، وكان من حسن حظى، والفضل فى ذلك للسير فيروز شاه ميهتا ، أننى لم ألق وأنا فى الهند من الخطب الا ما كان مكتوبا ٠ وكان معى عندما قابلنى مندوب الجريدة نسخ من تلك الخطب ومن كتاباتى الأخرى التى كنت قد بعثت بها الى الصحف المختلفة ، فأعطيت صورا من هذه وتلك للمندوب وأبنت له اننى لم أقل وأنا فى الهند شيئا لم أقله فى عبارة أشد وأنا فى جنوب افريقية ، كما أوضحت له اننى لا يد لى فى احضار هذا العدد من الركاب فى الباخرتين كورلاند وناردير الى جنوب افريقية ، بل ان عددا كبيرا منهم كان يقيم فيه من مدة وان أغلبهم لا يفكرون فى البقاء فى ناتال بل يعتزمون الذهاب الى الترنسفال ٠ وكانت الترنسفال تهيىء فى ذلك الوقت ظروفا خيرا مما كانت تهيئه ناتال بالنسبة لمن كانوا يسعون وراء جمع المال ، ومن ثم فقد كان معظم الهنود يفضلون الاقامة فيها ٠

وكان لهذه المقابلة الصحفية ولامتناعى عن محاكمة المعتدين أثر عميق فى النفوس الى حـــد أن شعر الأوروبيـون من سكان دربان بالخجل من سلوكهم الذى سلكوه ، كما أعلنت الصحف براءتى مما نسب الى وأظهرت سخطها عـــلى الرعاع الذين اعتدوا على • وهكذا انبت القصاص العرفى الذى كان المعتدون يريدونه لى انه كان نعمة وبركة على ، أو بعبـــارة أصح كان نعمة وبركة عـــلى القضية التى تبنيتها . فزاد من سمعة الجالية الهندية فى جنوب افريقية ويسر لهم سبل العمل فيه • ولم تمض ثلاثة أيام أو أربعة حتى كنت قد عدت الى بيتى وأخذت أستقر فى حياتى • على أن هذا الحادث قد ساعد على رواجى فى عملى فى ميدان المحاماة •

٣٥ ـ تربية الأطفال

لما نزلت من السفينة في دربان في ينـــاير عام ١٨٩٧ كان يصحبني ثلاثة أطفال ، ابن أختي ، وكان عمره وقتئذ عشر سنوات ، ثم ولداى ، وكان عمر أكبرهما تسع سنوات والثانى خمس • ومنذ ذلك الوقت والسؤال الذى كان يشغل بالى فى شأن مستقبلهم هو : أين أعلمهم ؟

لقد كنت أستطيع أن أبعث بهم الى مدارس الأطفال الخاصــة بالاوروبيين ، ولكن دخولهم تلك المدارس كان لا يتأتى الا على سبيل المنة والاستثناء ، اذ ما كان يتاح لأحد غـيرهم من أطفال الهنود أن يلتحقوا بها ، وانما كان هــؤلاء يذهبون الى مدارس أنشأتهـا لهم البعثات المسيحية • ولم أكن مستعدا فى الوقت نفسه لادخال أبنائى مدارس المبشرين ، فقد كنت لا أميل الى نوع التعليم الذى يعلم فيها ، فلغة التعليم فيهـــا كانت الانجليزية أو على أحسن الفروض اللغــة التاميلية أو الهندية المحرفة • أضف الى ذلك اننى لم أكن أستطيع أن أغمض عينى على بعض المساوىء الأخرى التى يتسم بها التعليم فى تلك المدارس • وقد كنت فى الوقت نفســه قد شرعت أحـاول أن أعلمهم بنفسى •

والحق اننى كنت فى حيرة من أمرى • لقد كرهت أن أبعث بهم الى الهند مرة أخرى ، فقـد كنت أومن ، حتى فى ذلك الوقت ، انه لا ينبغى لصغار الأطفـــال أن يفترقوا عن آبائهم ، فالتربيــة التى يتلقاها الطفل فى بيت سليم منظم لهى خير ممــا يمكن أن يناله فى بيت من بيوت الطلبة • لذلك آثرت أن أكفل أبنـــائى بنفسى وأن أبقيهم فى حضانتى •

وما كنت مع ذلك بمستطيع أن أكرس لهؤلاء الأطفال من الوقت ما كنت أحب أن أكرسه لهم · بل لقد حال عجزى عن أن أوجه اليهم العناية الكافية ، بالاضافة الى اعتبارات أخرى لم يكن لى سبيل الى تجنبها ، دون تربيتهم التربية الأدبية التى كنت أحبها لهم أو التى كانوا يحبونها لأنفسهم ، مما جعلهم يحسون بأثر ذلك طوال حياتهم، فكانوا كلما التقوا بأحد ممن يحملون درجة الماجستير أو البكالوريوس أو حتى ممن جازوا امتحـــان الماتريكيوليشن شعروا بقصـــورهم ، وأحسوا بما فاتهم من تعليم مدرسى · ومع ذلك فلست أظن ، وأنا أسترجع الماضى ، اننى أهملت فى أداء واجبى نحوهم ، ولست آسفا على أننى لم أدخلهم المدارس العامة ·

اننى مؤمن بأننى لو كنت أصررت عـلى أن يتلقوا تعليمهم فى احدى المدارس العامة لحرموا من ناحية تربوية ما كان لهم أن يظفروا بها الا فى مدرسة التجارب أو عن طريق اتصـــالهم بأبويهم · اننى أعرف اليوم عددا من الشباب كانوا معاصرين لأبنائى فى صغرهم ، ولست أظن أنهم ، اذا قيسوا الى أبنائى من حيث أشخاصهم ، يمكن أن يفضلوهم فى شىء أو أن أبنائى يعوزهم ما يمكنهم أن يلتمسوه عند هؤلاء ·

على أن النتيجة النهائية التى قد تسفر عنها هذه التجربة لا تزال فى عالم الغيب ، وكل ما أبتغيه من ذكر هذه التجربة الآن انما هـــو التيسير على المشتغلين بدراسة تاريخ الحضارة وتزويدهم بمقيـــاس يوازنون به بين التعليم البيتى المنظم وبين التعليم المدرسى وما للآباء من أثر فى تشكيل حيـــاة أطفالهم ، وأن أبين المدى الذى قد يذهب اليه من كان يريد لنفسه أن يكون لسان صدق ، ومدى ما يفرضه طلب الحرية على من كان ينشد الحرية من ضروب التضحية المختلفة·

فلو اننى كنت مجردا من الشعور بالاحترام الذاتى ورضيت بأن يتلقى أولادى تعليما لا يستطيع غيرهم من امثالهم أن يظفروا به لكنت حرمت أولادى من أن يتلقوا دروســـا عملية فى الحرية وفى احترام النفس على نحو ما نفننهم اياه بوسائلى الخاصة ، حتى وان كان ذلك على حســـاب تربيتهم الأدبية . وفى الحـــق لو أن الأمر استحال الى خيـــار بين الحرية وبين التعليم فمن ذا الـــذى لا يؤثر الحرية على التعليم ألف مرة ؟

ان الشباب الذين طلبت اليهم فيما بعد ، فى سنة ١٩٢٠ ، أن ينجوا بأنفسهم من قلاع الاستعباد ــ المدارس والكليات ــ ونصحتهم وقتها بأنه خير لهم أن يحفظوا لأنفسهم كرامتهـــا وأن يشتغلوا فى قطع الأحجار فى سبيل الحرية من أن يواصلوا تعليمهم وقد كبلت أيديهم بسلاسل الاستعباد ــ هذا الشباب يستطيع الآن أن يتتبع نصيحتى له الى منابعها الأولى .

٣٦ ـ بساطة فى الحياة

كانت قائمة حساب الكواء الذى يتولى غسل ملابسنا وكيها باهظة مرهقة ، ولم تكن المحافظة على المواعيد فوق ذلك احدى خصائصه ، حتى أضحى ما أملكه من قمصان وياقات ـ وكان عددها « دستتين » أو ثلاثا ـ لا يكاد يكفى لسد حاجتى ، فقد كان على أن أبدل ياقتى مرة كل يوم وان أبدل قميصى ان لم يكن مرة فى اليوم فلا أقل من مرة كل يومين . وكان معنى ذلك زيادة فى النفقات خلتها أمرا لا ضرورة له . ومن ثم فقد عمدت الى تزويد نفسى بمعدات الغسل والكى واشتريت كتيبا تعلمت منه هذا الفن ثم علمته بعد ذلك لزوجتى . صحيح ان مباشرة غسل ملابسنا وكيها فى البيت قد زاد من عبء العمل الذى يقع على كاهلى ولكن جدته جعلته مبعث سرور لى .

ولن أنسى أول ياقة من ياقاتى غسلتها بنفسى ، فقد استخدمت فى كيها من النشاء أكثر مما يجب ، ولم أحم المكواة الى القدر اللازم ، ولم أضغط عليها الضغط الواجب حتى لا تحترق ، وكانت النتيجة أن يبست الياقة الى الحد المعقول ولكن النشاء الزائد العالق بها ظل يتساقط منها . وذهبت الى المحكمة وقد ارتديتها فأثار ذلك سخرية اخوانى المحامين ، ولكنى ، حتى فى تلك الأيام ، كنت أتمتع بمناعة كبيرة ضد سخرية الناس فلا تنفذ الى نفسى .

وقلت لهم : « هذه أول تجربة لى فى كى ياقاتى وهذا سبب ما ترونه من النشاء السائب . ان الأمر لا يزعجنى فضلا عما هيأه لى كيها من تسلية » .

وقال صديق : « أرجو ألا يكون ذلك عن قلة فى عـــدد محال الغسيل والكى فى المدينة » .

وأجبته : « ان قائمة حساب الكى كبيرة مرهقة اذ تكاد تبلـغ تكاليف غسل الياقة وكيها ثمن شرائها . ثم هناك بعـــد كل ذلك اعتمادك على الكواء . اننى أفضل بكثير أن أتولى ذلك بنفسى » .

وبنفس الطريقة التى تحررت بها من رق الـكواء استطعت أن أتخلص كذلك من اعتمادى على الحلاق . ان كل من يذهب الى انجلترا يتعلم فن حلاقة ذقنه بنفسه ، ولكنى لا أعلم عن أحد تعلم فيهـا فن حلاقة شعر رأسه . ومع ذلك فقد كان على أن أتعلم ذلك الآن . فقد ذهبت مرة الى حـــلاق انجليزى فى بريتوريا فرفض باباء أن يقص شعرى . لقد شعرت وقتهـــا بالاهانة ولا شك ، ولـكنى ذهبت من فورى فاشتريت مجزا وأخذت أقص شعرى أمام المرآة . وقد نجحت الى حد ما فى قص الجزء الأمامى ، أما الجزء الخلفى فقـــد شوهته تشويها . فلما أبصرنى أصدقائى فى المحكمة على هذا الحال ضحكوا حتى كادوا يموتون من شدة الضحك .

ــ « ماذا دهى شعرك يا غاندى ؟ هل عبثت به الفيران ؟ » .

ــ « لا وانما الحلاق الأبيض أبى أن يتنـــازل فيلمس شعرى الأسود ، ولهذا فضلت أن أقصـــه بنفسى مهما شوهتـــه فى سبيل ذلك » .

ولم يدهش أصدقائى لهذا الرد .

والواقع أن الحلاق لم يكن مخطئا حين رفض أن يقص شعرى . فلو أنه خدم زبونا أســـود لفقد زبائنه البيض . اننا فى الهنـــد لا نسمح لحلاقينا بأن يقصوا شعر اخواننا « المنبوذين » ، وها أنذا قد نلت جزائى على ذلك وأنا فى جنوب افريقية ، لا مرة واحدة بل مرات ومرات . نعم لقد كان ايمانى بأن ما لقيته على يد هذا الحلاق انما هو جزاء وفاق على ما نقترفه نحن فى الهند سـببا فى أننى لم أثر ولم أغضب وقتها .

٣٧ ـ ذكرى وتوبة

تضافرت حوادث مختلفة ، وقعت لى فى حيـاتى ، على تقريب الصلات بينى وبين أناس من مختلف العقـائد والأجنـاس ، حتى ليحق لى من تجاربى معهم أن أقول انى لم أعرف التمييز بين قريب وغريب ، بين مواطن وأجنبى ، بين أبيض وأسود ، بين هنـدوس وهنود من أصـحاب المذاهب الأخرى ، سـواء أكانوا مسلمين أم مجوسا ، مسيحيين أم يهودا • بل انى لأذهب الى حـد القول بأن نفسى كانت تعجز عن مثل هـذا التمييز ، وان كنت لا أزعم لنفسى فضلا فى ذلك ، فقد كان الأمر مجرد جزء من طبيعتى •

من ذلك أن كتبة مكتبى ، حين كنت أمارس عملى فى المحاماة فى دربان ، كثيرا ما كانوا يجلسون معى • كان فيهم الهندوسى والمسيحى أو ، لو شـئنا أن نميزهم حسب مواطنهم فى الهنـد ، كان فيهم الجوجيراتى والتاميلى • ولست أذكر مرة واحدة أننى عاملتهم الا على أنهم أهلى وبنو جلدتى • بل لقد كنت أعاملهم على أنهم بعض أفراد أسرتى ، وأخـاصم زوجتى لو أنهـا حاولت أن تحول بينى وبين معاملتهم على هذا الوصف ، وكان أحدهم مسيحيا من أبوين ينتميان الى ما يسمونه طبقة « المنبوذين » •

كان بيتى مبنيا على الطراز الغربى ، فلم تكن فى حجراته منافذ لتصريف المـاء القذر ، ومن ثم فقد كان فى كل حجرة من حجراته وعاء خاص لهذا الغرض • فكنت أنا وزوجتى نتولى تنظيف أوعيتنا بنفسينا بدلا من أن نعهـد بذلك الى خادم أو كناس • وكان كتبة

مكتبي الذين نزلوا أهلا على بيتنا يعتبرون أنفسهم من أصحاب الدار فكان طبيعيا أن يقوموا هم كذلك بتنظيف أوعيتهم بأنفسهم · أما الكاتب المسيحي الذى أشرت اليه ، فقد كان حديث عهد بنا ، فكان من واجبنا أن نعنى بأمر حجرة نومه بأنفسنا · غير أن زوجتي استكثرت على نفسها أن تقوم بتنظيف وعاء من كان « منبوذا » ، فقد كان ذلك في نظرها أكثر مما يمكن أن تحتمل · وتشاجرنا أنا وهي· فقد كانت لا تقبل أن تراني أتولى تنظيف وعائه ، ولا هي في الوقت عينه تحب أن تتولى ذلك بنفسها · ولا زالت الى يومنا هذا أذكر منظرها وهي تؤنبني ، وقد احمرت عيناها من الغضب ، وتساقطت الدموع على خديها ، وهي تنزل السلم والوعاء في يدها · لقد كنت زوجا قاسيا ولكن في شفقة وحنان · كنت أعد نفسي معلمها ، فكنت أقسو عليها حبا مني فيها ·

ولم أقنع بأن أراها تحمل الوعاء لمجرد أن تطيع رغبتي · لقد كنت أريد أن أراها تفعل ذلك بنفس راضية · قلت لها وأنا أرفع صوتي : « اني لن أقبل مثل هذا العبث في بيتي » ·

ونفذت تلك الكلمات الى قلبها كما ينفذ السهم ·

وصرخت في تقول : « أبق عليك بيتك ودعني أخرج منه » · وأنساني الشيطان نفسي ، فنضب معين الرحمة من قلبي هنيهة ، وأمسكت بها من يدها وسحبت تلك المرأة المسكينة الى باب المنزل ، وكان يقع في مواجهة السلم ، ثم شرعت أفتحه وفي نيتي أن ألقى بها منه ، فكانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تقول : « ألا تخجل من نفسك ؟ هل لابد أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ والى أين أذهب ؟ اني لا أهل لي ولا أقارب هنا أذهب اليهم · أوتظن أن من واجبي أن أحتمل وكزك وركلك لا لشيء سوى أنني زوجتك ؟ أستحلفك أن

تكون خيرا من ذلك مسلكا • اقفل هذا الباب ولا تدع الناس يرونا ونحن على هذا الوضع المشين » •

وحاولت أن ألبس قناعا من الشجاعة ، وان كنت شعرت فى قرارة نفسى بخزى شـــــديد • وأقفلت الباب ، فاذا كانت زوجتى لا تستطيع أن تتركنى ، فقد كنت كذلك لا أستطيع أن أتركها • لقد كنا كثيرا ما نتشاجر ، ولكن شجارنا كان ينتهى دائما الى سلام ، وان كانت الزوجة ، بما تبديه من قدرة على الاحتمـــال ، هى التى تنتصر دائما •

اننى اليوم فى وضع يسمح لى بأن أقص هذا الحادث فى غـير تكلف أو تحفظ ، فهو ينتمى الى فترة قد ودعتها الى الأبد بعد أن لم أعد الزوج المفتتن بزوجته ، ولا البعل الذى نصب نفسه معلما لها • ان فى استطاعة كاستورباى اليوم أن تسىء الى بقـدر ما كنت أسىء اليهـــا فى تلك الأيام دون أن يؤثر ذلك فى علاقتنا شيئا ، فقـــد أصبحنا صديقين لا تفصم صداقتنا الأحداث ، ولا يعتبر أحدنا الآخر مثار شهوة جنسية له •

٣٨ ــ حرب البوير

لابد لى من اغفال عدد عديد من التجارب الأخرى التى وقعت لى ما بين سنتى ١٨٩٧ و١٨٩٩ ، وأن أتجه بقصتى الى حرب البوير مباشرة ·

وحسبى أن أقول هنا ان ولائى للحكم البريطانى دفعنى وقتئذ الى الاشتراك فى تلك الحرب فى صف الامبراطورية البريطانية · كان شعورى فى ذلك الوقت ، اننى اذا كنت أطالب بحقى كمواطن بريطانى فلا أقل من أن أشترك فى الدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، كما كان من رأيى يومئذ أن الهند لا تستطيع أن تحقق حريتها الكاملة الا اذا كان ذلك داخل نطاق الامبراطورية البريطانية· وهكذا جمعت من أمكننى أن أجمعهم من الرفاق ، واستطعت بعد عناء كبير أن أكفل قبول خدماتهم فى فرقة الاسعاف ·

لقد كان عامة الانجليز ، ينظرون الى الهندى على أنه جبان لا يقدر على مواجهة الأخطار أو التطلع الى ما وراء منفعته الشخصية العاجلة · ولذلك فقد جعل كثيرون من أصدقائى الانجليز يثبطون عزيمتى فيما كنت مقبلا عليه من الاشتراك بفرقتنا فى أعمال الاسعاف ، ما عدا الدكتور بوث(*) ، فقد شجعنى من كل قلبه على المضى فى خطتى ، وجعل يدربنا على أعمال الاسعاف والتضميد حتى حصلنا على الشهادات التى تثبت لياقتنا للقيام بهذه الخدمات · كذلك كان المستر لوتون ، والمغفور له المستر اسكومب من أشد المتحمسين فى تشجيعهم للخطة التى كنت أعتزمها ·

(*) أحد رجال البعثات فى جنوب افريقية ·

وتقدمنا أخيرا بطلب نلتمس فيه السماح لنا بأداء عملنا فى جبهة القتال · كان عدد فرقتنا يومئذ ١٠٠ر١ من المتطوعين ، من بينهم أربعون من ذوى الخئمة المسموعة بين أفراد الجالية الهندية ، وثلاثمائة من الهنود الأحرار · أما الباقون فقد كانوا من الهنود الذين يرتبطون بقيود العمل التعاقدى · ومع أن نشاطنا كان المفروض فيه أن يكون خارج نطاق خط النـــار ، وكنا فى أدائه نتمتع بحمـايه الصليب الأحمر ، فقد طلب الينا فى احدى مراحل الحرب أن نعمل بالقرب من جبهة القتال · ولم يكن هذا التحفظ الخـــاص بشروط خدمتنا وبجعل ميدان نشاطنا بعيدا عن خط النار من عملنـــا ، بل السلطات المسئولة نفسها هى التى لم ترد منا أن نخـــاطر بأنفسنا فوضعت تلك الشروط · غير أن الموقف تغير عندما صدت الجيوش البريطانية عند مدينة سبيون كوب ، اذ أرسل الجنرال بولر وقتها رسالة يقول فيها اننا وان كنا غير ملزمين بالمجازفة بأنفسنا عند خط النار ، فان الحكومة ستحمد لنا عملنا لو أتينا بالجرحى من ميدان القتال · ولم نتردد من جانبنا فى قبول هذه الدعوة ، فكان علينا أن نقطع مسافة تتراوح بين ٢٠ ، ٢٥ ميلا فى اليوم الواحد سـيرا على الأقدام حاملين الجرحى فوق النقالات ·

وأخيرا سرحت فرقتنا بعد أن عملت فى خدمة الاسعاف سـتة أسابيع ·

وقد لقى عملنا هذا ، على تواضع شأنه ، ترحيبا واستحسانا من كل جهة ، وارتفع مركز الهنود بسببه فى أعين النـــاس ارتفاعا كبيرا ، وأخذت الجرائد تنشر كلمات الاستحسان والاعجاب فى عبارة مسجوعة وهى تعلن فى النهاية «اننا على كل حال أبناء الامبراطورية» ، كما أشاد الجنرال بولر فى تقاريره العسكرية بجهودنا ، وأنعم على الزعماء فينا بميدالية الحرب ·

كذلك أضحت الجالية الهندية بعد هذه التجربة أكثر تنظيما ، وتوثقت صلاتي بالهنود الذين يعملون بمقتضى القيود التعاقدية ، وأخذ الجميع يشعرون شعورا صادقا بأن الهندوس والمسلمين والمسيحيين ، وبأن التاميلي والجوجيراتي والسندي ، كلهم اخوة من أم واحدة ·

وقد أصبح كل واحد منا بعد ذلك مؤمنا بأن أوضاع الهنود المهينة يجب أن تصحح · وكان مسلك البيض وقتها مشجعا على هذا الظن ، بعد أن تبدل مسلكهم بازاء الهنود عما كان عليه من قبل ، ونشأت بيننا وبينهم علاقات طيبة ، واختلطنا بالآلاف من جنودهم في جبهة القتال . ولقينا منهم جميعا ودا وتقديرا ·

بل لعل من واجبي أن أسجل في هذا المقام احدى ذكرياتي العطرة عن طبيعة الخير الكامنة في الانسان وكيف تتجلى في أحسن صورها في أوقات المحنة · فقد كنا نسير خلال الحرب ناحية معسكر شيفلي حيث كان الملازم روبرتس ، وهو ابن اللورد روبرتس ، قد أصابه جرح مميت ، وكان لفرقتنا شرف حمل جثمانه من ميدان القتال · كان اليوم يوما عبوسا قمطريرا ، وكنا جميعا في ظمأ شديد الى الماء ، ومررنا في طريقنا بعين ماء صغيرة نستطيع أن نروي منها بعض ظمأنا · ولكن من منا يا ترى كان الذي يشرب قبل أخيه ؟ لقد اقترحنا أن يكون دورنا في الشرب بعد أن يكون الجنود المحاربون قد أطفأوا ظمأهم · أما الجنود فقد أبوا الا أن نكون أول الشاربين · وهكذا دار بيننا نقاش جميل استغرق بعض الوقت عن أينا يسبق الآخر ·

٣٩ ـ اصلاحات صحية بين الهنود

كنت أكره دائما أن أتستر على سوءات مواطنى ، أو أطالب بحقوقهم الا اذا تطهروا منها • ومن ثم فقد ظللت ، منذ أن استقر بى المقام فى ناتال ، أعمل على ابرائهم من أدران وصمة التصقت بهم فكانوا كثيرا ما يعيرون بها • ولم تكن هذه الوصمة خالية من قدر من الصدق ، فقد شاع عنهم أن الهنود غير نظيفين فى عاداتهم ، قليلو العناية ببيوتهم ، عديمو الاكتراث بما يحيط بهم • على أن أعيان الجالية الهندية كانوا مع ذلك ، قد أخذوا يعنون بشئون بيوتهم ، ويرعون النواحى الصحية فى حياتهم •

ولم يحدث أن فتشت بيوت الهنود ، بيتا بيتا ، الا عندما جاءت التقارير تنبيء باحتمال تفشى الطاعون فى دربان • ومع ذلك فلم يجر هذا التفتيش الا بعد استئذان مشايخ المدينة وموافقتهم على ذلك ، بعد أن أبدوا رغبتهم فى تعاوننا معهم على مقاومة هذا الوباء ، فكان لتعاوننا معهم أثره الطيب ، اذ سهل عليهم عملهم بقدر ما قلل من حرجنا •

وبينما عملية التفتيش تجرى فى طريقها وقعت لى تجارب مريرة تبين لى منها أننى لم أكن أستطيع أن أعتمد على معاونة الجالية الهندية وأنا أحاول حملها على أداء واجبها نحو نفسها بالقدر الذى كنت أستطيع أن أعتمد عليها فيه وأنا أطالب بحقوقها • فقد كنت فى بعض هذه البيوت أقابل بالشتم والسباب ، وبفتور مهذب فى بعضها الآخر • فقد كان أصحابها يستكثرون علينا أن نطالبهم بأن يكلفوا

أنفسهم عناء تنظيف بيوتهم · أضف الى ذلك ناحيـــة النفقات التى تتطلبها العناية ببيوتهم . اذ أين لهم بالمـال الذى يقتضيه ذلك ؟

وقد علمتنى هذه التجربة الآن ، أكثر من أى وقت مضى . أنه لا سبيل لك الى حمل جماعات الناس على عمـل شىء تريده الا بكثير من الصبر والأناة · فالمصلح هو الذى يتحمس للاصلاح ، لا المجتمع الذى يراد اصلاحه · لذلك كان على المصلح ألا ينتظر ، وهـــو فى سبيل الدعوة الى الاصلاح ، غير المعارضة والكراهية ، والاضطهـــاد المميت فى بعض الأحيان ·

ولست أدرى وأيم الحق لم ينظر المجتمع الى دعوة الاصلاح على أنها رجوع به الوراء ؟

وأيا كان الأمر ، فقد كان لهذه التجربة أثرها فى حياة الجالية الهندية ، اذ علمتها ضرورة المحافظة على نظافة بيوتها ورعاية شئون بيئتها · أما أنا فقد خرجت من كل ذلك بمزيد من تقدير السلطات ، اذ أصبحت ترى أننى وان كنت قـــد كرست جهودى لرفـع مظالم الهنود والمطالبة بحقوقهم المهدرة ، لم أكن أقل تحمسا فى دعوتى الى تطهير أنفسنا من جميع الأدران والشوائب ·

٤٠ ـ هــدايا قيمة

أحسست بعد أن أعفيت من واجباتى فى حرب البــوير ، بأن مكانى الصحيح لم يعد فى جنوب افريقية بل هو فى الهند • فقــد كان أصدقائى فيها لا ينفكون يلحون على بالعودة الى الوطن ، وكنت من ناحيتى أحس كذلك بأننى أكون أكثر نفعا وأنا فى الهند • ومن ثم فقد رجوت زملائى فى الجهاد أن يعفونى من البقاء فى جنــوب افريقية فاستجابوا لرجائى بعد مشقة كبيرة ، وبشرط أن أتعهد لهم بالعودة مرة أخرى اذا أحست الجالية الهندية بأنها فى حاجة الى •

وعقدت الاجتماعات لتوديعى فى كل مكان وقدمت لى هـــدايا قيمة ، كان من بينها بطبيعة الحال أشياء من الذهب والفضـــة الى جانب بعض الحلى الثمينة من الماس •

ولكن بأى حق كان يمكن أن أتقبل مثل هذه الهدايا ؟ واذا أنا تقبلتها فكيف أستطيع أن أقنع نفسى بأننى كنت أخدم الطائفــة من غير مقابل ؟ فمما لا شك فيه أن جميع هــذه الهدايا ، باستثناء قلة قدمها لى بعض موكلى ، كانت من أجل ما قدمته للجالية الهندية من خدمات ، بل لم أستطع حتى أن أفرق فى ذلك بين موكلى وبين زميل فى الكفاح ، فقد كان موكلى من بين الزملاء الذين تعاونوا معى عــلى هذه الخدمات •

وكان من بين هذه الهدايا عقد من الذهب يساوى خمسين جنيها كان المفروض من اهدائه لى أن يكون من نصيب زوجتى ، ولكن حتى

هذا العقد لم يعط لها الا بسبب خدماتى للجالية ، واذن فما كان لى سبيل الى التفريق بين نظرتى الى هـــذا العقد ، ونظرتى الى سائر الهدايا ٠

وانتابنى أرق شـــديد طيلة الليلة التى قدم لى فيهـا القسط الأكبر من تلك الهدايا ، فجعلت أمشى فى حجرتى جيئة وذهابا ، وأنا قلق النفس سقيم الفؤاد ، أفكر فيما يجب على أن أفعله فلا أهتدى الى حل ٠ فقد كان من الصعب على أن أتنازل عن هدايا تبلغ قيمهـا بضع مئات من الجنيهات ، وكان أصعب منه أن أحتفظ بها ٠

وحتى لو استطعت أن أحتفظ بتلك الهدايا فماذا عساه يكون حال أولادى ، وحال زوجتى ؟ وهم الذين كانوا يعدون أنفسهم لحياة تقوم على خدمة الناس وترى فى العمل الطيب نفسه الجزاء الأوفى ٠

لقد كان بيتى خلوا من زخرف الحياة ، وكانت حياتنـا تزداد بساطة على بساطتها ٠ فكيف بنا الآن وقد أصبح لدينـا ساعات من الذهب ؟ كيف بنا اذا ازدانت صدورنا بسلاسل من الذهب وأصابعنا بخواتم من الماس ؟ لقد كنت ، حتى فى ذلك الوقت ، أدعو الناس الى التغلب على شهوة الحلى والجواهر ، فماذا عساى أفعل الآن بهـــذه الحلى والجواهر التى هبطت علينا ؟

واستقر رأيى فى النهاية على أننا لا يمكن أن نحتفظ بهـــذه الأشياء ، فجلست أكتب خطابا جعلت فيه تلك الهدايا وديعة تستثمر لصالح الجالية ، وأقمت رستم جى المجوسى وآخرين أوصياء عليها ٠

وكنت أعرف أننى لابد ملاق شيئا من الصعوبة فى اقنـــاع زوجتى ، بقـدر ما كنت واثقا من أننى لن ألقى معارضـة من جانب

أولادى . ولذلك فقد قررت بينى وبين نفسى أن أتخذ منهم عضدا لى فيما كنت مقبلا على عمله .

وقد وافقنى أولادى على فكرتى عن طيب خاطر وهم يقولون : « اننا لا حاجة لنا بهذه الهدايا الثمينة ، ويجب أن نعيدها الى الجالية . واذا احتجنا اليها يوما فيمكننا فى هذه الحالة أن نشتريها » .

وعدت أسألهم وقد امتلأ قلبى فرحا بما سمعته منهم : « اذن فأنتم ستعملون على اقناع أمكم ، أليس كذلك ؟ » .

وأجابوا : « بكل تأكيد ، بل هذا واجبنا ، فهى فى غير حاجة الى لبس هذه الحلى . نعم انها قد تحب أن تحتفظ بها لنا ، ولكن ما دمنا لا نريدها فلم لا توافق على النزول عنها ؟ » .

لكن ما أسهل الكلام ! وما أصعب العمل !

فقد قالت لى زوجتى عندما فاتحتها فى الأمر : « قد لا تكون أنت فى حاجة الى هذه الحلى . وقد يكون أولادك كذلك ، فانك لو ضربتهم لرقصوا على وقع الضربات التى تلهب بها ظهورهم . وقد أفهم أنك لا تسمح لى بأن أتحلى بهذه الحلى ، ولكن ما الشأن فى زوجات أولادى؟ فهن ولا شك سيحتجن اليها . ثم من ذا الذى يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث فى الغد ؟ اننى آخر من يتنازل عن هدايا وهبت لى بدافع من الحب » .

ثم ازداد نقاشها عنفا وحدة ، وأخذت تساند حجتها بالدموع . أما الأولاد فقد بقوا على رأيهم لا يتزحزحون عنه .

وقلت لها فى رفق : « ان الأولاد لم يتزوجوا بعد ، ونحن لا نحب لهم أن يتزوجوا وهم أحداث . أما حين يكبرون فانهم يستطيعون أن يعنوا بشئون أنفسهم . ثم نحن من غير شك لن نزوج أولادنا من زوجات يعشقن الحلى . ولنفرض بعد ذلك أنهن كن

يردن منا أن نعطيهن حليا فانني موجود، وما عليك الا أن تطلبي مني»·

وردت على تقول : « أطلب منك ؟ أظن أنني أعرفك جيدا الآن·
لقد حرمتني من حبيي ولم تدعني أنعم بها في سلام . ثم تصور أنك تعرض على الآن أن تشتري حليا لزوجات أولادك ! أنت يا من تريد أن تجعل من أطفالي نساكا وهم في هذه السن · لا ! ان الحلى لن ترد·
ثم دعني أسألك : أي حق لك في آن تتصرف في العقد وهو هدية لي؟»

وأجبتها : « وهل أعطى هذا العقد لك من أجل خدماتك ؟ أم من أجل خدماتي أنا ؟ » ·

وردت تقول : « هذا صحيح ، ولكن خدماتك ماهي الا خدماتي·
لقد أشقيت نفسي ليلا ونهارا حتى أنهكتها من أجلك ، أليست هذه كلها خدمات أديتها ؟ بل لقد فرضت على أصدقائك ومن كانوا حولك حتى كنت أبكي وأنا أكدح من أجلهم وأشقى كما يشقى العبيد » ·

كانت كلماتها قارسة قاطعة نفذت الى أعماق نفسي ، ولكنني ظللت مع ذلك مصمما على رد الحلى ، واستطعت في النهاية أن أستدرجها حتى ظفرت بموافقتها · وهكذا أعيدت الهدايا جميعها لتودع في أحد المصارف بناء على حجة ائتمان حررتها لهذا الغرض بغية استعمالها فيما يعود على الجالية بالخير وفق رغبتي أو رغبات الأوصياء ·

ولم أندم يوما على أنني اتخذت تلك الخطوة ، كما استطاعت زوجتي على مر الأيام أن تتبين الحكمة فيما فعلت · فقد أنقذتنا تلك الخطوة من كثير من عوامل الاغراء ·

ان رأيي الذى لا يداخلني فيه شك هو أن الرجل الذى يعمل في خدمة المجتمع لا يجوز له أن يتقبل الهدايا الثمينة ·

٤١ ـ أول مؤتمر أحضره

أمضيت بعد وصولى الى الهند بعض الوقت فى التنقل فى أنحاء البلاد • كان ذلك فى عام ١٩٠١ وهو العام الذى اجتمع فيه المؤتمر الهندى الوطنى فى كلكتا تحت رئاســـة المستر (فيما بعد السير) دينشو واتشا ، وكان طبيعيا أن أحضر ذلك المؤتمر ، فقد كان أول تجربة لى فى أعمال المؤتمرات •

وسألت أحـــد المتطوعين وأنا فى طريقى الى المؤتمر عن مكانى فأخذنى الى كلية ريبون حيث خصصت أماكن لاقامة بعض المندوبين• لقد كان هؤلاء المتطوعون متعارضين متضاربين فى ارشاداتهم • كنت تطلب الى أحدهم أن يفعل شيئا فيحيله على غيره ، ثم يحيله هـــذا بدوره الى شخص ثالث ، وهلم جرا • أما المندوبون فلم يكن قد حضر أحد منهم بعد •

وكان اهمال الشئون الصحية فى ذلك المكان بالغا حده •كانت المياه تطغى على الأرض فتحيلها الى مستنقعات • كانت دورات الميـاه محدودة العدد ، ولا تزال رائحتها الكريهة تزكم أنفى كلما ذكرتها • فلما لفت نظر المتطوعين الى ذلك أجابوا فى غير مداورة : « هذا ليس من عملنا ، بل هو عمل الـــكناس » ، فلم يسعنى الا أن أطلب من أحدهم أن يأتينى بمكنسة فحملق فى وجهى دهشا • وجئت بمكنسة ثم شرعت أنظف دورات المياه • غير أن الازدحام عليها كان شديدا ، بقدر ما كان عددها قليلا ، مما استوجب تنظيفها المرة تلو المرة فى اليوم الواحد ، فكان ذلك أكثر مما كنت أستطيع أداءه •

وكان لا يزال باقيا على انعقاد المؤتمر يومان ، وكنت فى الوقت عينه معتزما وضع جهودى فى خدمة مكتب المؤتمر حتى أكتسب بعض التجربة من وراء ذلك . كان بابو بهوبندرانات باسو وجوسـال يتوليان أعمال السكرتارية فذهبت الى أولهما أعرض عليه خدماتى فقال وهو يتطلع فى وجهى : « ليس عندى عمل لك ، ولعل لدى جوسال ما يستطيع أن يعهد به اليك . أرجوك أن تذهب اليه » .

وذهبت الى جوسال فأخذ يتفرس فى وجهى ويمحصنى ، ثم قال والابتسامة على وجهه : « أنا لا أستطيع أن أعطيك من العمل سوى ما كان متصلا بالشئون الكتابية فهل تقبل ؟ » .

وأجبت : « بكل تأكيد ، فاننى ما جئت الا لأعمل كل ما يطلب الى أداؤه ما دام ذلك فى حدود طاقتى » .

قال : « هذه روح طيبة ، أيها الشاب » ، ثم التفت الى المتطوعين الذين كانوا يحتاطون به وسألهم : « هل تسمعون ما يقوله هـذا الشاب ؟ » .

وعاد يلتفت الى وهو يقول : « هاك مجموعة من الخطابات لكى تتصرف فيها . خذ هذا الكرسى وابدأ فى مهمتك . ان مئات من الناس كما ترى يأتون لمقابلتى ، فماذا أصنع ؟ هل أقابلهم أم أضيع وقتى فى الرد على هؤلاء الفضوليين الذين تتساقط خطاباتهم على كالماء المنهمر ؟ ومع كل ذلك فليس عندى من الكتبة من أستطيع أن أعهد اليه بالرد على هذه الخطابات . ان معظمها ليس فيـه ما يستحق الذكر ، ولكنى أرجو أن تتصفحها كلها ، وأن تعترف بوصول ما يستحق منها أن يعترف بوصوله ، وأن تحيل على ما تراه فى حاجة الى ردى » .

وفرحت لهذه الثقة التى أودعها فى صاحبنا .

ولم يكن جوسال يعرفني حين عهد الى بهـــذا العمل ، فهو لم يسألني عن هويتي الا بعد ذلك ، فلما علم مني بعض قصتي أسف على أنه أعطاني هذا العمل الكتابي ، فقلت له مطمئنا: « أرجوك ألا تأسف على ذلك ، فمن أكون أنا في حضرتك ؟ لقد شابت نواصيك في خدمة المؤتمر ، ثم أنت بعد ذلك أكبر مني سنا · أما أنا فما زلت حدثا غير مجرب ، بل انك قد طوقتني بفضلك حين عهدت الى بما عهدت · ان كل ما كنت أبتغيه هو القيام بشيء يتصل بأعمال المؤتمر ، وأنت قد أتحت لي هذه الفرصة النادرة التي تهيىء لي فهم دقائق هذه الأعمال»·

وهكذا أصبحنا صديقين ·

ولم تمض الا أيام قلائل حتى كنت قد حذقت كل ما يتصـــل بأعمال المؤتمر ، وتمكنت من مقابلة معظم أعضائه ومراقبـة حركات الشخصيات البارزة التي كانت تجمع الى صلابتها قوة وبأسـا ، من أمثال جوكهال وسرندرانات ، وأدركت مبلغ ما يضــيع من الوقت سدى ، ولاحظت في حسرة شديدة المكانة البارزة التي كانت للغـة الانجليزية في نواحي حياتنا · نعم ، فان الاقتصاد في الوقت لم يكن من مميزات هذا المؤتمر ، اذ كان عمل الرجل الواحد يؤديه أكثر من رجل واحد بينا كثير من الأعمال الهامة لم يعن بها أحد على الاطلاق ·

على أنني ، على الرغم من هذه العين الناقدة التي كنت أنظر بها الى أعمال المؤتمر ، كنت اذا خلوت الى نفسي أجد في قلبي من روح الخير ما يكفي ليحملني عـلى أن أقول لنفسي لعلهم في مثل ظروفهم ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر ممـا فعلوا ، فعصمني ذلك من التقليل من قيمة أعمال الغير ·

وكان السير فيروز شاه قد وافق عـلى ادخال مشروع قرار لي بشأن جنوب افريقية ، ولكنني كنت أفكر فيمن يا ترى الذي سيتقدم

به الى لجنة الموضوعات ومتى يتقدم به · لقد كانت الخطب الضافية تلقى في مشروعات القرارات الأخرى ـ وكلها باللغة الانجليزية ـ اذ كان لكل منها زعيم يتبناه ويناصره · أما مشروع قرارى فلم يكن الا أرغولا صغيرا وسط طبول ضخمة · فلما جن الليل أخذت ضربات قلبى تتزايد · كان كـــل شخص فى عجلة يريد الخروج من قاعة اجتماع اللجنة بعد أن كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة · ولم أجد فى نفسى الشجاعة على أن أتكلم فانتقلت قريبا من الكرسى الذى كان يجلس عليه جوكهال ، وكان قد اطلع قبل ذلك عـــلى مشروع قرارى ، وهمست فى أذنه : « أرجوك أن تفعل شيئا من أجلى » ·

وسمع السير فيروز شاه ما قلت ، فرد على : « بل لقد فعلنا »·

وصاح جوكهال: « لا ! لا ! فما زال أمامنا مشروع يتعلق بجنوب افريقية ، وقد ظل المستر غاندى ينتظر طويلا » ·

وسأله السير فيروز شاه : « هل اطلعت على مشروع قراره ؟ »·

ـ « بالطبع » ·

ـ « هل أعجبك ؟ » ·

ـ « لا بأس به » ·

ـ « اذن تقدم به يا غاندى ما دام الأمر كذلك ! » ·

وتلوته وأنا أرتعد ·

وسانده جوكهال ·

وصرخ الجميع : « موافقون بالاجماع » ·

وقال واتشا : « ستكون أمامك خمس دقائق تتحدث فيها عن مشروع قرارك أمام المؤتمر » ·

ولم يعجبنى هذا الاجراء ، فلم أجد واحدا يريد أن يتعب نفسه الى حد فهم مشروع قرارى · كان كل واحد فى عجلة يريد أن يغادر المكان ، قانعا بالموافقة عليه ما دام جوكهال قد اطلع عليه وأقره ·

وطلع الصباح فألفانى فى حيرة مما عساى أن أقوله فى خطابى أمام المؤتمر ، اذ ماذا أستطيع أن أقول فى خمس دقائق ؟ فلما وقفت لكى أتحدث ، وكنت قد أعددت نفسى لتلك المناسبة اعـدادا وافيا ، رفضت الكلمات أن تخرج من بين شفتى الا بصعوبة · واستطعت أن أقرأ المشروع فى النهاية كيفما كان · وكان أحـــد الناس قد طبع ووزع على الحاضرين نسخا من قصيدة كتبها يحبذ فيها الهجرة الى الخارج · وقرأت القصيدة على الحاضرين منوها بما يلقاه المستوطنون فى جنـــوب افريقية من عنت وظلم ، واذا بالمستر واتشــا فى تلك اللحظة بالذات يدق جرسه · لقد كنت واثقا من أننى لم أســتنفد دقائقى الخمسة ولم أدرك وقتها أن دق الجرس كان معناه أنه لا يزال باقيا أمامى من الوقت دقيقتان · لقد شاهدت غيرى من قبل يتحدثون فى افاضة نصف الساعة وثلاثة أرباع الساعة ، ولم يدق لهم جرس· والحق اننى شعرت وقتها بأن احساسى قد جرح فجلست بمجرد أن سمعت الجرس يدق ·

بل لم يسأل المؤتمرون عن رأيهم فى مشروع القرار ، فلم يكن فى تلك الأيام ثمة ما يميز المؤتمرين عن المتفرجين · كان كل واحد من الفريقين يرفع يده فتمر المشروعات بالاجماع · وكذلك كان الشأن فى مشروع قرارى · وهكذا فقد هذا المشروع أهميته بالنسبة لى ·

ومع ذلك فان مجرد موافقة المؤتمر عليه كان فى حد ذاته حدثا كافيا لأن يثلج صدرى ، فقد كان شعور المؤتمر من شـعور الأمة ، وحسبى أننى ظفرت بقرار من مؤتمر هذا شأنه ·

٤٢ ــ فى بومبـــاى

كان جوكهال حريصا على أن أستقر فى بومباى ، وأن أزاول عملى فيها فى ميدان المحاماة ، وأن أساعده فى أعماله العامة خلال ذلك ٠ وهو حين يتحدث عن الأعمال العامة ، كان يقصد بهـــا كل ما كان متصلا بأعمال المؤتمر الوطنى ٠ وراقتنى فكرته ، وان لم أكن شديد الثقة بنجاحى فى المحاماة ، فقد كانت ذكريات الماضى المريرة ماثلة أمام عينى ، ومن ثم فقد رأيت أن أزاول عملى فى ميدان المحاماة فى راجكوت أولا ٠

وكنت أفكر فى البقاء فى راجكوت مدة أطول حين جاءنى كيوالرام دافى يقول لى : « اسمع يا غاندى ! نحن لن نسمح لك بأن تتعفن هنا ٠ يجب أن تذهب الى بومباى وأن تستقر فيها ٠ انك ولا شك ميسر للأعمال العـــامة ، ونحن لن نسمح لك بأن تدفن نفسك فى كاثياواد ٠ خبرنى اذن : متى تذهب الى بومباى ؟ » ٠

قلت له : « اننى فى انتظار تحويل مالى من ناتال وسأذهب اليها بمجرد أن يصلنى هذا التحويل » ٠ وجاء التحويل بعد أسبوعين ذهبت بعدهما الى بومباى ٠ وقد صاحبنى فيها كثير من التوفيق فى مهنتى ، أكثر مما كنت مقدرا ، فكنت أكسب من عملى ما يكفى لسد حاجاتى ٠

غير أنه فى اللحظة التى بدت فيها الأمور كما لو كانت أوشكت على الاستقرار على نحو ما كنت أهوى ، اذا ببرقية تصلنى من جنوب

افريقية على غير انتظار تقول : « ينتظر وصول تشمبرلين هنا . نرجو عودتك فورا » .

وتذكرت عهدى الذى قطعته لمواطنى هنـــاك ، فأرسلت اليهم أقول اننى على أهبة اللحاق بهم بمجرد أن تصلنى النقود الـلازمة . واستجابوا لبرقيتى ، وسرعان ما أغلقت مكتبى وأبحرت فى طريقى الى جنوب افريقية .

كنت أظن أن عملى سيقتضينى البقاء فيه عاما على الأقل ، ومن ثم فقد احتفظت ببيتى فى بومباى ، وكان يتألف من طابق واحـــد لتقيم فيه زوجتى وأطفالى .

ولـما كان من رأيى حتى ذلك الوقت ، أن من واجب الشـباب الوثاب ، اذا ضاقت بهم سبل الحياة فى بلدهم ، أن يهـــاجروا الى غيرها ، فقد اصطحبت معى فى رحلتى أربعة أو خمسة من الشـبان كان ماجانلال غاندى واحدا منهم .

٤٣ ـ فى جنوب افريقية مرة أخرى

وصلت الى دربان فى موعدى المقرر ، فأكببت على العمل الذى كان ينتظرنى فيها بمجرد وصولى · كان موعد مقابلة الوفد للمستر تشمبرلين قد حدد ، فكان على أن أحرر المذكرة التى سترفع اليه ، وأن أصحب الوفد حين يذهب لمقابلته ·

لقد كان هدف المستر تشمبرلين من رحلته فى جنوب افريقية أن يتسلم باسم بريطانيا هبة قدرها ٣٥ مليونا من الجنيهات ، وأن يظفر الى جانب ذلك بقلوب الانجليز والبوير على السواء ، فلم يكن غريبا أن يعرض عن الوفد الهندى حين ذهب الوفد لمقابلته ·

فقد قال لأعضاء ذلك الوفد عندما مثلوا أمامه : « انكم لتعلمون أن الحكومة البريطانية ليس لها من السلطان على المستعمرات التى تتمتع بحكم ذاتى الا قدر يسير · على أن مظالمكم تبدو مع ذلك صحيحة ، وسأفعل ما فى مكنتى من أجلكم ، ولكن عليكم فى الوقت نفسه أن تحاولوا استرضاء الأوروبيين اذا كنتم تريدون أن تعيشوا بين ظهرانيهم » ·

كان وقع هذا الرد على الأعضاء كالماء البارد يلقى فوق رءوسهم· أما أنا فقد تولانى شعور بالخيبة · ولكن هذه التجربة مع ذلك قد فتحت أعيننا للمستقبل ، ورأيت بعدها أن علينا أن نبدأ كفاحنا من جديد ·

وانتقل المستر تشمبرلين بعد ذلك من ناتال الى الترنسفال ، فكان على أن أعد قضية الهنود فيها ، وأن أقدم اليه مذكرة بأحوالهم، ولكن كيف أذهب الى بريتوريا ؟ ان مواطنينا فيها لم يكونوا فى وضع يمكنهم من الحصول على التسهيلات المشروعة التى تسمح لى بالسفر اليها فى الوقت المطلوب • أضف الى ذلك أن الحرب كانت قد خلفت الترنسفال أرضا موحشة ليس فيها من الزاد والملبس ما يكفى أهلها، حتى حرم على من سبق أن هاجروا منها خلال الحرب أن يعودوا اليها الا بعد أن تتزود المتاجر فيها من حاجات الناس ما يكفى استهلاكهم• لذلك كان على كل ترنسفالى يريد دخولها أن يحصـــل على تصريح بذلك • ولم يكن من الصعب عـــلى الأوروبى أن يظفر بمثـــل ذلك التصريح • أما بالنسبة الى الهندى فقد كان الأمر غاية فى المشقة • فقد كانت هناك ادارتان للجـــوازات ، واحـــدة تختص بالزنوج ، والأخرى بالآســيويين ، فكان على الهنود أن يتقدموا بطلبـــاتهم الى ثانيتهما • وقيل لى وقتها انه ما من تصريح يمكن الحصول عليه من تلك الادارة الا عن طريق وساطة بعض أصحاب النفوذ ، وان طالب التصريح كان عليه فى بعض الحالات أن يدفع قدرا من المال قد يصل الى مائة من الجنيهات فوق جهود من يلوذ بنفوذهم • وهكذا وجدتنى عاجزا عن أن أتبين طريقا يمكن أن ألجه لكى أســتطيع السفر الى مدينة بريتوريا • وذهبت الى صديقى القديم قومندان بوليس دربان أستنجده • قلت له : « أرجو منك أن تعرفنى بضابط الجوازات ، وأن تساعدنى فى الحصول على رخصـة بالسفر ، فانك لتعلم أننى كنت فى وقت من الأوقات من المستوطنين فى الترنسفال » ، فما كان منه الا أن وضع قبعته فوق رأسه على الفور وخرج ثم عاد الى ومعـه الرخصة التى أنشدها •

وانطلقت فى طريقى الى بريتوريا ، فلما بلغتها عكفت على اعداد المذكرة التى كنا نوشك أن نرفعها الى المستر تشمبرلين باسم الجالية

الهندية فى الترنسفال · ولست أذكر أن الجالية الهندية فى دربان طلب اليها أن ترفع قائمة بأسماء أعضاء وفدها مقدما · أما هنا فقد طلب منا أن نقدم هذه الأسماء سلفا ·

وقدمنا الأسـماء المطلوبة ، فاذا بنـا نتسلم من مدير ادارة جوازات الآسيويين خطابا يقول فيه انه قد رؤى حذف اسمى من بين أعضاء الوفد الذين سوف يشرفون بمقابلة المستر تشمبرلين ، بعد أن تبين أننى كان لى شرف مقابلته فى دربان ·

فكان هذا الخطاب أكثر ممـا استطاع زملائى أن يحتملوه ، وأشد مما كانت تتسع له طاقتهم من الصبر ، فجعل بعضهم يبكتنى وهو يقول : « لقد ساعدتهم الجالية الهندية فى الحرب بنـاء على نصيحتك ، وها أنت ترى النتيجة بعينيك » · ولم يكن لهذا التبكيت أثر فى نفسى فقلت لهم : « اننى غير آسف على هـذه النصيحة · ولا زلت مؤمنا بأننا أحسنا صنعا حين اشتركنا فى أعمال الحرب ، فنحن باشتراكنا انما فعلنا ما يحتمه علينا واجبنا ، ولا ينبغى لنـا أن ننتظر جزاء على عملنا · وأنا مؤمن مع ذلك ايمانا قاطعا بأن كل عمل طيب لابد أن يؤتى ثمره فى النهاية · فلننس الماضى اذن ولنفكر فى مستقبلنا » · ووافق الجميع ·

ثم استطردت أقول لهم : « وفى الحق أن العمل الذى أرسلتم فى طلبى من أجله قد انتهى ، ولكنى أعتقد مع ذلك أن من واجبى البقاء فى الترنسفال حتى ولو سمحتم لى بالعودة الى الهنـد ، وأن أواصل كفاحى من هنا بدلا من ناتال ، كما كنت أفعل من قبل · ان واجبى يحتم على الآن ألا أفكر فى العودة الى الهند قبل انقضاء عام كامل ، وأن أسجل اسمى أمام محكمة الترنسفال العليا · وعندى من الثقة مايجعلنى قادرا على معالجة أمر ادارة الجوازات الجديدة ، فنحن اذا لم نفعل ذلك الآن فان جاليتنا سوف تطارد من الولاية بالكلية » ·

وهكذا قررت أن أفتتح لى مكتبا فى جوهانسبرج ، بعـد أن استشرت فى ذلك أولى الرأى من الهنود فى بريتوريا وجوهانسبرج ·

٤٤ ـ « الرأى الهندى »

فى حوالى ذلك الوقت اتصل بى مادان جى ليستشيرنى فى أمر انشاء مجلة تحت اسم « الرأى الهندى » • ولم يكن مادان جى حديث عهد بالصحافة ، فوافقته على اقتراحه ، وبدأت المجلة فى الظهور فى سنة ١٩٠٤ ، ولا تزال تظهر كل أسبوع حتى يومنا هذا •

وتولى مانسوخلال نازار رئاسة تحريرها فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فقد وقع عبء العمل فيها على كاهلى ، حتى كدت أكون المسئول عنها فى معظم الأحيان ، لا لأن مانسوخلال كان عاجزا عن ادارتها ، بل لأنه كان يخشى الكتابة فى الموضوعات الشائكة التى تتصل بالأحوال فى جنوب افريقية ما دمت موجودا ، لما كان له من ثقة كاملة فى حكمتى وكياستى • ومن ثم فقد ألقى بمسئولية الأعمدة الافتتاحية على كتفى •

وما كان يدور بخلدى يومئذ أننى سأضطر الى امداد تلك المجلة بالمال ، غير أننى سرعان ما تبينت أنها لا سبيل لها الى البقاء الا اذا تقدمت لها بالمساعدة المالية ، فقد كان الهنود والأوروبيون على السواء يعلمون بأننى ، وان لم أكن المحرر الرسمى لتلك المجلة ، فقد كنت المسئول عن ادارتها بالفعل • وما كان يهمنى لو أننا لم نبدأ تلك المجلة على الاطلاق • أما وقد بدأناها فقد كان لزاما علينا أن نواصل اخراجها فى غير انقطاع ، نظرا لما كان ينطوى عليه توقفها عن الظهور من خسارة أدبية بجانب ما يلحقنا من المعرة والخزى فى أعين الناس• وهكذا كنت مضطرا الى مواصلة امدادها بالمال حتى أتت على كل

ما ادخرته تقريبا ، فقد بلغ ما كنت أدفعه لها فى بعض الأحيـان ، فيما أذكر ، خمسة وسبعين جنيها فى الشهر ٠

ومع ذلك فقد تكشف لى بعد كل تلك السنين ، أن المجلة قد أفادت الجالية الهندية فائدة كبرى على الرغم من كثرة تكاليفها ، بل انها ما قصد منها يوما أن تكون عملا من أعمال التجارة ٠

والواقع أن التطورات التى طرأت على تلك المجلة كانت ــ طالما هى تحت ادارتى ــ تعكس ما كان يطرأ على حياتى من تغيرات ٠ نعم فلقد كانت مجلة « الرأى الهندى » فى ذلك الوقت ، شـأنها شـأن « الهند الفتاة » فى الوقت الحاضر ، مرآة تنعكس فيها بعض نواحى حياتى ٠ كنت أصب فى أعمدتها من أعماق روحى ، وأشرح مبادىء الساتياجراها(*) ، كما كنت أفهمها فى ذلك الوقت ٠ ولم يصدر منها طيلة السنوات العشر التى تلت ذلك ، أى حتى سنة ١٩١٤ ، عدد واحد لم يكن لى فيه مقال بقلمى ، اللهم الا حين اعتكفت مجبرا وأنا فى السجن ٠

(*) القوة المنبعثة من الحق والمحبة ٠ وهى ما اعتـــاد بعض الكتاب أن يسموه « المقاومة السلبية »٠

٤٥ ـ سحر فى كتاب

كنت أتناول كثيرا من وجباتى فى مطعم من مطاعم النباتيين • وفى هذا المطعم تعرفت بالمستر البرت وست • كنا نتقابل فى هذا المطعم كل مساء ، ثم نخرج بعد العشاء للتريض سيرا على الأقدام • وكان المستر وست شريكا فى دار من دور الطباعة ، وقد تطوع لمعاونتى فرجوته أن يشرف على مطبعة مجلة « الرأى الهندى » فى دربان • على أن التقرير الذى قدمه لى عن مركزها المالى كان باعثا على القلق ، فقررت السفر الى دربان على الفور •

وجاء المستر بولاك ، وهو واحد من الأصدقاء الذين تعرفت بهم فى المطعم المذكور ، الى المحطة لتوديعى وترك لى كتابا أطالعه فى الطريق قال عنه انه واثق من أنه سيعجبنى • كان كتاب راسكين « حتى هذه النهاية » •

ولم يكن هذا الكتاب من النوع الذى يستطيع المرء أن يلقيه جانبا اذا هو بدأ يطالعه ، بل لقد أخذ بمجامع قلبى • كانت المسافة من جوهانسبرج الى دربان تستغرق ٢٤ ساعة ، فلما بلغتها فى المساء لم تغفل عينى تلك الليلة ، اذ كنت قد صممت على أن أغير طريقة حياتى حتى توائم المثل العليا التى قرأتها فى ذلك الكتاب •

فلقد رأيت بعض عقائدى التى تكمن فى أعماق قلبى وقد انعكست فى ذلك الكتاب العظيم ، فما أقدر الشاعر البليغ على

استخراج الخير الكامن في النفس البشرية من مكمنه ، فقد خرجت من هذا الكتاب بثلاث نتائج :

الأولى : ان خير الفرد فى خير المجموع ·

الثانية : ان عمل المحامى له من القيمة ما لعمل الحلاق تماما ، من حيث ان كليهما له حق مماثق لحق الآخر فى أن يكسب معاشه عن طريق العمل الذى يؤديه ·

الثالثة : ان الحياة الكادحـــة التى تقوم على جهد الفرد ، مثـال ذلك ، حيــاة الفلاح الذى يعمل فى فلاحـــة أرضه أو الصانع الذى يزاول صـــــناعته ، هى وحدها الحيــاة الجديرة بأن يحياها الانسان ·

وقمت من الفجر مســـتعدا لأن أضع هذه المبادىء موضـــع التنفيذ ·

٤٦ ـ مزرعة فينكس

تحدثت الى المستر وست فيما كان لكتاب راسكين من أثر فى نفسى ، وأطلعته على ما كان يجيش فى صدرى من الرغبة فى تطبيق النتائج التى وصلت اليها من مطالعته ، واقترحت عليه لذلك نقل مجلة « الرأى الهندى » الى احدى المزارع حيث يفرض على كل واحد فيها أن يكد ويكدح بالنهار وأن يتقاضى فى نظير ذلك أجرا يكفل له العيش بحيث يتساوى مع ما يتقاضاه غيره من الكادحين ، على أن يكون أداء العمل الصحفى فى وقت الفراغ • ووافقنى المستر وست على اقتراحى ، واتفق على أن يكون الأجر الشهرى للفرد ثلاثة جنيهات دون تمييز بينهم على أساس من اللون أو الجنسية •

وأعلنت عن رغبتى فى شراء قطعة أرض بجوار دربان تكون قريبة من احدى محطات السكة الحديد • وعرضت على مزرعة فينكس ، فلم يمض أسبوع الا وكنا قد اشترينا عشرين فدانا يتخللها جدول ماء صغير وتنمو عليها بعض أشجار البرتقال والمانجو • وكان على مقربة منها قطعة أرض أخرى مساحتها ثمانون فدانا ، كان بها عدد أكبر من أشجار الفاكهة ، وفيها عشة متهدمة ، فلم نلبث أن اشتريناها كذلك ، ودفعنا ثمنا لكل ذلك ألفا من الجنيهات •

وقد قام بعض النجارين والبنائين من الهنود ، ممن سبق أن عملوا معى خلال حرب البوير ، بمساعدتى على بناء حظيرة لمطبعة « الرأى الهندى » فأتموها فى أقل من شهر ، وقد ظل المستر وست

وبعض أصحابه يلازمونهم خلال تلك الفترة على الرغم مما كان فى ذلك من مجازفة شديدة ومن خطر على سلامتهم وحياتهم • فقد كانت المزرعة غير مأهولة وكانت حشائشها الكثيفة مباءة للأفاعى والثعابين •

وقد بقينا فى أول الأمر نعيش جميعا فى الخيام الى أن نقلنا متاعنا الى المزرعة التى كانت تبعد عن دربان بأربعة عشر ميلا وعن محطة سكة حديد فينكس بميلين ونصف الميل •

وهكذا بدأنا العمل فى المزرعة فى سنة ١٩٠٤ ، ولا تزال مجلة « الرأى الهندى » تصدر منها على الرغم من كل ما يعترضها من صعاب •

ولكى نساعد كل واحد منا على أن يكسب عيشه عن طريق العمل اليدوى فقد قسمنا الأرض التى تقع حول مبنى المجلة الى قطع صغيرة ، كل واحدة منها ثلاثة أفدنة ، وكان نصيبى حصة من تلك الحصص • وقد أقمنا فوق تلك الحصص جميعا ، على غير رغبة منا ، بيوتا من الصاج المتعرج • فقد كنا نريد فى أول الأمر أن نبنى عليها عششا من الطين المكسو بالقش أو بيوتا صغيرة من الآجر مما يعيش فيه الفلاح العادى • غير أن الأمور سارت فى ذلك على غير ما كنا نشتهى بعد أن تبين لنا أن بناءها من الطين أو الآجر سيكون أكثر نفقة وأطول زمنا ، بينا كان كل واحد منا يتحرق الى الاستقرار فى بيت يؤويه فى أقصر وقت ممكن •

على أننا ما كدنا نستقر فى بيوتنا الجديدة حتى وجدتنى مضطرا الى ترك عشى الجديد والسفر الى جوهانسبرج ، فقد كان عملى فيها لا يحتمل أن أتركه زمنا طويلا دون أن يتأثر بذلك •

فلما كنت فى جوهانسبرج أفضيت لبولاك بما كان من أمرنا وبما استحدثته من تغيير فى أسلوب حياتى ، وكان سروره لا يعرف حدا حين قلت له ان الكتاب الذى أعارنى إياه قد أحـــدث أثره فى نفسى وسألنى : « هل من الممكن أن أشترك معكم فى هذا العمـــل الجرىء ؟ » فلما قلت له : « بكل تأكيد » سارع الى انذار رئيســه بأنه سوف يترك عمله معه بعد شهر واحد ، ثم لحق بالجمـاعة فى فينكس بعد ذلك ، حيث اســـتطاع بمـا كان يتصف به من حسن المعاشرة ، أن يأسر قلوب الجميع وأن يصبح عضوا دائما من أعضاء الأسرة ، لولا أنه تبين لى أننى لا أقدر على السماح له بالبقاء فيهـــا طـــويلا ، اذ كان من المســـتحيل على أن أحمـــل عبء مكتبى فى جوهانسبرج وحدى ، فاقترحت عليه أن ينضم الى مكتبى وأن يعـد نفسه فى الوقت نفسه لكى يكون وكيلا للأعمال القضائية ·

وكتب الى بولاك من فينكس يقـــول انه على الرغم من انه قد أغرم بالحياة فيها ، وعلى الرغم من انه سعيد بالاقامة فيها ويأمل أن يستطيع الارتقاء بأعمـــال الزراعة فيها فانه علىّ استعداد لتركهـــا والحضور الى جوهانسبرج ليلتحق بمكتبى ويؤهل نفسه للأعمـــال القضائية اذا رأيت أن ذلك يساعد على تحقيق أهدافنا المشتركة فى أسرع وقت ·

وغادر بولاك مزرعة فينكس وجاء الى جوهانسبرج للعمل معى·

٤٧ - بيتى

كنت فى ذلك الوقت قد قطعت كل أمل فى عودتى الى الهند فى المستقبل القريب • لقد كنت وعدت زوجتى بأن أعود اليها فى خلال عام واحد ، وها قد مضى العام دون أن يلوح أمامى أمل فى العودة اليها • ولذلك فقد استقر رأيى على أن أبعث فى طلبها هى والأطفال•

واذا كان اتجاهى الى البساطة فى الحياة قد بدأ فى دربان ، فقد كان بيتى وأنا فى جوهانسبرج أكثر بساطة وأشد تقشفا بفضل تعاليم راسكين حتى وصل الى الحد الأدنى الذى كان يليق ببيت واحد من المحامين • صحيح انه كان لابد لى من الاحتفاظ بقدر معين من الأثاث ، ولكن التغيير الذى طرأ على حياتى كان تغييرا فى الجوهر أكثر منه فى المظهر • فقد زاد عزوفى عن كل ما هو كمالى بقدر ما زاد ميلى الى أن أعمل بيدى كل ما أحتاج اليه • ولم أكتف بنفسى فى ذلك بل أخذت أخضع أولادى لنفس النظام •

من ذلك مثلا أننا بدلا من شراء الخبز من الخباز أخذنا نعده فى المنزل • ثم رأينا بعد ذلك أن نستغنى عن الدقيق الجاهز وأن نطحن دقيقنا بأيدينا ، ففى ذلك مزيد من البساطة فى الحياة ثم هو فوق ذلك أكثر اقتصادا فى النفقات وأضمن للصحة • وهكذا اشتريت طاحونة تدار باليد ودفعت سبعة جنيهات ثمنا لها • فلما تبين لنا أن ادارتها كانت أكثر مما يطيقه فرد واحد وأنها أكثر سلاسة اذا اشترك فى ادارتها اثنان جعلنا نديرها أنا وبولاك والأطفال متعاونين • وكثيرا ما كانت زوجتى تمد لنا يد المساعدة فى

هذا العمل ، على الرغم من أن الساعة المخصصة له كانت الساعة التى تبدأ فيها عادة عملها فى المطبخ ٠

وقد أثبت العمل فى طحن الدقيق أنه تمرين مفيد للأطفال ، فقد كنا لا نفرض عليهم هذا العمل ولا غيره من الأعمال المشابهة ، بل كنا نجعله هواية لهم يشتركون فيها ان شاءوا ويكفون عنها متى شاءوا ٠

وكان يساعدنا فى شئون البيت خادم استخدمناه لهذا الغرض ولكنه كان يعيش معنا كواحد من أفراد الأسرة ، بل كثيرا ما كان أولادنا يساعدونه فى أداء واجباته ٠ أما دورات المياه فقد كنا نتولى تنظيفها بأنفسنا ولا نتركها له لينظفها ٠

حقا لقد أثبتت هذه التجربة أنها كانت مرانا طيبا لأولادنا ٠

٤٨ ـ حياة التبتل (براهما تشاريا)

فلما رتبت أمورى على هذا النحو وأحسست بأننى قد بدأت أتنسم نسيم السكينة والاستقرار حملت الينا الجرائد نبأ « ثورة الزولو » فى ناتال • ولما كنت أعتبر نفسى واحدا من مواطنى ناتال ووثيق الصلة برفاهيتها فقد كتبت الى حاكم الولاية أعرض عليه استعدادى ، اذا اقتضت الضرورة ، لتأليف فرقة هندية تتولى اسعاف المصابين ، فرد على من فوره يقبل ما عرضته عليه •

وقررت أن أغلق بيتى فى جوهانسبرج وأن تذهب زوجتى وأطفالنا ليقيموا فى مزرعة فينكس • وقبلت زوجتى هذا القرار بنفس راضية •

وذهبت بعد ذلك الى دربان لكى أستثير حماس الهنود فيها وأناشدهم التطوع فى فرقة الاسعاف التى كنت أزمع انشاءها • وقد رأى رئيس الخدمات الطبية ، تسهيلا لعملى ودعما لمركزى ، أن يمنحنى رتبة الملازم الأول المؤقتة ، وأن يمنح ثلاثة آخرين من أعضاء الفرقة ، اخترتهم بنفسى، رتبة الملازم الثانى، ورابعا رتبة الأمباشية ، كما رأى أن تمنحنا الحكومة الزى الرسمى الذى يتفق وعملنا •

وقد ظلت فرقتنا تباشر عملها ستة أسابيع كان لسانى خلالها ينعقد من هول ما كنت أراه من قتل الانسان لأخيه الانسان ، وكنت كلما خلوت لنفسى استسلمت لتفكير عميق • وكان من بين المسائل

التى شغلت على تفكيرى وقتئذ مسألة التبتل وما يعنيه ذلك . ولم ألبث أن آمنت بحكمته . ولم أكن أدرك فى ذلك الوقت أن التبتل من أوجب الواجبات لخلاص النفس ، وكل ما كنت أدركه يومها أن من كان يصبو الى خدمة الانسانية بجميع احساساته ومشاعره لابد من أن يحيا حياة التبتل . لقد وضح أمامى يومئذ أننى سأضطر الى مواجهة مناسبات أخرى كثيرة يكون على فيها أن أؤدى من الخدمات مثل ما أديته خلال حرب البوير وما كنت أؤديه الآن خـــلال ثورة الزولو ، وشعرت أننى لن أكون ندا لهـذا الواجب لو أننى عكفت على الاستمتاع بملذات الجسد التى تهيئها الحياة الزوجية وشغلت نفسى بانجاب الأطفال وتربيتهم .

وفى ايجاز ، لم أستطع أن أجمـــع بين حياة الجسد وحيـــاة الروح . فلو ان زوجتى كانت تنتظر مولودا حـــين كنت متفرغـــا لاسعاف الجرحى لاستحال على ولا شك أن ألقى بنفسى الآن فى لجة الحوادث . ان الجمـــع بين رعاية الأسرة وبين القيام على شـئون الجماعة لا يتأتى الا بحياة التبتل ، فهى وحدها التى تجعل الخدمة فى كلتا الناحيتين متكاملة لا تنافر فيها .

وبينما أنا منهمك فى هذا العمل المضنى للجسم والعقل معا ، ونحن نؤدى واجبنا فى ميدان القتال ، وصلتنا الأنبـــاء بأن القضاء على « الثورة » يوشك أن يتم وأننا سنعفى قريبا من واجباتنا . وقد أعفينا منها بالفعل بعد يومين أو ثلاثة ، ووصلنا الى أهلنا بعد ذلك بأيام ، تسلمت بعـــدها خطابا من الحاكم ينوه فيه بأعمـــال فرقة الاسعاف ويشكر لها جليل خدماتها .

فلما كنت فى مزرعـــة فينكس مرة أخرى اتخذت الخطـــوة الحاسمة التى كانت تشغل بالى فقطعت على نفسى عهدا لأرعين التبتل

مدى الحياة · ولن أتحدث عن الصعوبات التى صـــادفتها وقتئذ ، وحسبى أن أقول اننى أحس حتى يومنا هـــذا بأن تلك الصعوبات لا تزال تحملق فى وجهى ، وان كان هذا لم يمنع من احساسى بأهمية هذا العهد وضرورته يوما بعد يوم · ان الحياة من غير تبتل تبدو لى الآن حياة لا طعم لهـــا أشبه ما تكون بحياة الحيوان ، فالحيـــوان بطبعه لا يعرف كيف يضبط شهواته · أما الانسان فهو انسان لأنه يقدر على كبح جماحه الى المدى الذى يباشر فيه ارادته ·

وقد تبين لى أن التبتل ، على الرغم مما يحفـل به من طاقات عجيبة ، ليس بالأمر السهل على الاطلاق ، وليس بالأمر الذى يتصل بالجسد وحده ، فهو يبدأ بفرض القيود على الجسد ، ولكنه لا ينتهى عند حد الجسد · انه اذا اكتمـــل لدى شخص حجب عنـه مجرد الفكرة الدنسة فلا تخطر حتى على باله· ان المتبتل الصحيح لا يفكر ، مجرد التفكير ، فى اشباع شهوة الجسد ، على أن عليه قبل أن يسمو الى هذه الحالة أن يقطع شوطا طويلا جبارا ·

وهكذا أصبح التبتل الذى فرض على فرضا رغم أننى منذ سنة ١٩٠٠ عهدا واجب الرعاية بعد منتصف سنة ١٩٠٦ ·

٤٩ ــ ممارسة تعاليم الساتياجراها داخل البيت

كان أول عهدى بحياة السجون فى سنة ١٩٠٨ ، وقد بدا لى وقتئذ أن اللوائح التى كانت تطبق على المساجين وكان يتعين عليهم مراعاتها هى مما يجب على المتبتل أن يرعاه بمحض رغبته واختياره • وكان من بين هذه اللوائح واحدة تنص على ضرورة انتهاء المساجين من آخر وجبة من وجبات يومهم قبل غروب الشمس • كذلك كان يحرم على المساجين من الهنود والافريقيين تناول الشاى أو القهوة • وكان فى استطاعتهم أن يضيفوا الى طعامهم المطهو بعض الملح ان شاءوا ، فلما طلبت من طبيب السجن أن يسمح لنا ببعض مسحوق الكارى ، وأن يبيح لنا وضع الملح فى الطعام خلال طهوه ، أجابنى : « أنتم ما جئتم هنا لكى تتلذذوا بطعامكم • ثم ان مسحوق الكارى ليس ضروريا من الناحية الصحية ، أما الملح فليس ثمة فارق بين وضعه خلال الطهو أو بعده » •

واذا كانت هذه القيود قد عدلت فيما بعد ، وان كان تعديلها قد جاء بعد مجهود غير يسير ، فان قاعدتين منهما كانتا صالحتين لكل من كان يسعى الى ضبط نفسه • فان الموانع والنواهى اذا فرضت من الخارج نادرا ما تنجح • أما اذا فرضها الانسان على نفسه بنفسه فان أثرها يكون فى العادة صالحا ومفيدا • ولذلك فما كدت أخرج من السجن حتى شرعت أفرض هاتين القاعدتين على نفسى ، فامتنعت عن تناول الشاى بقدر ما كان ذلك ممكنا وقتها ، وآليت على نفسى أن أنتهى من وجبتى الأخيرة كل يوم ، قبل غروب الشمس ، حتى أصبحتا أمرا عاديا فى حياتى لا يحتاج منى الى عناء أو جهد •

ثم طرأ على ظرف بعد ذلك اضطرني الى الامتناع عن تناول الملح بالكلية ، وظللت أرعى ذلك عشر سنوات متصلة · فقد كنت قرأت في بعض الكتب التى تعالج موضوع الغـــذاء النباتى أن الملح ليس مادة ضرورية فى غذاء الانسان ، وأن الطعـام الخلو من الملح هو على العكس أفيد من الناحية الصحية · وخلصت مما قرأته الى أن الامتناع عن الملح يفيد من كان متبتلا مثلى · كذلك كنت قـد قرأت من بين ما قرأته فى هذا الموضوع أن أصحاب الأجســام الضعيفة يجب أن يتجنبوا أكل الشطة وكنت مولعا بها ·

وتصادف أن مرضت زوجتى كاستورباى بعد فترة قصيرة من عملية جراحية ، وأخذت تشكو من نزيف مستعص أبى أن يستجيب للعلاج بالماء وحده · فلما فشلت وصـــفاتى الأخرى فى شفائها ، ألححت عليها أن تكف عن تناول الملح والشطة ، ولكنها رفضت أن تستجيب لهذا الاقتراح على الرغم من توسلاتى اليها ، وعلى الرغم مما كنت أستشهد به من المراجع الطبيـــة لتعزيز حجتى معهـا · واسترسلت فى الحاحى عليها حتى نفد صبرها وانقلبت تتحدانى وهى تقول انك أنت نفسك لن تستطيع أن تمتنع عنهما لو نصحك أحد بذلك · وآلمنى هـــذا التحدى بقدر ما أفرحنى — أفرحنى لأنه هيأ لى الفرصة لكى أظهر حبى لها · فقلت لها : « أنت مخطئة · فلو أننى كنت مريضا ونصحنى الطبيب بالامتناع عن هذه الأشياء لما ترددت فى أن أفعل ما أمرت · ومع ذلك فهأنذا أمتنع من الآن ، ومن تلقاء نفسى ، عن أكل الملح والشطة سنة كاملة ، امتنعت أنت أم لم تمتنعى » ·

وترنحت زوجتى من هول الصـدمة ، وجعلت تتوسل الى فى حزن عميق وهى تقول : « أرجوك ! ســـامحنى ! فما كان لى وأنا

أعرفك حق المعرفة أن أستثيرك على هذا النحو · اننى أعدك بالامتناع عن تناول هذه الأشياء ، وأستحلفك أن ترجع فى عهـــدك فهو أمر يشق على » ·

وأجبتها : « لقد أحسنت بامتناعك عن هـــذه الأشياء ، ولا يخالجنى شك فى أنك سوف تكونين أحسن حالا بالامتناع عنها · أما أنا ، فانى لا أستطيع أن أرجع فى نذر نذرته · لذا أرجوك أن تدعينى وشأنى ، فان امتناعى سوف يكون محكا لقدرتى وعونا أدبيا لك فى تنفيذ ما اعتزمتيه » ·

وقالت وهى يائسة : « انك رجل عنيد الى أقصى حدود العناد· انك لا تستمع لقول أحـــد » ثم لاذت بدموعها مما كان يعتمـل فى نفسها من الألم ·

اننى أجـــد نفسى ميالا الى اعتبـــار هذا الحـادث نوعا من الساتياجراها ، بل لعله أغلى ذكريات حياتى ، فقد أخـــذت صحة كاستورباى فى التحسن السريع بعده ·

وقد حاولت هذه التجربة مع عدد كبير من زملائى فى الكفاح فى جنوب افريقية ــ تجربة الامتناع عن الملح وعن الشطة ــ فأتت جهودى معهم بنتيجة طيبة · وقد يختلف الرأى من الناحية الطبية فى قيمة هذا النوع من الغذاء · أما من الناحية المعنوية فانى لا أشك فى أن الحرمان المـادى له أثر طيب على النفس ، فان غـذاء الرجل الذى آلى على نفسه أن يكبح شهواته يجب أن يختلف عن غذاء من كان يطلب المتعة الحسية ، بقدر ما يختلف سلوك كل منهمـــا فى الحياة ·

٥٠ ـ مزيد من ضبط النفس

طرأت على حياتى بعد ذلك تغييرات كثيرة كانت كلها مما يعينني على تبتلى • وكان أول هذه التغييرات الامتناع عن شرب اللبن • كان ذلك فى سنة ١٩١٢ فى مزرعة تولستوى • غير أننى ما كنت لأقتنع بهذا الحرمان وحده ، فلقد قررت بعد ذلك أن أعيش على الفاكهة وحدها ، وعلى أرخص أنواعها ما أمكن ذلك •

وفى حوالى ذلك الوقت الذى حرمت فيه على نفسى اللبن والحبوب وبدأت تجربة الحياة على الفاكهة ، أخذت أتجه كذلك الى الصوم باعتباره وسيلة من وسائل ضبط النفس •

ولم يلبث أهل المزرعة جميعا أن اشتركوا معى فى الصوم ، ما كان منه صوما جزئيا وما كان منه صوما كاملا ، وان كنت لا أستطيع أن أجزم بوقع هذا الحرمان فى نفوسهم وما كان له من أثر عندهم فى تغليب الروح على الجسد • أما من ناحيتى فانى مقتنع بأننى قد أفدت منه فائدة عظمى ، جسمانيا ومعنويا •

فالصوم لا يحد من الشهوة البهيمية الا اذا كان الهدف منه ضبط النفس ، فقد لاحظ بعض أصحابى أن شهواتهم ونهمهم الى ما لذ من الطعام تزداد بعد فترات الصوم ، مما يكشف عن أن الصوم لا فائدة منه الا اذا كانت تصحبه رغبة جارفة فى ضبط النفس والحد من الشهوات • ان الصوم المادى الذى يقتصر على الامتناع عن الطعام ، ولا يصحبه صوم عقلى يهدف الى تنقية الروح من الأدران ، لابد أن

ينتهى بصاحبه الى النفاق ويجلب عليه كثيرا من الكوارث ٠

ولقد كنت أدرك ، حتى قبل أن أتولى تعليم الصغار فى مزرعة تولستوى ، أن المران الروحى ناحية قائمة بذاتها ٠ ذلك أن تربية الروح تستهدف تكوين الخلق السليم وتساعد صاحبها على تحقيق ذاتيته وزيادة معرفته بالله ٠ ولذلك فقد كنت مؤمنا بأن التربيـــة الروحية لابد منها للشباب ، وأن كل تعليم تعوزه الثقافة الروحية هو تعليم لا جدوى منه ، بل هو تعليم قد يكون محفوفا بكثير من الأوضار ٠

فما السبيل اذن الى تحقيق هذه التربية الروحية ؟ لقد كنت فى أول الأمر أطلب الى الأطفال أن يحفظوا بعض الترانيم من الكتب ذات الطابع الخلقى ثم يلقوها على مسمع من بعضهم البعض ٠ ولم أقتنع بذلك ، فقد كنت كلما زدت صلة بهم ازددت ايمانا بأن الكتب ليست الوسيلة المثلى لتلقينهم الثقافة الروحية ٠ فكما أن التربيـــة الرياضية لا تتأتى الا عن طريق ممارســـة الألعاب الرياضـــية ، والتربية العقلية عن طريق المران العقـــلى ، فكذلك الروح لا يمكن تهذيبها الا عن طريق الترويض الروحى ٠ وترويض الروح من ناحيته أمر يعتمد كل الاعتماد على حياة المعلم وأخلاقه ٠ لذلك كان خليقـــا بالمعلم أن يكون شديد الحرص فى جميع تصرفاته ، سواء أكان مع تلاميذه أو بعيدا عنهم ٠

فان فى استطاعة المعلم ، حتى ولو كان بعيدا عن تلاميذه ، أن يحدث أثرا فى نفوسهم بأسلوبه فى الحياة ٠ وانه لمن العبث مثلا ، لو أننى كنت كذوبا ، أن أحاول تعليم تلاميذى الصـــــدق ، والمعلم الجبان لا يستطيع أن يلقن تلاميذه دروس الشجـــاعة ، فان فاقد الشىء لا يمكن أن يعطيه ٠

ومن هنا قررت بيني وبين نفسي أن أجعل من نفسي انموذجا عمليا لتلاميذي وتلميذاتي الذين يعيشون معي، حتى انقلبوا في نظري من تلاميذ أعلمهم الى معلمين أتعلم منهم • نعم فلقد تعلمت منهم أنه لا مناص لي من أن أحيا حيـاة طيبة تتسم بالصدق والأمانة ، ان لم يكن من أجلي فعلى الأقل من أجلهم • بل اني لأذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان القيود التي فرضتها على نفسي لكي أروضها كان مردها في أغلب الأحيان أولئك الصـغار الذين أقمت منهم حراسا على نفسي •

٥١ ـ مولد الساتياجراها

كنت في طريق عودتي بعد أداء واجباتي المتصلة « بثورة » الزولو حين قابلت الأصدقاء من مزرعة فينكس ، ثم ذهبت الى جوهانسبرج فقرأت وأنا فيها في عدد خاص من الجريدة الرسمية صدر في ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٦ مشروع قانون لو استكمل طريقه حتى يصير قانونا لكان معناه القضاء على الهنود في جنوب افريقية قضاء مبرما ، وضياع مستقبلهم ضياعا لا رجعة فيه • كان هذا القانون المقترح يفرض على كل هندي ، رجلا أو امرأة أو طفلا بلغ الثامنة من عمره ، ممن لهم حق الاقامة في الترنسفال أن يسجل اسمه أو اسمها ، لدى مسجل شئون الآسيويين ، وأن يحصل على بطاقة بذلك • وكان يتعين على كل من يتقدم بطلب التسجيل ، فيما كان يقضي به القانون الجديد ، أن يسلم بطاقته القديمة للمسجل وأن يدون في طلبه الجديد اسمه ومحل اقامته والطبقة التي ينتمي اليها الى غير ذلك من البيانات ، وأن يدون المسجل بدوره ما يعن له من الملاحظات المميزة التي يراها في صاحب الطلب ، وأن يأخذ الى جانب ذلك بصمات أصابع يده جميعا • وكان مشروع القانون ينص كذلك على أن كل هندي لا يتقدم بطلب التسجيل قبل انقضاء فترة معينة يفقد حق الاقامة في الترنسفال ، فضلا عما كان ينطوي عليه ذلك من مخالفة للقانون قد تنتهي بصاحبها الى الحكم عليه بالغرامة أو السجن بل بالطرد من البلاد حسب ما يتراءى للمحكمة • وكان على كل هندي ، حتى ولو كان يسير في الطريق العام ، أن يبرز بطاقته متى طلب منه ذلك ، كما كان لرجال الشرطة حق دخول المساكن الخاصة

لتفقد هذه البطاقات . والحق أنني لم أصادف فى حياتى تشريعا مثل هذا التشريع قصد به جماعة من الأحرار فى أى بلد من البلاد .

وعقدنا فى اليوم التالى اجتماعا صغيرا ضم أصحاب الكلمة بين الجالية الهندية ، فشرحت لهم هذا القانون كلمة كلمة فكان ذلك صدمة لهم بقدر ما كان صدمة لى ، وأدرك الجميع خطورة الموقف وقرروا عقد اجتماع عام .

وعقد الاجتماع بالفعل فى يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ، واتخذت فيه قرارات كان أهمها القرار الشهير الذى أصبح يعرف فيما بعد « بالقرار الرابع » الذى تعهد فيه الهنود عهدا لا حنث فيه ليرفضن الخضوع لهذا القانون المقترح لو قدر له أن يصبح قانونا نافذ المفعول وليتحملن فى سبيل ذلك أشد العقوبات التى تترتب على ذلك .

وحار المجتمعون فى الاسم الذى يطلقونه على هذه الحركة الى أن اقترح ماجنلال غاندى كلمة « ساداجراها » ومعناها « الثبات على الخير » ، وأعجبتنى هذه التسمية وان لم تؤد كل المعنى الذى كنت أريده ، ومن ثم فقد استبدلت بها كلمة « ساتيا جراها » . فان « ساتيا » (الحق) تنطوى كذلك على المحبة ، و «جراها» (الصلابة) توحى بالقوة . وهكذا أصبح يطلق على حركتنا كلمة «ساتياجراها» ، أى القوة المنبعثة من الحق ومن المحبة ،أو بعبارة أخرى الحركة المنزهة عن كل عنف ، واستغنيت بذلك عن استعمال عبارة « المقاومة السلبية » .

٥٢ ــ الى السجن

مر مشروع قانون تسجيل الآسيويين فى جميع مراحله المختلفة فى جلسة واحدة عقدها البرلمان الترنسفالى فى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٠٧ على أن يعمل به اعتبارا من اليوم الأول من شهر يولية سنة ١٩٠٧ وأن يدعى الهنود للتقدم بطلبات التسجيل فى موعد غايته يوم ٣١ يولية ٠

وحل يوم أول يولية فشهد افتتاح مكاتب التسجيل المذكورة ، ولكن الجالية الهندية كان قد استقر قرارها على أن تضع عند أطراف الطرق المؤدية الى تلك المكاتب بعض متطوعيها لكى يحذروا ضعاف القلوب من بين أفراد الجالية من الوقوع فى الشرك المنصوب لهم ٠

فلما رأت الادارة الآسيوية أنعدد الهنود الذين تقدموا لتسجيل أسمائهم ، على الرغم من كل ترغيب أو وعيد ، لم يتجاوز الخمسمائة قررت أن تلقى القبض علىبعض السكان الهنود ٠ وكانتفىجيرمستون جالية كبيرة من الهنود كان من بينهم راما سوندرا ، الذى كان قد ألقى عددا من الخطب الحماسية فى جهات مختلفة يحذر بنى وطنه من عاقبة تسجيل أسمائهم ٠ وقد وشى بعض أهل السوء من الهنود به عند الادارة الآسيوية ، مؤكدين لها انه لو قبض عليه لجاءها كثيرون من الهنود يطلبون استخراج بطاقاتهم ، ولم يجد موظفو تلك الادارة فى أنفسهم من القدرة ما يمكنهم من مقاومة هـــذا الاغراء فقبضوا عليه ٠

وقد أثارالقبض عليهدوائر الحكومة والجالية الهندية علىالسواء،

اذ كان أول حادث من نوعه • فلما حكم عليـه احتفل الناس بذلك احتفالا رائعا لا أثر فيه لحزن أو قلق ، بل على العكس لقد أبدوا من مظاهر البهجة والسرور فى تلك المناسبة الشىء الكثير ، وأخـذ كثير منهم يستعدون للذهاب الى السـجن • وهكذا خـاب فأل الادارة الآسيوية التى كانت ترجو أن يكون القبض على سوندرا حـافزا للناس على الذهاب الى مكاتب التسجيل ، فلم يتقدم اليها بعـد ذلك طلب واحد من أحد من الهنود ، حتى من المقيمين منهم فىجيرمستون ، وبذلك لم يربح من وراء هذا القبض سوى الجالية الهندية نفسها •

على أن راما سوندرا أثبت بعد ذلك أنه كان عملة زائفة • فقد كان السجن بما فيه من عزلة موحشة وقيود صارمة أكثر مما كان يحتمل ، وهو الرجل الذى اعتاد حياة الاباحية وانغمس فى كثير من الأوضار ، وذلك على الرغم من الرعاية الخاصة التى كان يلقاها من سلطات السجن والحنان الذى كانت تضفيه عليه الجالية ، فلم يلبث أن التمس الافراج عنـه على أن يغادر الترنسفال كلها ويتخلى عـن الحركة •

ولست أرمى من رواية قصـة راما سوندرا الى كشف عيوبه ، وانما قصدت استخلاص العبرة منها ، وحض كل من كانوا يقودون حركة نظيفة على التأكد من أنهم لا يقبلون فى صفوفهم الا من كانوا مجاهدين نظيفين •

وأيقنت الادارة الآسيوية بعد هذا الحادث أن هذه الحركة لن تكسر شوكتها ما دام بعض زعمائها طلقاء • وهكذا دعت سلطـات الترنسفال خلال أسبوع الكريسماس من سنة ١٩٠٧ ، بعض القادة الى الحضور أمام قاضى التحقيق • ووقف هؤلاء أمام المحكمة فى اليوم

المقرر ، وكان يوم السبت ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ليبدوا ما لديهم من أسباب تبرر عدم طردهم من الترنسفال خلال أجل معين بعد أن تقاعدوا عن التقدم بطلبات التسجيل التى يحتمها القانون ٠

ونظر القاضى كل حالة على حدة ثم أصدر أمره الى جميع المتهمين بمغادرة الترنسفال بعضهم فى خلال ٤٨ ساعة ، وبعضهم الآخر فى خلال أسبوع أو أسبوعين ٠ وانتهى الأجل المضروب لهم فى موعد أقصاه ١٠ يناير سنة ١٩٠٨ ، فطلب الينا فى ذلك التاريخ الحضور أمام المحكمة لسماع حكمها علينا ٠ واتفقنا فيما بيننا على ألا يدافع أحد منا عن نفسه ، بل نعترف جميعا بأننا مذنبون فى تهمة عصيان الأمر الصادر لنا بمغادرة البلاد خلال الموعد المحدد لذلك ٠

وطلبت من المحكمة عندما مثلت أمامها أن تأذن لى بكلمة موجزة، فلما أذنت لى قلت ان من رأيى التفريق بين حالتى وحالة غيرى من المتهمين ممن سيأتى دورهم بعدى ، واننى قد سمعت منذ برهة بأن مواطنى فى بريتوريا قد حكم عليهم بالسجن ثلاثة أشهر مع الأشغال وبغرامة فادحة اذا لم يدفعوها سجنوا ثلاثة أشهر مثلها ٠ فاذا كان هؤلاء الرجال قد ارتكبوا جرما ، فقد ارتكبت جرما أكبر ، واننى ألتمس من القاضى لذلك أن يحكم على بأقصى العقوبة ٠ ولكن القاضى لم يستجب لرجائى ، واكتفى بحبسى حبسا بسيطا لمدة شهرين ٠

وأخذ أتباع حركة الساتياجراها يفدون على السجن بعد ذلك بيومين أو ثلاثة زرافات وجماعات ٠ كانوا كلهم من الباعة المتجولين الذين سعوا بأنفسهم الى القبض عليهم ٠ لقد كانت الجالية كلها قد اعتزمت أن تملأ السجون بعد القبض علينا حتى تضيق بهم ، وكان هؤلاء الباعة المتجولون السباقين الى تنفيذ هذا الذى اعتزمته الجالية٠ وما كان أسهل عليهم من أن يسـعوا بأرجلهم الى السجن ٠ كان

يكفي أن يمتنع أحدهم عن ابراز بطاقته لكي يقبض عليه ويساق الى المحاكمة فالسجن • وهكذا جعل عدد المسجونين من أتباع الحركة ينمو ويتزايد ، حتى بلغوا مائة أو يزيدون في أسبوع واحد • ولما كنا على يقين من أن أعدادا أخرى منهم لا بد وافدة علينا كل يوم ، فقد بقينا على علم بمجريات الأمور خارج السجن دون أن نقرأ صحيفة واحدة •

وكان قد مضى علينا في السجن خمسة عشر يوما حين أنبأنا الوافدون علينا من النزلاء الجدد بأن مفاوضات تجرى مع الحكومة بغية الوصول الى حل مرض كان يتلخص في جوهره في أن يقوم الهنود بتسجيل أنفسهم طائعين ، حتى اذا قام معظمهم بذلك ، نسخت الحكومة القانون الأسود ، وهو الاسم الذى أصبح يطلق على قانون تسجيل الآسيويين •

وقد أخذوني بعد ذلك الى بريتوريا لمقابلة الجنرال سمطس ، وبعد مناقشة بيني وبينه في تعديل هذا القانون على الوجه الذى اقترحته عليه ، تم الاتفاق على تسوية ترضى الطرفين ، وأعقب ذلك الافراج عن جميع المسجونين من أتباع الحركة ، ثم أخذت أتجول في أرجاء البلاد لكي أفسر لمواطني فحوى هذه التسوية •

٥٣ ــ استئناف حركة الساتياجراها

قام الهنود بتسجيل أنفسهم طائعين مختارين حسب الاتفاق الذى تم بيننا وبين الحكومة فلم يبق الا أن تلغى الحكومة « القانون الأسود » . ولكن المستر سمطس ، بدلا من أن يلغى هذا القانون ، اتخذ خطوة ايجابية لدعم الخطة التى كانت الحكومة سادرة فيها ، فاستبقى القانون الأسود فى قائمة التشريعات المعمول بها مكتفيا باستصدار نص تشريعى يعترف بصحة تسجيل الطلبات التى تقدم بها أصحابها بعد الموعد القانونى الذى حدده فى الأصل قانون تسجيل الآسيويين ، ويعفيهم من العقوبة التى ينص عليها ذلك القانون .

وذهلت وأنا أطالع مشروع القانون الجديد المقترح . ولم يلبث القائمون بحركة الساتياجراها أن أصدروا الى الحكومة « انذارا نهائيا » يقولون فيه : « اذا لم يلغ قانون تسجيل الآسيويين طبقا للتسوية التى تم الاتفاق عليها مع الحكومة ، واذا لم يصل الى الهنود ما يفيد عزم الحكومة على اتخاذ قرار بذلك قبل موعد معين فسوف تحرق البطاقات التى استخرجها الهنود وسيتحمل هؤلاء ، فى تواضع تصحبه ارادة قوية وعزيمة لا تلين ، كل ما قد يترتب على ذلك من نتائج » .

وجعل موعد انتهاء هذا الانذار اليوم المحدد لنظر مشروع القانون الجديد أمام الهيئة التشريعية ، ورتب فى الوقت عينه اجتماع عام يعقد بعد انتهاء أجل هذا الانذار بساعتين لاحراق بطاقات التسجيل علنا . وكان من رأى اللجنة التنفيذية لحركة الساتياجرا أن مثل هذا الاجتماع لن يخلو من فائدة ، حتى ولو رأت الحكومة ، على غير انتظار،

أن ترسل ردا مرضيا على هذا الانذار ، فهو يتيح لها فى تلك الحالة اعلان النبأ على أفراد الجالية ٠

واذ كانت الاجراءات الأولى فى هذا الاجتماع توشك أن تبدأ ، وصل الى مكان الاجتماع أحد المتطوعين يركب دراجة ويحمل فى يده برقية من الحكومة تبدى فيها أسفها على اصرار الجالية الهنـدية على موقفها ، وتعلن أنهـــا لا تستطيع تغيير مسلكها فى هــذا الصدد ٠ وتليت البرقية على المجتمعين فاستقبلوها بالهتاف ، كما لو كانوا فرحين بأن فرصة اجتماعهم لاحراق بطاقاتهم علنا لم تضع سدى ٠

وكانت اللجنة قد تسلمت فى ذلك الوقت حوالى الالفين من هذه البطاقات فأخذ المستر يوسف ميان يلقى بها فى النار بعد أن بللها بالبترول ٠ وهنا هب المجتمعون واقفين وظلوا يهتفون فيتردد هتافهم فى أجوّاز الفضاء طيلة عملية احراق البطاقات ٠ ولم يلبث من كانوا حتى الآن محجمين عن مجاراة زملائهم مترددين فى تسليم بطاقاتهم أن تقدموا بها الى المنصة فلقيت المصير الذى لقيته بطاقات اخوانهم ٠

وكان تأثر المراسلين والصحفيين الانجليز الذين حضروا الاجتماع بهذا المشهد بليغا ، فأرسلوا وصفا دقيقا الى صحفهم بكل ما حدث ٠

وفى نفس السنة التى صدر فيها القانون الأسود ، استطاع الجنرال سمطس أن يظفر بموافقة الهيئة التشريعية فى الترنسفال على مشروع قانون آخر اسمه قانون (تقييد) الهجرة الى الترنسفال ، كان من شأنه أن يحول بطريق غير مباشر دون مجىء هندى واحد جديد الى الترنسفال ٠

وكان لابد للهنود من مقاومة هذا العدوان الجديد على حقوقهم ، فشرع عدد من أتباع حركة الساتياجراها يدخلون الترنسفال عمدا مما أدى بهم الى السجن • وقد سجنت أنا كذلك فى تلك المناسبة حتى بلغ عدد من سجنوا منا فى سجن مدينة فولكسراست وحدها خمسة وسبعين هنديا • وارتج على الحكومة فلم تدر ماذا تصنع ، فما كانت تستطيع أن تلقى بالهنود جميعا فى غياهب السجن ، هذا الى مايكلفها ذلك من نفقات لا طاقة لها بها لاعالتهم وهم فيه ، وهكذا أخذت تبحث عن وسائل أخرى لمواجهة الموقف ، وانتهت الى ابعاد بعض المخالفين الى الهند • على أن هذا الاجراء اذا كان قد أخاف بعض الهنود فان كثيرين منهم قد ظلوا ثابتين واستمروا يواصلون جهادهم •

٥٤ ـ مزرعة تولستوى

ظلت أسر المجاهدين الذين تعرضوا لحياة السجون تعيش حتى ذلك الوقت (سنة ١٩١٠) على هبات شهرية تصرف لهم نقدا حسب حاجة كل منها • غير أن هذه الطريقة كانت غير مرضية فضلا عما كانت تستنفده من مواردنا • ولم يعد أمامنا سوى مخرج واحد من هذا المأزق ، وهي أن نجمع هذه الأسر جميعها فى مكان واحد فيصبحوا أعضاء فى جماعة تعاونية مترابطة •

ومن ثم فقد اشترى المستر كالينباش ، وهو واحد من أصدقائى الحميمين ، مزرعة تبلغ مساحتها قرابة ١٠٠ر١ فدان ، وأعطاها لأعضاء حركة الساتياجراها ليستغلوها دون أن يدفعوا فى ذلك أجرا• وكان بالمزرعة نحو ألف شجرة مثمرة وفيها بيت صغير عند سفح أحد التلال يتسع لستة أشخاص • أما الماء فكان يؤتى به من بئرين فى المزرعة ومن جدول ماء صغير يجرى فيها • وكانت محطة لولى ، وهى أقرب محطة سكة حديد لها ، تبعد عنهـا بنحو ميـل ، كما كانت جوهانسبرج تقع منها على مسيرة ٢١ ميلا • وقد استقر رأينا على أن نقيم فوقها بيوتا تكفى لنزلائها ، وأن ندعو أسر المشتركين فى حركة الساتياجراها الى الاقامة فيها •

وصممنا فيما بيننا على ألا نستعين بالخدم فى أداء الأعمال المنزلية ، وأن نتجنب استخدام أحد من الخارج ، حتى فى أعمال الزراعة والبناء ، فنؤدى ذلك كله بأنفسنا • ومن ثم فقد كنا نعمل كل شىء بأيدينا من طهو الطعام الى الكنس وغيره • واتفقنا فيما يختص

باسكان النزلاء فى المزرعة علـــى أن تكون للرجال والنســاء بيوت منفصلة ، كل فريق له مساكنه الخاصة ٠ وقد اقتضى ذلك أن تتألف البيوت من عمارتين منفصلتين بينهما مسافة معقولة بحيث تتسعا فى مجموعهما لايواء عشرة من النساء وستين من الرجال ٠ ثم كان علينا بعد ذلك أن نبنى بيتا خاصا بالمستر كالينباش وأن نقيم الى جانبــه مدرسة للأطفال وما يتصل بها من ملحقات مما يلزم لأعمال النجارة وصناعة الأحذية والجلود وما الى ذلك ٠

وكان نزلاء المستعمرة ينتمون الى ديانات مختلفة ٠ كان فيهم الهندوسى والمسلم والمجوسى والمسيحى ٠ كان فيهم الشيب والشبان ، الرجال والنساء ، الأولاد والبنات ٠

أما الضعفاء فقد أصبحوا أقوياء فى مزرعة تولستوى وثبت أن العمل كان علاجا ناجعا بالنسبة لهم ٠

وقد تبين لنا بعد ذلك أن كل واحد من النزلاء كان يريد أن يذهب الى المدينة (جوهانسبرج) بحجة أو بأخرى ، ولا يستثنى من ذلك الأطفال أنفسهم لما لمجرد السفر من شهوة فى نفوسهم ٠ كذلك أنا كان على أن أذهب اليها أحيانا فى بعض أعمالى ٠ ولذلك فقدوضعنا لأنفسنا قاعدة ، هى أن يكون سفرنا اليها بالسكة الحديد فىالأعمال التى تقتضيها حاجة جماعتنا الصغيرة وحدها ، وأن يكون السفر فى تلك الحالات بالدرجة الثالثة ٠ أما من كان يبغى من وراء سفره لهوا وسرورا ، فقد كان عليه أن يذهب اليها سيرا على الأقدام ، وأن يحمل معه من الزاد ما تخرجه المزرعة دون سواه ، حتى لا ينفـــق على طعامه شيئا وهو فى المدينة ، وكان عادة يتألف من الخبز المصنوع من القمح غير المقشور ، ومن المسلى المستخرج من الفول السودانى ، ومن مربى النارنج ، وهى كلها مما يصنع فى المزرعة ٠ والواقع أنه لولا

هذه القيود الشديدة لذهب المال الذى ندخره من اقامتنا في بيئة ريفية في أجور السكك الحديدية وفى الرحلات المختلفة الى المدينة ٠

لقد كان هدفنا الأساسى من وراء ذلك كله أن نجعل مزرعتنا خلية تنبض بالحياة وتفيض بالنشاط الزراعى والصناعى ، فنوفر مالنا ونجعل من النزلاء جماعة تسد حاجتها بنفسها ، حتى اذا حققنا ذلك استطعنا أن نقاوم حكومة الترنسفال الى أقصى حدود المقاومة ٠ من ذلك أنه كان علينا أن ننفق بعض المال فى شراء ما نحتاج اليه من الأحذية ، ولذلك قررنا أن نصنع أحذيتنا بأنفسنا ، فتعلمنا هذه الحرفة وأخذنا نصنع الأحذية ونبيعها ٠ كذلك أدخلنا صناعة النجارة حتى نسد حاجتنا من مختلف الاصناف ، من كراسى الى صناديق الى غيرها ، واستطعنا أن نصنعها جميعا ٠

وكان لابد لنا من انشاء مدرسة للصغار والأطفال ٠ على أن هذه المدرسة كانت أكثر واجباتنا صعوبة وأشدها تعقيدا ٠ والواقع أننا لم نستطع أن نحقق فى هذه الناحية نجاحا تاما حتى النهاية٠ لقد كان عبء التعليم يقع فى معظمه على كاهل المستر كالينباش وعلى كاهلى ٠ ولم يكن فى استطاعتنا أن نبدأ التعليم فى هذه المدرسة الا بعد الظهيرة فى وقت كنا فيه متعبين منهكين من جراء عملنا فى الصباح ٠ وكذلك كان تلاميذنا ٠ كان النعاس كثيرا ما يغلب المعلم والمتعلم خلال الدروس فكنا نرش الماء فى أعينهم وأعيننا ، ونحاول عن طريق اللعب أن نعيد النشاط الى نفوسهم ونفوسنا ، ولكن ما أكثر ما كانت جهودنا فى هذه الناحية تذهب عبثا ، فقد كانت أجسامنا وقتها فى حاجة الى الراحة ، ولم تكن لتقبل عن الراحة بديلا ٠

ولم يكن ذلك الا جانبا واحدا من الصعوبات التى واجهتنا فى مهمتنا التعليمية ، بل لعلها كانت أقل هذه الصعوبات شأنا ، اذ أنى

لنـا أن نعلم أطفالا يتكلمون ثلاث لغـات متباينة هى الجوجيراتية والتاميلية والتيولوجية ؟ لقد كنت تواقا الى أن أجعل من هذه اللغات جميعها وسيلة للتعليم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ، وأنا لا أعرف من التاميلية الا القليل ، ولا أعرف من التيولوجية شيئا ؟ ولعمرى لست أدرى ماذا كان يمكن أن يفعل مدرس واحـد فى مثل تلك الظروف ٠

على أن تجربتنا فى التعليم لم تكن عديمة الفائدة بالكلية ، فقد أبرأت الأطفال من عدوى التعصب ، فتعلموا أن ينظروا بروح خيرة الى ديانات بعضهم البعض ، والى عادات بعضهم البعض ، وأن يعيشوا معا كما تعيش الاخوة ، واكتسبوا فوق ذلك دروسا فى الخـدمة المتبادلة وفى الآداب العامة وفى الأعمال اليدوية ٠ وان ما أعرفه عن أحوال بعض تلاميذ المزرعة فى مستقبل حياتهم ، على قلته ، ليحملنى على القول بأننى واثق من أن التربية التى تلقوها فى مدرستها لم تكن عديمة الجدوى ، فقد كانت ، على الرغم مما كان يعتورها من نقص ، تجربة تتسم بالتفكير العميق وبالنزعة الدينية ٠

انها تجربة لها ذكريات حلوة كأحلى ما تكـون ذكرياتى عن مزرعة تولستوى ٠

٥٥ ـ النساء يشتركن فى الجهاد

جاء جوكهال الى جنوب افريقيــة فى أكتوبر عام ١٩١٢ لــكى يتوسط بين القائمين بحركة الساتياجراها وبين الحكـــومة فوعده الجنرال بوثا ، حسب رواية جوكهال ، بالغاء القانون الأسود فى خلال عام واحد ، ورفع ضريبة الجنيهات الثلاثة عن كاهل الهنود ، ولكنه لم يوف بوعده ٠

وكتبت لجوكهال أنبئه بهذا الحنث فى الوعد ، ثم أخــذت أعد العدة لحملتنا المستقبلة ٠ وقد أكدت لجوكهال أننـــا سنجاهد حتى الموت ، وأننا لا بد منتزعون من حكومة الترنسفال ، على كره منها ، قانونا بالغاء هذه الضريبة المجحفة ٠ وكنا ندرك ما قد يجره علينا ذلك من عقوبة السجن لمدة طويلة ٠ ولذلك فقد قررنا أن نغلق مزرعــة تولستوى وأن نتخذ من مزرعة فينكس مقرا لعملياتنا بالنظر الى ملائمة موقعها لما كنا نعتزم القيام به ٠

وبينما الاستعداد لجهادنا المقبل على قدم وساق ، اذ بالحكومة تنزل بنا ضيما آخر كان من أثره أن دفع النساء دفعا الى الاشتراك فى الجهاد ، على الرغم من أننا كنا حتى ذلك الوقت قد حلنا بين النساء وبين أن يعرضن أنفسهن للسجن ٠ فقد حــدث فى ذلك الوقت أن أصدرت حكومة جنوب افريقية حكما يلغى جميع الزيجات التى لم تعقد وفق الطقوس المسيحية ولم تسجل لدى مسجل عقود الزواج ٠وبذلك أضحت جميع الزيجات التى تمت بين الهنود وفق الشريعة الهندوسية أو الاسلامية أو المجوسية غير شرعية بجرة قلم واحد ، واستحــالت

الزوجات فى لمح البصر الى وضع المحظيات ، وحرمت ذراريهن من حقهم في الميراث ·

وما كان الصبر على مثل تلك الاهانة التي لحقت بنسائنا ليجدى فتيلا ، ومن ثم فقد قررنا أن نبـدأ على الفور حركـة عنيدة من الساتياجراها ، لا نبالى في ذلك بعدد من يشتركون معنا في الكفاح · ولم نكن لنستطيع في مثل تلك الظروف أن نحول دون اشتراك النساء معنا ، بل على العكس لقد دعوناهن الى الوقوف مع الرجال صـفا واحدا · وبدأنا أول الأمر بدعوة الأخوات اللائى كن معنا فى مزرعة تولستوى فرحبن بدعوتنا كل ترحيب · وبصرتهن بما قد يتعرضن له من أخطار بسبب اشتراكهن فى الجهاد ، وبما سوف يحتملنه من جراء ذلك من حرمان فى الطعام واللباس وفى حرياتهن الشخصية ، وأنذرتهن بأن الأمر قد ينتهى بهن الى السجن مع الأشغال ، فيكلفن غسل الملابس وما الى ذلك من الأعمـال ، فضلا عما قد يصيبهن من اهانات تلحق بهن على يد السجانات · ولكن هؤلاء الأخوات الفضليات لم يبالين بشىء · كن فى غاية الشجاعة والاقدام ، متحمسات للاشتراك معنا أيا كانت النتائج · ولم يبـق أمامى الا أن أدعهن ينفـذن ما اعتزمن ·

ودخلت الأخوات أرض الترنسفال عنـد قرية فيرينيجنج فلم يقبض عليهن أحد · ثم عملن بائعات متجولات فلم يقبض عليهن أحد كذلك ·

تلقاء ذلك قررنا أن نرسل ست عشرة من الرائدات من بين نزيلات مزرعة فينكس ليخترقن الحدود الى الترنسفال فى الوقت الذى تدخل فيه الأخوات اللائى عجزن عن حمل بوليس الترنسفال على القبض عليهن الى ناتال ، فقد كان دخول الترنسفال من ناتال ، أو ناتال من الترنسفال ، كلاهما مخالفة يعاقب عليها القانون ، حتى اذا قبض على الأخوات وهن يدخلن ناتال كان ذلك ما نبغى ، والا فقد

رتبنا الأمر بحيث يواصلن سيرهن الى نيوكاسل ، وهى مركز من مراكز التعدين الهامة فى ناتال ، حتى اذا بلغنها حاولن حمل العمال الهنود الذين يعملون فيها فى ظل قانون العمل التعاقدى على الاضراب عن العمل ، فقد كان ذلك كفيلا بأن تلقى الحكومة القبض عليهن وعلى العمال على السواء . كانت هذه هى الخطة التى فكرت فيها وعرضتها على أخواتنا فى الترنسفال .

وذهبت الى مزرعة فينكس اطلع الأخوات فيها على خطورة الخطوة التى كن على وشك الاقدام عليها وأشرح لهن الآلام التى قد يتعرضن لها وهن فى السجن ، ولكنهن جميعا كن على استعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، بما فيهن زوجتى ، وآكدن لى أنهن لن يتراجعن ، وليكن ما يكون .

وتحركت الفرقة الآتية من فينكس عبر الحدود الى داخل الترنسفال دون أن يكون معهن رخصة بذلك ، فقبض عليهن وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل .

أما الأخوات اللائى كن فى الترنسفال فقد دخلن ناتال من غير رخصة كذلك ، ومع ذلك لم يقبض عليهن ، فسرن فى طريقهن حتى وصلن الى نيوكاسل وبدأن عملهن فيها وفق الخطة المرسومة . وسرى نفوذهن بين العمال كما تسرى النار فى الهشيم فلم يلبثوا أن أضربوا عن العمل .

ولم يكن فى مقدور الحكومة بعد ذلك أن تترك الأخوات يمارسن نشاطهن الخطر وهن فى مأمن من القبض عليهن ، ومن ثم فقد قبضت عليهن وحكم عليهن بالحبس ثلاثة أشهر .

لقد كانت شجاعة النساء الهنديات فى تلك الأيام مضرب الأمثال. فقد احتجزن جميعا فى سجن ماريتزبرج وتعرضن فيه لمضايقات لا حد لها . كان طعامهن فيه من أردأ الأنواع ، وكن يقمن فيه بغسل

الملابس وكيها ، ولم يكن يسمح لواحدة منهن بأن تحضر طعاما من الخارج ، فقد كانت احداهن مقيدة بنذر نذرته لله يقتضيها أن تعيش على طعام معين ، فلم تسمح لها سلطات السجن بتناول ذلك الطعام الا بعد عناء شديد ، وكان ما قدمته اليها منه مما تعافه النفس ، بل هو لم يكن يصلح طعاما للناس على الاطلاق . وطلبت تلك الأخت بعض زيت الزيتون فرفض طلبها أولا ثم لما جاءوا به اليها كان من نوع قديم زنخ ، فلما عرضت أن تشترى حاجتها من الخارج على نفقتها ، قيل لها ان السجن غير الفندق ، وان عليها أن تأكل ما يؤتى لها به . فلما خرجت من السجن كانت هيكلا عظميا ولم ينقذها من الموت الا الجهود الجبارة التى بذلت من أجل حياتها .

وخرجت أخت أخرى من السجن وهى مريضة بحمى قاتلة ، ولم تمض الا أيام قلائل على خروجها حتى كانت قد أسلمت روحها (٢٢ فبراير سنة ١٩١٤) . يا الهى ! كيف أنسى تلك المرأة ؟ لقد كانت فالياما مانوسوامى موداليار فتاة من جوهانسبرج لم تتعد ربيعها السادس عشر . كانت تلازم الفراش حين ذهبت لزيارتها . كانت طويلة القامة فبدا جسمها الهزيل شيئا مخيفا .

سألتها : « فاليامـا ! ألا تأسفين على ذهابك الى السجن ؟ » .

وأجابت : « آسف ؟ اننى مستعدة لأن أذهب الى السجن مرة أخرى » .

وعدت أسألها : « ألا تخشين أن يؤدى ذلك الى موتك ؟ » .

وكان جوابها : « انى لا أبالى . فمن ذا الذى لا يحب أن يموت من أجل الوطن ؟ » .

وبعد أيام معدودات من ذلك الحديث لم تعد فاليامـا معنا بجسدها ولكنها خلفت لنا اسما لن يمحوه الزمن .

٥٦ ـ سيل من العمـــال

كان لحبس النساء أثر السحر فى نفوس العمال الهنود الذين يشتغلون فى المنـــاجم القريبة من نيوكاسل ، فلم يلبثوا أن ألقـوا أدوات العمل وساروا فى جموع متعاقبة على المدينة . فلمـا وصلنى نبؤهم تركت فينكس على الفور وذهبت الى نيوكاسل .

ولم يكن لهؤلاء العمال بيوت خاصة بهم ، بل كان أصـــحاب المناجم هم الذين ينشـــئون لهم بيوتا يقيمون فيهـــا ، وهم الذين يمدونهم بالنور ، ويزودونهم بحاجتهم من الماء . وكانت نتيجة ذلك بالطبع أن أضحى هؤلاء العمال فى وضع من التبعية يجعل حيـاتهم معتمدة كل الاعتماد على ارادة أصحاب العمل .

وجاء العمال المضربون الى بقائمة عريضة من الشكايات . قال بعضهم ان أصحاب المناجم قطعوا عنهم النور والمـاء ، وقال البعض الآخر ان أثاثهم ومتـــاعهم ألقى به خارج بيوتهـم . وقلت لهم انه لا سبيل لهم بازاء ذلك الا أن يهجروا بيوت أصحاب المنـــاجم وأن يخرجوا منها جماعة واحدة كما يخرج الحجاج مهاجرين فى سبيل الله.

ولم تكن أعداد هؤلاء العمال تقف عند حدود العشرات أو المئات بل جاوزتها الى حدود الآلاف المؤلفة . وحرت كيف أهىء لهذا الجمع الخفير مسكنا ، وكيف أمدهم بما يحتاجـــون اليه من طعام وزاد . واهتديت أخيرا الى حل لتلك المشكلة ، وهو أن أسير بهذا «الجيش» العرمرم الى الترنســفال ، حتى اذا وصلناها أودعتهم السجن آمنين

مطمئنين كما دخل السجن أخوات لهم من قبل من نزيلات مزرعـــة فينكس • كان قوام الجيش خمسة آلاف رجل ، ولم يكن عندى من المال ما يكفى لدفع أجور انتقالهم اليها بالسكة الحديد • واذن فهم لن يستطيعوا أن يذهبوا اليهـــا راكبين • ثم لو أنهم ذهبوا اليهـــا بالسكة الحديد فلن تكون أمامى فرصة لكى أعجم عودهم • وقررت أخيرا أن نذهب اليها سيرا على الأقدام •

وقد كان بعض هـــؤلاء العمـــــال يصطحبون معهم زوجاتهم وأطفالهم • ولذلك فقد ترددوا فى موقفهم • ولم يعد أمامى تلقاء ذلك سوى أن أستجمع شجاعتى وأن أقول لهم فى غير ضعف أو وهن ان من أراد منهم أن يعود الى عمله فى المناجم فما عليه الا أن يشد رحاله اليها مرة أخرى • على أن أحدا منهم لم يشأ أن يفيد من هذه الرخصة التى أعطيتها لهم • وهكذا استقر قرارنا أخيرا على أن يذهب الضعفاء منا وحدهم بالسكة الحديد • أما القـــادرون ، ومن ليس بهم عاهة تقعد بهم عن السير ، فقد أظهروا جميعـــــا استعدادهم للذهاب الى تشارلستون سيرا على الأقدام •

وأخطر العمال فى احدى الأمسيات بأن رحلتهم ســـتبدأ فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التـــالى (٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣) ، وتليت عليهم التعليمات التى يجب أن يتقيدوا بها خـــلال رحلتهم • ولعمرى ان قيادة جموع غفيرة تصل الى خمسة أو ستة آلاف عدا لم تكن بالأمر الهين فى الأحوال العادية ، فما بالك ولم يكن فى استطاعتى أن أعطيهم من الزاد خلال الطريق أكثر من أن أعطى كل « جندى » منهم رطلا ونصف رطل من الخبز وأوقية واحدة من السكر فى اليوم•

وساعدتنى تجربتى التى اكتسبتها فى حرب البوير و « ثورة » الزولو فى مهمتى ، فلم أسمح لأحد من « الغزاة » بأن يحمل معه من

الملبس أكثر مما يحتاج اليه ، أو أن يلمس ما يخص غيره في الطريق، وبصرتهم بضرورة الصبر والاحتمال اذا قابلهم أحد من الاوروبيين ، موظفا رسميا كان أم غير موظف ، فأساء اليهم أو حتى اعتدى عليهم . وقلت لهم ان عليهم أن يسمحوا لرجال الشرطة بأن يقبضوا عليهم اذا شاءوا ، وأن يواصلوا سيرهم اذا قبض علي . وألا يرتدوا على أعقابهم خاسرين . كل هـــذا وغيره أوضحته لهم . كما أعلنت أسـماء من يخلفونني على التوالي في قيادة « الجيش » اذا حدث ما يحول بيني وبين أن أكون معهم .

ووصلت قافلتنا بسلام الى قرية تشارلستون ، فأخذ التجـار الهنود المقيمون فيها يقدمون الينا مساعدات قيمة ، فوضعوا بيوتهم تحت تصرفنا ، وسمحوا لنا باستخدام الأراضي المحيطـة بالمسجد لاعداد طعامنا ، وأمدونا في سبيل ذلك بما كنا في حاجة اليـه من أدوات الطهو .

ولم أتردد أنا وزملائي المشرفون على الحملة في القيام بأعمال الكنس والمسح وما شاكلها ، مما دفع غيرنا الى أن يعملوا مثلما عملنا، فما كان يجدي في مثل تلك الحالات أن نصدر الأوامر الى غـيرنا . فلو أننا اكتفينا بالأوامر والتعليمات نصدرها الى غيرنا لاتخذ كل منهم من نفسه زعيما ثم شرع يملي على غيره ما يفعله ، وتكون النتيجة ألا شيء يفعل على الاطلاق . أما حيث يصبح الزعيم نفسـه خادما فلن تكون ثمة منافسة على الزعامة .

٥٧ ـ الزحف العظيم

كتبت الى الحكومة ونحن فى تشارلستون أقول لها اننا لا نزمع دخول الترنسفال بقصد الاستيطان فيها ، واننا انما ندخلها كوسيلة فعالة للاحتجاج على حنث الوزير بعهده ، واظهارا لألمنا وحزننا على ما أصابنا من اهدار لكرامتنا ، وان الحكومة تستطيع أن تريحنا من حيرتنا وقلقنا لو أنها تفضلت فألقت القبض علينا حيث نحن. وانتهيت من كتابى اليها ، بعد أن آكدت لها بأن اضراب العمال عن العمل سوف ينتهى ، وبأنهم سوف يعودون الى عملهم على الفور اذا هى ألغت ضريبة الجنيهات الثلاثة . أما سائر المظالم التى كنا نشكو منها فقد قلت لها فى كتابى اننا لا مصلحة لنا فى مواصلة انضمامهم الى حركة جهادنا العامة .

وما كنا فى موقف كهذا نستطيع أن نترقب رد الحكومة على كتابى أياما طويلة . ولذلك فقد قررنا أن نغادر تشارلستون وأن ندخل الترنسفال على الفور ، فاذا قبض علينا خلال ذلك كان بها ، والا فان « جيش السلام » سوف يواصل سيره من عشرين الى أربعة وعشرين ميلا فى اليوم لمدة ثمانية أيام متتالية حتى يصل الى مزرعة تولستوى ثم يبقى فيها الى نهاية الكفاح .

فلما استكملنا عدتنا للزحف رأيت أن أقوم بمحاولة أخيرة للوصول الى تسوية مع الحكومة بعد أن كنت قد أرسلت اليها عددا من الخطابات والبرقيات . فقررت أن أتصل بها تليفونيا حتى ولو قوبلت محاولتى بالصد ، فكان رد الحكومة منطويا على اهانة لى ، اذ

جاءنى منها الرد التالى بعد نصف دقيقة على لسان المتحدث باسمها : « الجنرال سمطس لا شأن له بك • افعل ما تريد » • بهذه الكلمات انتهت رسالة الحكومة • لقد كنت أنتظر هـــذه النتيجة ، ولكنى لم أكن أتوقع مثل هذا الرد الجاف •

وفى اليوم التالى ، بمجرد أن حانت ســـاعة الصفر (٣٠ر٦ صباحا) أدينا الصلاة ، ثم بدأ سيرنا باسم الله وعلى بركة الله •

وقد كان من المقرر أن نتوقف فى أول يوم من أيام زحفنا عند بالمفورد لنمضى فيها ليلتنا • فلما وصلناها فى حوالى الساعة الخامسة مساء أخذ الحجاج زادهم من الخبز والســكر ثم انتشروا فى العراء وانصرف بعضهم يتجاذبون أطراف الحديث ، وأخـــذ البعض الآخر يرتلون الأناشيد الدينية •

فلما أرخى الليل ستاره ، وسكنت الأصوات ، وأخذت أستعد للنوم ، سمعت وقع أقدام مقبلة • ثم أبصرت أحد الأوروبيين يتقدم نحونا وقد أمسك بيده مصباحا • وفهمت ماذا يعنى مجيئه فى تلك الساعة • فلما كان بجانبى قال يخاطبنى : « عنـــدى أمر بالقبض عليك وأزمع تنفيذه الآن » • وســـألته : « والى أين تذهب بى ؟ » فأجاب : « الى محطة السكة الحديد القريبة ثم الى فولكسرست عندما نجد قطارا » •

وأيقظت ب•ك• نايدو ، وكان ينام بالقرب منى ، وأنبأته بخبر القبض على وطلبت اليه ألا يوقظ « الحجاج » الا فى الصباح • فاذا طلع النهار وجب أن يستأنفوا سيرهم قبل طلوع الشمس • حتى اذا انتهوا من يومهم وجلسوا ليأخذوا مئونتهم من الطعام أطلعهم على نبا

القبض على ، وأوصيته اذا قبض على الحجاج ألا يقاوموا ، بل عليهم أن يستسلموا ، والا واصلوا سيرهم طبقا للخطة الموضوعة ٠

فلما مثلت أمام محكمة فولكسراست فى صباح اليوم التالى طلب المدعى العام حبسى على ذمة التحقيق أربعة عشر يوما حتى يستوفى الأدلة وأجلت القضية بناء على ذلك ٠ وطلبت الافراج عنى بالنظر الى هذا الجيش الهائل من الرجال والنساء والأطفال الذين فى عهدتى ، لعلى أستطيع أن أصل بهم الى نهاية رحلتهم خلال فترة التأجيل ٠ وعارض المدعى العام فى ذلك ، على الرغم من حق كل مسجون غير متهم فى جريمة من الجرائم فى الخروج بكفالة ٠ وماكان للقاضى أن يحرمنى من الاستمتاع بحق يخوله لى القانون ، ولذلك فقد أفرج عنى بكفالة قدرها خمسون جنيها ٠ وكان المستر كالينباش قد أعد عربة لى فأخذنى لالحق بركب « الغزاة » ٠

وواصلنا زحفنا ، غير أن الحكومة لم تشأ أن تتركنى حرا ، ومن ثم فقد أعادت القبض على ونحن عند مدينة ستاندرتون فى اليوم الثامن من الشهر ، وان كان القبض على لم يخل من بعض الطرافة فى هذه المرة ، فقد كنت منهمكا فى توزيع الخبز وبعض مربى البرتقال التى جاءتنا هدية من التجار الهنود فى تلك المدينة على « الحجاج » عندما وقف القاضى بجانبى ، وانتظر حتى انتهيت من توزيع المؤونة ، ثم نادانى جانبا وقال وهو يضحك : « انك سجينى » ، وأجبته : « يبدو أن مرتبتى قد ارتقت الى حد أن يأتى القاضى بنفسه للقبض على ، بدلا من أن يترك ذلك لرجال البوليس » ٠

فلما وصلنا الى دار المحكمة فى ستاندرتون وجدت بعض زملائى هناك ، اذ كان قد قبض على خمسة منهم كذلك ٠ وأتى بى أمام المحكمة على الفور ، فطلبت التأجيل مع الكفالة لنفس الأسباب التى

أبديتها فى محاكمتى السابقة فى فولكسراست • وقد عارض المدعى العام هذا الطلب بشدة كما عارضه زميل له من قبل • وأفرج عنى هذه المرة كذلك بضمان قدره خمسون جنيها ، وأجلت القضية الى يوم ٢١ • ولحقت بموكب « الحجاج » بعد أن ساروا فى طريقهم مسافة لم تكد تزيد على ثلاثة أميال • وظننت وقتها . كما ظن غيرى ، ان فى استطاعتنا بعد كل هذا أن نبلغ مزرعة تولستوى فى النهاية . ولكن الأمور جرت على خلاف ما كنا نظن •

فقد كنا فى ذلك الوقت قريبين من جوهانسبرج ، وكان ركب الحجاج قد انقسم الى ثمانية أقسام كل قسم عند مرحلة من مراحل الطريق • وهكذا استطعنا حتى ذلك الوقت تنفيذ برنامجنا حسب الخطة المرسومة بالضبط وبقيت أمامنا مسيرة أربعة أيام لكى نتم زحفنا • على أنه بقدر ما كانت روحنا المعنوية ترتفع يوما بعد يوم ، بقدر ما كان قلق الحكومة وحيرتها فى ازدياد مستمر حتى لم تعد تدرى ما تفعل لوقف هذا الزحف الهندى • فلو أنها قبضت علينا بعد أن نصل الى غايتنا لاتهمت بالضعف وبدت مفتقرة الى كل معنى من معانى الكياسة السياسية • واذن ، فاذا كان لابد من القبض علينا فليكن ذلك قبل أن نصل الى أرض الميعاد •

ولحق بولاك بالركب عند مدينة تيكورت فى اليوم التاسع من الشهر • وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين كنا ، أنا وهو ، فى مقدمة الركب نتحدث فى شئوننا بينما كان بعض الزملاء ينصتون الى حديثنا • واتفقنا على أن يسافر بولاك بقطار المساء الى دربان فى طريقه الى الهند ليعرض حقائق الموقف على حكومتها ، ولكن الله تعالى لا يسمح للانسان فى جميع الحالات بأن يحقق ما قدره لنفسه • فبينما نحن منهمكون فى الحديث اذا بعربة تقف أمامنا ويخرج منها مدير ادارة الهجرة فى الترنسفال وضابط من ضباط البوليس ثم

يسيران بى جانبا ويقول أحـدهما : « اننى أقبض عليك » • وهكذا قبض على ثلاث مرات فى أربعة أيام •

وسألتهما : « وما العمل في أولئك الزاحفين ؟ » •

وكان الرد : « اترك هذا لنا فهذه مسئوليتنا ! » •

ولم أزد كلمة واحدة فى حديثى معهما واكتفيت بأن طلبت الى بولاك أن يتـــولى مسئولية الحجاج وأن يلازمهم فى زحفهـم • ولم يسمح لى ضابط البوليس بأن أتحدث الى الركب بأكثر من أن أنبئهم بخبر القبض على ، فلما شرعت أطلب اليهم المحـــافظة على الأمن الى آخر ذلك قاطعنى قائلا : « انك الآن سجين ، والسجين لا حق له فى أن يخطب فى الناس » •

وسير بى الى جريلنجستاد ومنهـــا الى هيدلبرج حيث قضيت ليلتى • أما الحجاج فقد استأنفوا سيرهم بزعامة بولاك ثم توقفوا عند مدينة جريلنجستاد لقضاء ليلهم • وفى الساعة التاسعة من صـــباح اليوم التالى كانوا قد وصلوا الى مدينـــة بالفور ، حيث كانت ثلاثة قطارات خاصـــــة من قطارات السكة الحـديد تنتظرهم فى المحطة لتحملهم الى حيث يبعدون الى ناتال •

٥٨ ـ انتصار الساتياجراها

جيء بي بعد القبض على الى مدينة داندى ، وهى الجهـــة التى صدر منها أمر القبض ، ووقفت أمام قاضيها متهما بتحريض العمال المقيدين بعقود العمل على الهجرة من ولاية ناتال .

وحوكمت فى يوم ١١ ، وحكم على بالسجن مع الأشغال الشاقة تسعة أشهر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد كان على أن أواجه محاكمة أخرى أمام محكمـــة فولكسراست متهمـــا بتحريض بعض الأشخاص على دخول الترنســـفال ممن لا حـــق لهم فى دخولهـــا ، ومعاونتهم على تنفيـــذ ذلك . ومن ثم فقـــد رحلت فى يوم ١٣ الى فولكسراست حيث فرحت بلقاء بولاك وكالينباش ، وكان قد قبض عليهما ، وبقينا أياما نسعد بصحبة بعضـــنا البعض ، الى أن عادت الحكومة ففرقت بيننا ووضعتنا فى سجون مختلفة .

ونعود الى « الحجاج » مرة أخرى . فقد سارت بهم القطـارات الخاصة الى ناتال حيث كانت الحكومة قد ضربت حول مناجم الفحم أسوارا من الأسلاك الشائكة ، واعتبرت هـــذه الحظائر فروعا من سجنى داندى ونيوكاسل ثم أقامت من موظفى المنـــاجم الأوروبيين حراسا على المسجونين فيها ، بعد أن وضعت العمال الهنود داخلها ، وطلبت اليهم أن يعملوا فى نطاق هذه السجون المستحدثة . وهكذا انقلب العمال الهنود ، بين يوم وليلة ، الى عبيد لا أكثر ولا أقل . فلما أبوا أن يعملوا فى المنـــاجم فى تلك الظروف ألهبت ظهـورهم بالسياط وتعرضوا للركل والسباب . وقد أرسلت برقيات بهـــذه

الأعمال الوحشية الى الهند فثارت ثائرتها من أقصاها الى أدناها حتى أصبحت مسألة جنوب افريقية الموضوع الذى يشغل الرأى العام فيها.

بل لقد حفز ذلك اللورد هاردنج ، وكان نائب الملك وقتئـذ ، على أن يلقى خطـابه المشـهور فى مدراس فى ذلك الوقت (١٣ ديسمبر) ، ذلك الخطاب الذى كان له وقع شديد فى جنوب افريقية وفى انجلترا على السواء ، وقيل وقتها ان نائب الملك لا حق له فى أن ينقد علنا الولايات الأخرى الأعضاء فى الامبراطورية البريطـانية . على أن اللورد هاردنج لم يقف عند حد توجيه اللوم الى حكومة جنوب افريقية ، بل دافع كذلك عن القائمين بحركة الساتياجراها ، ممـا كان له أحسن الأثر فى نفوس الجميع فى الهند .

والحق أنه ما كان لحكومة اتحاد جنوب افريقية أن تبقى الآلاف من الأبرياء فى السجون ، وما كان نائب الملك فى الهند بمستطيع أن يحتمل هذا الذى حدث. وأخذ العالم كله يترقب باهتمام ما عساه يفعله الجنرال سمطس بعد ذلك . أما ما فعله فهـو ما كانت تفعله جميع الحـكومات فى مثل تلك المناسبات . ذلك أن البـلاد التى تحسب حسابا لقوة الرأى العام تتخلص فى العادة من مثل هـذه المواقف بتعيين لجنة تجرى تحقيقا صوريا وتكون توصياتها مرسومة من قبل . وقد جرى العرف السائد على أن تقبل الحكومة ما تسفر عنه أعمال هذه اللجان من توصيات ، وبذلك تهيىء لنفسها فرصـة لتطبيق العدالة التى حالت دون تطبيقها من قبل. وهكذا عين الجنرال سمطس الآن لجنة قوامهـا ثلاثة أعضاء أوصت بأنه « لـكى يكون التحقيق تاما ودقيقا بقـدر الامكان » يجب الافراج عن كالينباش وبولاك وعنى . وقبلت الحكومة تلك التوصية على الفور وأفرجت عن ثلاثتنا فى يوم واحد (١٨ ديسمبر سنة ١٩١٣) ، بعد أن كنا قد أمضينا فى السجن مدة لا تزيد على ستة أسابيع .

وشعرنا حينئذ ان من حق الهنود الذى لا يماريهم فيه أحد أن يسمح لهم بترشيح مندوب واحد منهم على الأقل ليكون عضـوا فى اللجنة ، فكتبت بذلك الى الجنرال سمطس ، ولكنه أبى أن يزيد عدد أعضاء اللجنة عضوا واحدا ٠ ومن ثم فقد أخذنا نستعد للعودة الى السجن مرة أخرى ، وأعلنا أن فريقا من الهنود ممن يبتغون حيـــاة السجون قد اعتزموا الزحف من مدينة دربان فى اليـــوم الأول من شهر يناير سنة ١٩١٤ ٠

وصادف صدور هذا الاعلان وقوع اضراب عام بين عمال سكك حديد اتحاد جنوب افريقية مما جعل موقف الحكومة غاية فى الحرج٠ فلما طلب الى زملائى فى الكفاح أن أنتهز هذه الفرصة المواتية لكى نبدأ زحفنا على الفور أعلنت لهم أن الهنود لا يمكنهم أن يساعدوا عمال السكة الحديد المضربين بهذا الأسلوب ، فهم لا يهـدفون الى احراج الحكومة ، وكفـــاحهم يختلف عن كفاحهم ويرتكز على أسس غـــير الأسس التى ترتكز عليها حركتهم ، وأضفت الى ذلك أننا حين نقوم بزحفنا فسوف نقوم به بعد أن تنتهى مشكلة عمال السكة الحديد ٠

وكان لقرارنا هذا أثر عميق فى نفوس الجميع وأرسل نبؤه الى انجلترا بالبرق ، كما قدره أصدقاؤنا الانجليز وغـــيرهم فى جنوب افريقية الى حد دفع أحد سكرتيرى الجنرال سمطس الى أن يقـــول مازحا : « اننى لا أحب قومك ولا يعنينى أن أســـاعدهم فى شىء ، ولكن ما حيلتى ؟ انكم تتقدمون لمعاونتنا فى وقت شـــدتنا ، فكيف نسمح لأيدينا بأن تمتد اليكم بسوء ؟ انى طالما وددت لو أنكم لجأتم الى العنف كما فعل العمال الانجليز المضربون ٠ اذن لعرفنـــا كيف نتصرف معكم ٠ ان أيديكم لا تمتد بالأذى لأحد ، حتى لأعـدائكم ٠ انكم تسعون الى النصر عن طريق تحملكم للآلام ، ولم تخرجوا يوما

عن حدود اللياقة والمروءة ، وهذا ما يجعلنا ضعافا أمامكم » • كذلك صدر عن الجنرال سمطس نفسه مثل هذا القول •

وقد ترك هذا الموقف وغيره من المواقف المماثلة أثرا عميقا فى كل مكان ، ورفع من قدر الهنود فى أعين الجميع ، وخلق جوا ملائما للوصول الى تسوية • وبدأت آكاتب الجنرال سمطس عن عمل لجنة التحقيق ، ووصلنا فى النهاية الى اتفاق بيننا ، بعد أن أوصت اللجنة فى تقريرها بالاستجابة الى طلبات الجالية الهنـــدية • وقد نشرت الحكومة على اثر ذلك فى الجريدة الرسمية قانون (اغاثة) الهنود ، ألغت بمقتضاه ضريبة الجنيهات الثلاثة ، واعترفت بشرعية جميـع الزيجات التى تعتبر شرعية فى الهند ، وجعلت مجرد الحصول عـلى جواز للاقامة يحمل بصمات ابهام صاحبه كافيا لاثبات حق حامله فى الاقامة فى اتحاد جنوب افريقية •

وهكذا انتهت حركة الساتياجراها الكبرى بعد ثمانى سنوات من الكفاح ، وأخذ السلام يرفرف على حياة الهنود فى جنوب افريقية، فأبحرت فى ١٨ يولية سنة ١٩١٤ عائدا الى الهند عن طريق انجلترا ينتابنى شعور مزدوج من السرور والحزن ــ سرور بعودتى الى وطنى بعد غيبة استمرت سنوات طويلة ورغبتى فى خدمته ، وحزن عـلى فراقى لجنوب افريقبة بعد أن قضيت فيه واحـدا وعشرين عاما من حياتى أشارك الناس فيه كثيرا من التجارب الانسانية حلوها ومرها•

٥٩ ـ في الهند مرة أخرى

كان فريق الهنود الذين سافروا الى الهند مباشرة قد وصلوا اليها قبلى ، فلما نزلت من الباخرة فى بومباى علمت أنهم يقيمون فى سانتانيكيتان ، وكنت على أحر من الجمر للقائهم بمجرد أن أنتهى من اجتماعى بجوكهال ٠

وقد غمرنى جوكهال وسائر أعضاء « جمعية خـــدام الهند » بعطفهم وحبهم ، وكان جوكهال قد دعاهم جميعا لمقابلتى ، فكان لى معهم حديث صريح فى كل موضوع من الموضوعات ٠

وكان جوكهال شـــديد الحرص على أن أنضم الى جمعيتـه ، وكذلك فعلت ، وان كان غيره من الأعضـــاء قد شعروا ، بالنظر الى الفارق الكبير بين مثلى ومثلهم ، وطريقتى وطريقتهم ، بأن انضمامى قد لا يكون خطوة موفقة ٠

وكنت قد أطلعت جوكهال على نواياى ٠ قلت له اننى ســـواء قبلت فى عضوية الجمعية أم لم أقبل ، فانى أريد لنفسى صـــومعة (آشرما) أستطيع أن أقيم فيها مع أسرتى من أصدقائى القدماء فى فينكس حيث نعتزل فيها الناس فى بعض الأوقات لنمارس فيهـــا طريقتنا فى الحياة ، وفضلت أن يكون مكانها فى جهة ما من جوجيرات باعتبارى من أهل تلك المقاطعة ، فقد كنت مؤمنا باننى أستطيع أن أخدم بلادى على خير وجـــه عن طريق خدمتى لجوجيرات ٠ وأعجب

جوكهال بالفكرة واستطرد يقول : « ان من واجبك فى الواقـــع أن تفعل ذلك ، وأيا كانت نتيجة حديثك مع أعضاء الجمعية فى هـــذا الصدد فان عليك أن تتجه الى دائما فى كل ما يتطلبه هذا (الأشرم) من نفقات سأعتبرها حتما كما لو كانت نفقاتى الشخصية » ٠

وفاض قلبى فرحا ، فلقد سرنى أن أشعر بأن مسئولية تدبير المال اللازم لأشرمى قد ارتفعت عن كاهـلى ، وأن أحس بأننى لست وحيدا فيما كنت مزمعا الاضطلاع به ، وأننى أستطيع أن أعتمد على مرشد أمين كلما كنت فى حرج ٠ نعم فلقد أزاح جوكهال عن كاهلى عبئا ثقيلا ٠

وانتزع جوكهال منى وعدا بأن أجوب أرجاء الهند لكى أكتسب الخبرة اللازمة بشئونها وألا أبدى رأيا فى مسائلها العامة الا بعد أن أجتاز فترة الاختبار التى كان على أن أمر بها ٠

٦٠ ـ انشاء الأشرم(*)

أنشىء الأشرم فى يوم ٢٥ مايو سنة ١٩١٥ فى سابارماتى ، بأحمد أباد ، فقد كنت أستطيب مدينة أحمد أباد لانها مركز قديم من مراكز الغزل والنسيج ، ومن ثم فقد كانت مكانا صالحا لاحياء هذه الصناعة البيتية الهامة ، ثم هى عاصمة جوجيرات ممـــا يبشر بعون مالى من ثراتها آكثر مما كان يتاح لى فى غيرها ٠

وكان أول شىء واجهناه بعد انشاء الأشرم اختيار اسم صالح له ٠ لقد كانت عقيدتنا الاخلاص فى الحق ، وعملنا البحث عن الحق والتمسك به ، وكنت أريد فوق ذلك أن أبصر النـــاس بأسلوب الجهاد الذى كان لى فى جنوب افريقية لعلى اختبر مدى صـــلاحية تطبيقه فى الهند ٠ ومن ثم فقد اتفقنا ، أنا ورفاقى ، على أن نسميه « صومعة الساتياجراها » ، على اعتبار أن هذه التسمية توحى بالهدف الذى نبغيه والطريقة التى نبغى أن نحققه بها ٠

وكان لابد لادارة هـــذه الصومعة والاشراف على شـئونها من مجموعة من اللوائح يلتزمها نزلاؤها فى حياتهم ، فقد كنا خمســـة وعشرين ، ما بين رجل وامرأة ، نأكل من طعام واحد ، ونحاول أن نعيش كما يعيش أفراد الأسرة الواحدة ٠

(*) اسم أطلقه غاندى على صومعته ٠

على أن الأشرم لم يكد يسلخ من حياته غير بضعة أشهر حتى امتحن فى كيانه امتحانا قاسيا لم أكن أتوقعه ، فقد تسلمت يومئذ خطابا من أمريتلال ثاكار يقول فيه : « ان عائلة متواضعة ، ولكنها أمينة ، من « المنبوذين » تريد أن تلتحق بأشرمك فهل تقبلونها بينكم ؟ » ٠

وكتبت اليه أبدى استعدادنا لقبولهابين ظهرانينا على شريطة أن يقبل أفرادها التزام لوائح الأشرم ٠ وكانت تلك الأسرة تتألف من دودابهاى ، وهو ربها ، ومن زوجته دانيبهن ، وابنتهما لاكشمى ، وكانت بعد طفلة تحبو ، وقد قبلوا جميعا أن يخضعوا لقوانين الأشرم وطريقة الحياة فيه ٠

غير أن قبولهم أثار عاصفة من الاستياء والجزع ، وكان مثار مشكلات عديدة اضطررنا الى مواجهتها ، وكانت أولى هذه المشكلات انقطاع العون المالى عن الأشرم وما صحب ذلك من شائعات تقول ان الناس قد اعتزموا مقاطعته فى النواحى الاجتماعية كذلك ٠ بيد أننا لم نأبه لذلك ، فقد كنا مستعدين لهذا ولأكثر منه ٠ وقد سبق أن ذكرت لرفاقى أننا اذا قوطعنا ، وتقطعت بنا أسباب الحياة فى الأشرم ، فاننا لن نترك أحمد أباد ، بل خير لنا أن نذهب الى حى « المنبوذين » فيها فنعيش فيه على ما نكسبه بعرق جبيننا ٠

وجاءنى ماجنلال غاندى يوما يقول : « لقد غاضت مواردنا حتى لم يعد لدينا ما نقتات به فى الشهر القادم » ٠ على أن هذه لم تكن أول مرة أضطر فيها الى مواجهة مثل هذه المحنة ٠ وكان الله يبعث الينا مددا فى كل مرة فى اللحظة الأخيرة ٠ وكذلك فى هذه المرة ٠ فلم تمض الا أيام معدودات حتى جاءنى أحد الأطفال وهو يقول ان سيدا ينتظر فى عربته خارج الأشرم ويريد أن يرانى ٠ وخرجت

اليه فاذا به يقول : « أريد أن أقدم للأشرم بعض العون فهل تقبلون ذلك ؟ » • وقلت له : « بكل تأكيـــــد • بل انى لأعترف لك بأن مواردنا قد نضبت فى الآونة الحاضرة » •

وفى اليوم التالى جاءت العربة فى نفس الميعاد وأطلقت نفيرها ، وجاء الينا الأطفال يحملون النبأ ، فلما خرجت لمقابلة السيد اذا به يضع فى يدى من أوراق العملة ما قيمته ١٣٫٠٠٠ روبية ثم ينطلق بسيارته •

ولكن العاصفة التى هبت على الأشرم من الخارج بسبب انضمام دودابهاى وأسرته الينا لم تكن شيئا يذكر بجانب العاصـــفة التى هبت عليه من الداخل • فعلى الرغم من أن أصدقاءنا « المنبوذين » فى جنوب افريقية كانوا يأتون الى بيتنا ، ويعيشون بيننا ، ويطعمون مما نطعم ، فان زوجتى وغيرها من النساء لم يستسغن الآن انضمام أصدقائنا « المنبوذين » الى الأشرم ، ولم يصعب على عينى وأذنى أن تتبين فتورهن ، ان لم تكن كراهيتهن ، للسيدة دانيبهن • والحق أن المشكلة المـالية لم تقلق بالى ، أما هذه الزوبعة من الداخل فقد كانت أكثر مما احتمل • فقـد كانت دانيبهن امرأة كسائر النسـاء ليس فيها ما يشينها • أما زوجها فقـد كان يتمتع بقسط طيب من الذكاء وان كان تعليمه محدودا • حقيقة انه كان سريع الانفعال فى بعض الحالات ، ولكننى مع ذلك كنت مأخوذا بقدرته على الاحتمـال وكنت دائب التوسل اليه بأن يتعلم ازدراد بعض الاهانات الصغيرة•

ومع ذلك فقد أثبت دخول هذه الأسرة بيننا انه كان درســا مفيدا للأشرم • فلقد كنا أعلنــا للملأ منذ بدايته أنه لن يقر نظام

« النبذ » ولن يعترف به • ومن ثم فقد كان فى مقدور كل من تحدثه نفسه بأن يمد الى الأشرم يد المساعدة ، أن يأخذ حــــذره من بداية الأمر • أما الآن ، وبعد أن انضمت أسرة دودابهاى الينا ، فان بقــاء عدد كبير من الهندوس ــ وكثيرون منهم من ذوى العقيدة السليمة ــ على معونتهم للأشرم كان دليلا واضحا على أن نظام المنبوذين قد أخذ يهتز من أساسه •

٦١ ـ لطخة « النيلة »

تشامبران هى أرض الملك جاناكا ، وكانت تكثر بهـــا مزارع النيلة حتى سنة ١٩١٧ ، فكان عـــلى مستأجرى الاراضى فى تلك المزارع ، بحكم القانون ، أن يخصصوا ثلاثة أجزاء من كـل عشرين جزءا من أرضهم لزراعة النيلة لمنفعة الملاك ٠

وكان راجكومار شوكلا واحدا من المزارعين الذين يؤرقهم هذا النظام فكان تواقا الى أن يمسح عن جبينه ، وعن جبين آلاف غيره ، عار هذه الوصمة الشائنة ٠ وقد جاءنى يطلب منى أن أزور تشامبران لأشهد بنفسى مدى ما كان يتعرض له الفـــلاحون فيها من بؤس وفاقة ٠

وهكذا غادرنا كلكتـــا فى أوائل سنة ١٩١٧ فى طريقنـــا الى تشامبران ، فلما كنا فى الطريق اليها تخلفنا فى مظفرخان ٠ وقد استقبلنى فيها عند المحطة الأستاذ كريبلانى ، وكان من قبل ناظرا للكلية الأميرية فيها ثم استقال من منصبه قبيل وصولنا ، فتحـدث الى عن الحالة فى بيهار ، ولا سيما فى مركز تيرهوت ، كما وصف لى الصـــعوبات التى كان لابد أن تعترضنى فى بحثى الذى كنت مزمعا الاضطلاع به ٠ كذلك زارنى نفر من المحامين أتوا من جهات مختلفة ، فلم ألبث أن ألفيت نفسى بينهم وكأنى ارتبطت بهم برابطـة وطيدة لا تنفك عراها مدى الحياة ٠ وشرع براجكيشور بابو يطلعنى عـلى حقائق المسألة وتفاصيلها فقد كان له المـام كبير بها بالنظر الى أنه كان دائب الدفاع عن المؤاجرين الفقراء فى قضاياهم أمام المحاكم ٠

وكان هناك عدد كبير من هذه القضايا لا يزال معلقـــا عندما زرت المدينة ٠

وقلت لهؤلاء الأصدقاء : « اننى بعد أن درست هذه القضايا قد وصلت الى نتيجة هامة وهى أن من الواجب الكف عن الالتجـــاء الى المحاكم ، فان الالتجاء اليها لن يفيد كثيرا ، بل هـــو لابد أن يكون عديم الجدوى طالمـــا أن الفلاحين قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وتولاهم الذعر والقلق ، ولن يكون لهم عاصم من ذلك الا أن يأمنوا من الخوف الذى يساور نفوسهم ٠ ونحن فى الوقت نفسه لانستطيع أن نبقى ساكتين حتى يزول هذا النظام على مر الزمن ٠ لقد كنت أظن أننى سوف أستطيع أن أغادركم بعد يومين ، ولــكننى أدرك الآن أن العمل الذى أمامنا قد يطول ، وقد يقتضى منى سنتين ٠ وأنا مع ذلك مستعد لأن أكرس له هـــــذا الوقت اذا اقتضى الأمر ٠ لقــد بدأت أتحسس الأرض التى أقف عليها ولكنى فى حاجة الى مؤازرتكم » ٠

وقال براجكيشور فى هدوء ورباطة جأش : « اننا سنقدم لك كل عون فى مكنتنا ، ولــكن خبرنا بالله عليك ، أى نوع من المعاونة تريده منا ؟ » ٠

وهكذا جلسنا نتحدث حتى انتصف الليل ٠ قلت لهم : « اننى لا حاجة لى بمعلوماتكم القانونية ٠ ان كل ما أريده منكم هو المعاونة فى الأعمال الكتابية وفى نواحى الترجمة ٠ وقد تتعرضون فى خلال ذلك الى السجن ، ولكننى ، على قدر ما أتمنى لكم ذلك ، أترك لكم الحرية فى أن تسيروا فى عملكم الى الحد الذى ترون فى أنفســكم القدرة على بلوغه وأنتم آمنون مطمئنون ٠ بل ان تركـكم عملكم فى المحاماة الى أجل غير مسمى وانقلابكم كتبة تقتصرون فى نشاطكم على الأعمال الكتابية ليس فى حد ذاته بالأمر الهين عـلى النفس ٠ اننى

أجد صعوبة فى فهم اللهجة الهندية المحلية ولن أستطيع فوق ذلك أن أقرأ الجرائد التى تنشر أخبارها باللغة الكايثية أو الأوردية ، ولذلك فسوف أطلب منكم أن تتولوا ترجمة ذلك كله لى ، اذ لا طاقة لنا على استخدام كتبة مأجورين لهذا الغرض . فهو عمل يجب أن يؤدى حسبة لوجه الله ولوجه الوطن » .

وأدرك براجكيشور المعنى الذى قصدت اليه على الفور ، ثم شرع يستجوبنى ويستجوب رفاقى واحدا بعد الآخر ، وانتهى الأمر بأن أكدوا لى جميعا عزمهم على عمل كل ما أتطلبه منهم . أما فكرة اعداد أنفسهم لحياة السجن فقد قالوا انها حياة جديدة علينا ولكننا سنحاول أن نهضمها .

٦٢ ـ وجها لوجه مع الكفاح المبرأ من العنف

المتسم بالمحبة (احمسا)

كان هدفي الرئيسى من زيارتى لاقليم تشامبران ، استقصـاء أحوال الزراع فيها وتفهم مساوىء كبار الملاك بازائهم • وكان لزاما على تحقيقا لذلك أن أقابل الآلاف من صغار الفلاحين ، وان كنت رأيت فى الوقت عينه ان من واجبى ، قبل أن أبدأ بحثى ، أن أقف كذلك على وجهة نظر كبار الملاك ، وأن أقابل مدير الاقليم • ولذلك فقـد التمست من كليهما تحديد موعد للمقابلة وظفرت بما التمست •

فأما سكرتير اتحاد الملاك فقد أخبرنى فى عبارة صريحة لا لبس فيهـا بأننى دخيل ، وأنى لا شـأن لى باقتحـام نفسى بين الملاك ومؤاجريهم • أما اذا كان لدى مطلب فما على الا أن أقدمه كتابة • وقلت له فى أدب جم : « اننى لا أعتبر نفسى دخيلا وان كان لى كل الحق فى أن أستقصى أحوال المؤاجرين ما داموا هم يريدون منى ذلك»

وأما مدير الاقليم فقـد شرع يهاجمنى بمجرد أن قابلته ، ثم نصحنى بأن أغادر تيرهوت على الفور •

وأطلعت زملائى على كل ما حدث ، وأوضحت لهم أن هنـاك احتمالا كبيرا بأن تمنعنى الحكومة من مواصلة عملى ، بل انه قد يزج بى فى السجن بأسرع مما أتوقع ، وانه اذا كان لابد لى من أن أدخل السجن ، فأولى بى أن أدخله وأنا عند مدينة موتيهارى أو بيتياه ان أمكن ، واذن فالخير فى أن أسافر الى هذين المكانين فى أسرع وقت •

وهكذا سرت أنا وزملائي في اليوم نفسه الى مويتهاري حيث آوانا جوراخ براساد في بيته حتى ضاق بنا وأصبح أشبه بالخـان يأوى اليه التجار فجأة وهم في رحلاتهم • وقد نما الينا في أول يوم من أيام مقامنا به أن أحد المؤاجرين قد تعرض لاساءة بالغة فاستقر الرأى على أن نذهب لمقابلته في الصباح • واذ كنا في طريقنا اليه على ظهور الفيلة ، ولم نكن قد قطعنا نصف المسافة بعد ، لحق بنا رسول من قبل قومندان البوليس وهو يقول ان رئيسه يبعث الى بتحياته • وأدركت مغزى هـذه التحية ، وترجلت من فوق ظهر فيلي وانتقلت الى العربة التى جاء فيها الرسول • وما كدت أصعد اليها حتى قدم الى انذارا بمغادرة تشامبران ، وطلب منى اقرارا باستلام هذا الانذار ، فقدمت له كتابة ما يفيد بأننى لا أعتزم تنفيذ ما جاء به أو مغـادرة اقليم تشامبران حتى أنتهى من مهمتى فيـه • وكانت النتيجـة أن سلمنى اعلانا بالمثول أمام المحكمة في اليوم التالى ، لمحاكمتى بتهمة عصيان الأمر الصادر الى بمغادرة تشامبران •

وسرعان ما انتشر نبأ الانذار وما تلاه من اعلان بالمحاكمة كما تنتشر النار في الحطب ، فتجمعت حشود من الناس خارج دار المحكمة وفي الطريق اليها حتى اضطر من كانوا معي الى الاشراف على تنظيمهم بعد أن أحاطوا بى من كل جانب وتبعونى أينما اتجهت • فاذا ذكرنا أن أهل تلك الجهة لم تكن لهم معرفة سابقة بى ، وأن الفلاحين فى تشامبران لم يكن لهم عهد سابق بالأمور السياسية ، وأنهم بسبب عزلتهم الجغرافية كانوا يجهلون ما يجرى فى ســائر أنحاء الهند ، وأنهم مع ذلك استقبلونى كما لو كنا أصدقاء العمر ، لو ذكرنا ذلك ، فلن أكون مبالغا اذا قلت اننى حين لقيت هؤلاء الفلاحين فانما كنت ألقى الله ، وألقى المحبة والحق ، وان ما شاهدته منهم لا تفسير له الا حبى للناس ، وايمانى بالكفاح المنزه عن العنف المتسم بالحب •

انه يوم لن أنساه • ذلك اليوم الذى أمضيته فى تشامبران • نعم ، فلقد كانت الحكومة من الناحية القانونية هى التى تحاكمنى • أما من ناحية الواقع فقد كانت هى موضع المحاكمة ، بعد أن أوقعها مدير الاقليم فى الشرك الذى نصبه لى •

٦٣ ـ سحب القضية

بدأت محاكمتى فى الموعد المحدد لها ، وان كانت أعصاب المدعى عن الحكومة والقاضى وغيرهما من الموظفين قد بدت وقتئذ شـــديدة التوتر ، فقد كانوا فى حيرة من أمرهم لا يدرون ما ينبغى أن يفعلوه. وأخذ المدعى يلح على الحكومة بأن تؤجل نظر القضية ، فتدخلت أرجو من القـــاضى ألا يستجيب الى طلب التأجيل بالنظر الى أننى أزمـــع الاعتراف بذنبى فى تهمـــة عدم اطاعة الأمر الصادر الى بمغـادرة تشنامبران ، ومن ثم فلم يعد ما يبرر تأجيل المحاكمة .

وارتج على القاضى والمدعى على السواء ، بعد هـــذا الاعتراف ، فأجل القاضى النطق بالحكم ، ثم اذا بالقاضى يبعث الى برسالة خطية يقول فيها ان نائب الحاكم قد أمر بسحب القضية . ثم وصلنى بعد ذلك خطاب من مدير ادارة الضرائب فى الاقليم يقول لى فيه ان لى ملء الحرية فى أن أتابع التحقيق الذى كنت أجريه ، بل اننى أستطيع أن أعتمد على موظفيه فى الحصول على أية مساعدة قد أجد نفسى فى حاجة اليها . ولم يكن أحـــد منا فى الواقع مستعدا لهذه المفـاجأة السارة .

وزرت بعد ذلك مدير الضرائب المذكور ، المستر هيكوك ، وكان رجلا تبدو عليه مظاهر الطيبة ينزع الى القسط بين الناس ، فقال لى ان فى استطاعتى أن أطلب الاطلاع على أية أوراق أريد الاطلاع عليها ، وأن آتى لزيارته كلما أردت .

وهكذا تلقت البلاد أول درس عملى فى العصيان المدنى وأخذ الناس فى تلك المنطقة يتحدثون عما كان من أمرى ، كما تناولته الصحف بالبحث والتعليق ، فلقيت حملتى التفتيشية بذلك دعاية لم تكن متوقعة ٠

وجاءتنى عقب ذلك جموع كبيرة من الفلاحين ليدلوا بأقوالهم فيما كان لديهم من مظالم ، يصحبهم جيش من رفاقهم فملئوا حديقة البيت الذى كنت أقيم فيه حتى ضاقت بهم ٠

وكان على من عهد اليهم تدوين أقوالهم أن يراعوا قواعد معينة ، فكان عليهم أن يستجوبوا كل من يدلى بأقواله من الفلاحين استجوابا شاملا دقيقا وأن يتغاضوا عن كل من وجدوا فى أقواله مثلبا أو مطعنا ، وهو اجراء ان كان قد اقتضى مزيدا من الوقت فقد ساعد على الوثوق من صحة البيانات المدونة ٠

كذلك كان واحد من ضباط المباحث الجنائية يحضر كلما أخذت أقوال أحد من هؤلاء المزارعين ٠ وقد كان فى استطاعتنا أن نحول بين هؤلاء الضباط وبين ذلك ، غير اننا كنا قد قررنا من بداية الأمر ألا نكتفى بعدم الاعتراض على حضورهم بل أن نعاملهم بكل رفق وأدب وأن نزودهم بكل ما يمكن تزويدهم به من البيانات ٠

ولما كان هدفى أن استرضى كبار الملاك بالحسنى ، لا أن أستثيرهم أو أحنقهم ، فقد حرصت دائما على أن أكتب الى كل من وجه اليه مزارعوه بعض التهم الشديدة ، بل وذهبت لمقابلته ٠كذلك قابلت أعضاء اتحاد الملاك وعرضت مظالم الفلاحين عليهم وتعرفت على وجهات نظرهم ، فمنهم من كرهنى ، ومنهم من كان قليل الاكتراث بأمرى ، ومنهم من عاملنى بالأدب والحسنى ٠

٦٤ ـ لطخة « النيلة » تغسل

زاد سخط كبار الملاك وحنقهم بقدر ما زاد عدد صغار الفلاحين الذين كانوا يأتون الينا للادلاء بأقوالهم ، فأخذوا يقلبون السماء على الأرض عساهم ينجحون فى مقاومة التحقيق الذى كنا نجريه ٠

ووصلنى فى أحد الأيام خطاب من حكومة بيهار هذا فحواه : « لقد طال تحقيقكم مدة كافية ، أفلا ترون اذن أن الوقت قد آن لكى تنتهوا منه وتغادروا بيهار ؟ » ٠ لقد كانت عبارة تتسم بالأدب ولكن معناها كان لا يخفى على أحد ٠

وكان ردى على خطاب الحكومة أن التحقيق لابد أن يطول ، وأننى لا أعتزم الرحيل حتى ينتهى التحقيق ويؤتى ثمره وحتى يزول عن المزارعين ما يرهق كاهلهم ، وأن الحكومة تملك أن تنهى هذا التحقيق اما بالاعتراف بمظالم الفلاحين والعمل على اصلاح حالهم ، واما بالاعتراف بأن مطالبهم حقة الى حد يجعلها صالحة لأن تكون موضوع تحقيق رسمى يبدأ على الفور ٠

ودعانى السيد ادوارد جيت نائب حاكم الولاية لمقابلته ، فلما قابلته أبدى استعداده لتعيين لجنة للتحقيق ودعانى الى أن أكون واحدا من أعضائها ، وقد قبلت ما عرضه على بعد أن استوثقت من أسماء سائر الأعضاء واستشرت فى ذلك زملائى فى الجهاد ، واشترطت أن تكون لى حرية المداولة مع رفاقى خلال سير التحقيق ، وأن تقر الحكومة بأن عضويتى فى هذه اللجنة لا تحول بينى وبين أن

أكون المدافع عن صغار المزارعين ، وأن أكون حرا ، فى حالة فشل اللجنة في الوصول الى علاج مرضى للحالة ، في توجيههم الى الطريق السوى الذى يجب أن يسلكوه ٠

وجاء قرار اللجنة فكان في صالح صغار المزارعين ، اذ أوصت بأن يرد الملاك اليهم جزءا من الأموال التى اغتصبوها منهم وترى اللجنة الا حق لهم فيها ، وبأن تستصدر الحكومة قانونا يلغى ذلك النظام الذى كان يفرض على المؤاجرين أن يخصصوا ثلاثة أجزاء من كل عشرين جزءا من أرضهم لمنفعة الملاك ٠

وهكذا ألغى نظام ظل قائما قرابة قرن كامل ، وانتهى بالغائه ذلك الاقطاع الذى كان يتمتع به كبار الملاك ٠ وهكذا استطاع صغار الفلاحين أن يشعروا بكيانهم بعد أن غلبوا على أمرهم سنوات وسنوات ، وتبخرت بذلك الخرافة التى كانت تزعم بأن لطخة « النيلة » باقية لا يمكن أن تزول ٠

٦٥ ـ اتصالى بالعمال

وصلنى فى حوالى ذلك الوقت خطاب من السيدة اناسيويابهن تصف فيه حالة العمال فى أحمــــد أباد وما كانوا يلقونه فيهـا من شظف العيش ، فقد كانت أجـــورهم ضئيلة ، وكانوا قد أخـذوا يتبرمون بها ويطالبون بزيادتها . ومع أننى كنت راغبا فى معاونتهم وتوجيههم فقد كنت قليل الثقة فى أن أستطيع معالجة مسألتهم وأنا بعيد عنهم ، ولذلك فقد انتهزت أول فرصة سانحة لكى أسافر الى أحمد أباد .

لقد كان موقفى من هذه المسألة غاية فى الدقة والحرج ، فقد كانت قضية العمال الذين يعملون فى مصانع الغزل والنسيج قضية حقه ، ولــكن السيدة أناسويابهن كان عليها ، فى كفاحها من أجــل هؤلاء العمال ، أن تكافح ضد أخيها الذى كان يتزعم أصحاب تلك المصانع . أضف الى ذلك أن علاقتى بأصحاب المصانع كانت عــلاقة طيبة مما كان يجعل كفاحى ضدهم أكثر حرجا لى . ومن ثم فقــــد كانت لى معهم مناقشات رجوت منهم خلالها أن يلجئوا فى حل خلافهم مع عمالهم الى التحكيم ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بهذا المبدأ .

ولم يعد أمامى بعد ذلك الا أن أشير على العمال بالاضراب عن العمل ، ولكنى قبل أن أفعل ذلك اتصلت بهم وبزعمائهم ، وشرحت لهم الظروف التى يجب توافرها لكى يكون أى اضراب ناجحا وهى :

(١) عدم الالتجاء الى العنف اطلاقا .

(٢) عدم الاعتداء على الخارجين على اجماع المضربين ٠

(٣) عدم الاعتماد على الصدقة والاحسان البتة ٠

(٤) أن يبقى المضربون ثابتين مهما طال أمد الاضراب ، وأن يرتزقوا خلال ذلك من أى عمل شريف آخر ٠

وفهم زعماء حركة الاضراب هذه القواعد ووافقوا عليها ، كما تعهد العمال أنفسهم فى اجتماع عام عقد لهذا الغرض بألا يستأنفوا العمل الا فى احدى حالتين ، فاما أن تقبل شروطهم ، واما أن يوافق أصحاب المصانع على احالة الخلاف الى التحكيم ٠

واستمر الاضراب واحدا وعشرين يوما كنت خلالها دائب الاتصال بأصحاب المصانع أحاول أن أستحثهم على أن يقسطوا بين أنفسهم وبين عمالهم ، فكان ردهم على : « ونحن كذلك لنا عهد نرعاه ٠ ان علاقتنا بعمالنا هى علاقة الآباء بأبنائهم ٠٠٠ فكيف اذن نسمح لطرف ثالث بأن يتدخل بيننا ؟ ثم أين مكان التحكيم من هذا الخلاف ؟ » ٠

٦٦ ـ نذرت صوما

أبدى العمال المضربون قسطا ملحوظا من الشجاعة وضبط النفس خلال الأسبوعين الأولين من الاضراب ، وكنت كلما حانت مناسبة أذكرهم بعهدهم الذى قطعوه على أنفسهم ، فيعيدون توكيدهم بأنهم يفضلون الموت على الحنث بعهدهم ٠

ولكن علامات الضعف والتخاذل أخذت تبدو عليهم بعد ذلك ٠ فكما أن الضعف الجسمانى يتجلى فى ثورة صاحبه ونزوعه الى الانفعال ، كذلك كان مسلك العمال المضربين نحو الخارجين على اجماعهم قد أخذ يزداد عنفا وخطرا كلما وهنت عزائمهم وضعفت همتهم حتى خفت أن تتفشى الفوضى بينهم ٠ كذلك أخذت اجتماعاتهم اليومية تتضاءل عددا وحمية يوما بعد يوم ، بل لم يعد من الصعب على المرء أن يتبين علامات اليأس والخور على وجوه من كانوا يحضرون منهم تلك الاجتماعات ٠ وأخيرا أخذ المضربون يترنحون من أثر الاضراب مما أثار فى نفسى الحزن والكمد وجعلنى نهبا للتفكير العميق فيما يجب أن أفعله بازاء هذا الموقف ٠

وأصبحت فى أحد الأيام ، وكنت لا أزال أتحسس طريقى فى الظلام ، فاذا ببصيص من النور يضىء أمامى الطريق ، واذا بهذه الكلمات تنطلق من بين شفتى فى غير عمد فأقول لنفسى : « اذا لم تتفق كلمة المضربين ، واذا لم يستمروا فى اضرابهم حتى يصلوا الى تسوية مرضية أو ينصرفوا عن مصانعهم جميعا ، فلأصومن عن كل طعام » ٠

ونزل هذا النذر على العمال كما ينزل السهم ، وأخذت الدموع تجرى من ماقى أناسويابهن ، ثم اذا بالعمال يقولون : « لا ! لست أنت الذى تصوم بل نحن • انه لأمر فظيع أن نراك تصوم من أجل زلتنا • نرجوك أن تغفر لنا خطيئتنا فقد عزمنا على أن نظل مخلصين لعهدنا حتى النهاية » •

وأجبتهم : « لا داعى لصومكم ، وحسبكم أن تظلوا أمناء على عهدكم • وانكم لتعلمون أن يدينا صفر من المال ، وأننا لا نريد أن نواصل اضرابنا عن طريق استجداء الاعانات من الناس • ولذلك فان عليكم أن تحاولوا تدبير أمركم على الكفاف ، عن طريق أى عمل تؤدونه ، مهما طال أمد الاضراب • أما صومى فلن أتخلى عنه حتى ينتهى الاضراب الى تسوية مرضية » •

على أن صومى لم يكن مبرأ من النقص فى ناحية أخرى • فقد كنت ، كما قلت سابقا ، على صلة وثيقة مع أصحاب المصانع • وكان صومى لابد أن يحدث أثرا فى قرارهم النهائى • وكنت أدرك فى الوقت نفسه ، وأنا المؤمن بأصول الساتياجراها ، أننى لا حق لى فى أن أتخذ من صومى سلاحا أشهره فى وجوههم ، بل يجب أن أتركهم أحرارا فى تصرفاتهم فلا يؤثر فى قرارهم الذى يتخذونه سوى اضراب العمال وحده • وفى الحق أن صومى لم يكن الباعث عليه خطأ ارتكبه أصحاب المصانع ، بل خطيئة وقع فيها العمال أنفسهم ، وكان لى من هذه الخطيئة نصيب باعتبارى ممثلهم الذى يوجههم ويتحدث باسمهم • لقد كان كل ما أملك أن أفعله بازاء العمال هو أن أستحثهم وأتوسل اليهم • أما أن أجعل من صومى سلاحا ضد أصحاب العمل فهو أمر يصل فى جوهره الى حد محاولة اخضاعهم عن طريق الضغط والاكراه •

وحاولت أن أريح بالهم فقلت لهم : « ليس ثمة ما يدعـوكم الى العـــدول عن موقفكم » ولكنهم قابلوا عبـــارتى ببرود بل جعلوا يوجهون الى كلمات السخرية ، وكان لهم فى ذلك الحق كل الحق ٠

وكان امبالال القوة الكامنة وراء أصحاب المصانع٠ كان هو الذى يشجعهم على موقفهم الذى لا يلين ٠ بل لقـــد كانت عزيمتـه التى لا تتزعزع واخلاصه ووفاءه لزملائه ممـــا أثار دهشتى ، وملك على لبى ، وسرنى أن أكون فى موقف المعارضة من مثله ٠ لذلك كان الأثر الذى خلفه صومى فى نفوس الطرف الآخر الذى كان امبالال يتزعمه مما حز فى نفسى ٠

وكان من نتيجة هذا العطف الذى كنت أبديه نحو أصـــحاب المصانع أن تولد شعور طيب فى نفوس الطرفين بصفة عامة ، وتأثر أصحاب المصانع لمسلكى نحوهم فشرعوا يحاولون الاهتداء الى مخرج من هذا الاضراب الى أن تدخل أناندشانكر دهروفا فى النزاع وقبل الطرفان أن يؤدى دور الحكم بينهما ٠

وهكذا انتهى الاضراب بعد أن دام صومى ثلاثة أيام لا أكثر ٠ واحتفل أصحاب المصانع بهذه التسوية فأخذوا يوزعون الحلوى على العمال ٠

٦٧ - تطبيق الساتياجراها فى اقليم خيدا

لم يترك لى القدر من الوقت ما يكفى لكى أتنسم نسيم الراحة وهدوء البال بعد اضراب عمال النسيج فى أحمد أباد ، فلم يكد ينتهى ذلك الاضراب حتى وجـــدتنى مسوقا الى حركة أخـرى من حركات الساتياجراها فى اقليم خيدا ، اذ كانت الأحوال فيها قد وصلت الى حد يقرب من المجاعة على اثر سنة مجدبة مما دفع الفلاحين الى بحث مسألة وقف جباية الضرائب المقررة على الأرض عن تلك السنة .

وكانت مطالب الفلاحين واضحة وضوح الشمس فى رابعـــة النهار ، وكانت من الاعتدال والقسط بحيث تشجع على قبولها . فقد كانت لائحة الضريبة على الأراضى الزراعية تجيز للسلطات أن تتنازل عن حقها في الضرائب اذا جاء المحصول ضعيفا فلم يتعد ربع مستواه العادى . غير أن مزاج الحكومة كان على غير ما تقتضيه مصلحة هؤلاء الفلاحين ، فلم تستمع الى شكواهم ، بل اعتبرت مطالبتهم بالتحكيم أمرا يتنافى مع هيبتها وكرامتها . فلما أصبحت جميع التماسـات الفلاحين وتوســـلاتهم اليها غير مجـــدية لم يسعنى الا أن أنصحهم بالالتجاء الى سلاح الساتياجراها .

واتخذنا من أشرم (صومعة) ناديار مركزا رئيسيا لحركتنا ، فلم يكن أمامنا مكان غيره يتسع لنا جميعا .

وأمضى المشتركون فى الحركة التعهد التالى :

« بالنظر الى أن الغلات الزراعية فى قرانا قد جـــاءت أقل من ربع مستواها العادى فقد رجونا من الحكومة أن توقف جمع الضرائب الى العام المقبل ، ولكن الحكومة أعرضت عنا ولم تستمع لرجائنـا • ولذلك نعلن ، نحن الموقعين على هذا ، بأننا لن ندفـع الى الحكومة ، برضائنا ، المبالغ المستحقة علينا عن هذا العام ، وبأن ندع الحكومة تتخذ من الاجراءات القانونية ما تراه ، وبأن نتحمل فى سبيل ذلك النتائج التى تترتب على امتناعنـــا عن الدفع • بل اننا لنفضـل أن نتنازل عن أرضنا جميعـــا على أن ندفع هذه المبالغ راضـــين فنثير الشكوك فى عدالة قضيتنا ونعمل ما يؤذينا فى كرامتنا وفى احترامنا لأنفسنا • أما حين توافق الحكومة على وقف جباية القسط الثـانى المستحق من هذه الضرائب فى جميع أنحاء الجهة فان من كانوا منا فى وضع يسمح لهم بذلك سوف يدفعون المبالغ المستحقة عليهم كلها ، أو ما لا يزال باقيا منها فى ذمتهم • أما السبب فى أن القادرين منـا ما يزالون ممتنعين عن دفع ما عليهم فهو أنهم لو فعلوا لاستولى الفزع على الفقراء منا وانطلقوا يبيعون متاعهم أو يستدينون فى سبيل أداء التزاماتهم ، فيزيدون أنفسهم بؤسا على بؤس وفاقة على فاقة • وفى ظروف كهذه نرى من واجب القادرين منا ، رعاية منهم للفقراء ، أن يظلوا ممتنعين عن دفع الضرائب المقررة عليهم » •

٦٨ ـ حرامى البصل

كان هذا النوع من الكفاح تجربة جديدة على أهل المنطقـــة استحوذت على قلوبهم حتى أضحوا على استعداد للتضحية بكل مالهم فى سبيل نجاحها ، فقد كان من الصعب عليهم أن يدركوا أن حركة الساتياجراها لا تستند فى نجاحها الى المال وحده ، وأن المــال هــو آخر ما نحتاج اليه • وهكذا أرسل الينا تجار بومباى من المال أكثر مما كنا فى حاجة اليه ، رغم كل ما أبديته من اعتراض ، حتى انتهت المعركة وكان لا يزال لدينا رصيد كبير مما تبرعوا به •

وكان أول ما اســـتهدفته وأنا أوجه القائمين على حـــركة الساتياجراها فى خيدا أن أعمل على تحرير الفلاحين من الخوف ومن الذلة والمسكنة التى ضربت عـــلى قلوبهم ، وأن أجعلهم يؤمنون بأن الموظفين ليسوا سادة الناس بل خدامهم بقدر ما يتسلمون مرتباتهم من دافعى الضرائب • ومع ذلك فقد كان مما يكاد يدخل فى حــكم المستحيل حمل الناس على المواءمة بين التحرر من الخوف وبين مراعاة آداب اللياقة وحسن السلوك فى معاملتهم لهؤلاء الموظفين • فلو أنهم خلعوا عن أنفسهم رداء الخوف فما السبيل الى منعهم من رد الاهانة بالاهانة ؟ ثم ان كل بعد من جانبهم عن حسن الآدب فى المعاملة مع خصومهم كان لابد أن يشوب حركة الساتياجراهــا التى يضطلعون بها ويفسد نقاوتها ، مثل ذلك كمثل نقطة من الزرنيخ فى اناء من اللبن • بل لقد علمتنى التجربة فيما بعد أن رعاية حـــدود الأدب والتزام الحسنى فى المعاملة هما أشق نواحى الساتياجراها وأكثرها صعوبة • ولست أقصد بذلك الحسنى فى الظاهر ، ممـــا يستطيع

المرء أن يصطنعه فى بعض المناسبات ، بل الحسنى المنبعثة من أعماق النفوس ، وعن رغبة صادقة فى أن تحسن لعدوك ، وهو خلق يجب أن يتسم به كل عمل سليم من أعمال الساتياجراها ٠

ولم يبد على الحكومة فى المراحل الأولى من الحركة ، على الرغم مما أبداه القائمون بها وقتئذ من شجاعة ، أنهـــا تعتزم اتخاذ أية اجراءات مشددة قبلهم ، ولكنها بعد أن رأت منهم ثبـــاتا فى موقفهم بدأت تأخذهم بالشدة ، فأخذ الموظفون المكلفون الحجز عليهم يبيعون ماشيتهم ويســـتولون على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من متــاعهم ومنقولاتهم ، بل لقد حجزوا فى بعض الحـــالات على زراعاتهم وهى ما تزال فى الأرض ٠ وكان من أثر ذلك اضـــعاف روح الفــلاحين المعنوية ، فانصرف بعضهم الى دفع ما عليهم من التزامات ، وتطـوع البعض الآخر بتقديم متاعهم للحجز عليه وفاء لما عليهم ، ولكن بعضا آخر بقوا ثابتين مصممين على الكفاح حتى النهاية المريرة ٠

وقد أردت أن أعيد الى القلوب الواهنة بعض شجاعتها فنصحت فريقا منهم بقيادة موهانلال بانديا بأن يجمعوا محصول البصل من أحد الحقول التى وقع عليها الحجز ، وكان فى رأيى حجزا خاطئـا لا سند له ٠ ولم أعتبر ذلك عصيانا مدنيا ٠ وحتى على فرض انه كان كذلك ، فقد قلت لهم ان الحجز على المحصول وهو بعد فى الأرض قد يكون مما يبيحه القانون ، ولكنه من الناحية الخلقيـــة أمر مرذول لا يعدو أن يكون عملا من أعمـــال السلب والنهب ، ولذلك كان من واجب الناس ألا يتوانوا عن جمع ما فى ذلك الحقل من محصـــــول البصل ٠

نعم ، فلقد كان ذلك فرصة مواتية لكى يتعلم النـــاس كيف يجلبون على أنفسهم الغرامة ويسعون بأرجلهم الى السجن ، وهـــو

ما كان لابد مترتبا على عصـــــيانهم • ولم يكن شيء أحب الى نفس موهانلال من أن يعمل بنصيحتى ، فقد عز عليــه أن تنتهى الحركة دون أن يصيب بعض النـــاس أذى من جرائها كأن يدخلوا السجن بسبب عمل من الأعمال التى تقتضيها حركة الساتياجراها • ولذلك فقد تطوع الى جمع ما فى الحقل من بصل يساعده فى ذلك سبعة أو ثمانية من الرفاق •

وما كان فى مكنة الحكومة بعد هذا العمل أن تتركهم أحرارا ، فقبضت على موهانلال ومن كان معه ، فكان من أثر القبض عليهـم ازدياد حماس القوم • ذلك أن الناس اذا تحرروا من خوف السجن كان الارهاب باعثا لهم على التمادى فيما هم فيه • وجاء يوم المحاكمة فكان يوما مشهودا حاصر الناس فيه مبنى المحكمـــة وهم على أشــد ما يكونون لهفة وحماسا • وحكم على موهانلال ومن معه بالحبس مدة قصيرة •

وكان من رأيى أن هذا الحكم حكم خاطىء يجانبه الصواب ، لأن جمع البصل لم يكن مما تنطبق عليـــه أوصاف « السرقة » فى عرف قانون الجنايات • على أننا لم نستأنف الحكم ، فقد كانت خطتنا ألا نلجأ الى المحاكم كلما أمكننا ذلك •

وسار الناس بعد الحكم فى موكب كبير وهم يخفرون « المجرم » الى السجن • وقد ظفر موهانلال باندیا منذ ذلك اليوم بلقب خلعه عليه الناس حين أسموه « حرامى البصل » ، وهو لقب لا يزال يهنأ به حتى يومنا هذا •

على أننى كنت أستطيع أن أتبين وقتئذ أن النـــاس قد خارت عزائمهم ، وعز على أن أرى الثابتين منهم وقد انتهوا الى خراب محقق،

فجعلت ألتمس مخرجا مما كانوا فيه من ضيق ، ينهي كفـــاحهم ، ويكون في الوقت عينه متمشيا مع قواعد الساتياجراها • وجاء هذا المخرج على غير انتظار ، فقد بعث الى موظف الضرائب في ناحيـــة تالوكا يقول : « اذا دفع القادرون ما عليهم فان السلطات ستتوقف عن جبـــاية الضرائب من الفقراء » • وأردت أن أستوثق من مدير ضرائب الاقليم اذا كان هذا القرار ينطبق على الاقليم بأجمعه فأبلغني بأن الأوامر في طريقها بالفعل لتنفيذ ما أبلغنيه الموظف المذكور •

وهكذا تحقق العهد الذى كان الناس قد قطعوه على أنفسهم ، وان كانت خاتمة الحركة ، على الوجه الذى انتهت اليه ، لم ترقني ، فقد كانت* تفتقر الى تلك الطلاوة وذلك الجمال اللذين يجب أن تتسم بهما كل حركة من حركات الساتياجراها • بل لقـــد ظل جامعـو الضرائب بعد ذلك سادرين في عملهم ، كما لو أن قرارا لم يتخذ في هذا الصدد ، حتى عجز الفقراء من الفلاحين عن اثبـــات فقرهم فلم يفيدوا من الاعفاء الذى منحوه •

على أن هذه الحملة لم تذهب سدى • فقد أدرك الفلاحون قوتهم وتعلموا أن خلاص الناس انما يتوقف عليهم وحدهم وعلى قدرتهم على الاحتمال والتضحية •

٦٩ ـ جيش من أهل الهند

بدأت حملة الساتياجراها فى اقليم خيدا والحرب العالمية لا تزال مستمرة فى أوروبا ، فلما تأزم موقف بريطانيا فيها دعا نائب الملك مختلف الزعماء الى مؤتمر من أجل شئون الحرب يعقد فى دلهى، وكنت من بين من دعوا اليه ٠

وذهبت الى دلهى استجابة لدعوته ، على الرغم من بعض الاعتراضات التى كانت تساورنى بشأن الاشتراك فى مثل هذا المؤتمر وفى مقدمتها استبعاد بعض الزعماء من أمثال الاخوين محمد وشوكت على(*) ٠

فلقد كنت أدرك ، حتى وأنا فى جنوب افريقية ، افتقاد الصداقة الحقيقية بين الهندوس والمسلمين ، فكنت لا أدع فرصة تمر دون أن أعمل على ازالة العوائق التى كانت تحول دون التقاء الجانبين. ولم يكن من عادتى فى مثل تلك الأحوال محاولة تهدئة النفوس عن طريق الملق ، أو بعمل لا يتحقق الا على حساب الاحترام الذاتى ٠ على أن تجربتى فى جنوب افريقية قد أقنعتنى بأن مسألة الوحدة بين الهندوس والمسلمين سوف تكون المحك الحقيقى لدعوتى الى المحبة ، والى التنزه عن العنف ، بل هى سوف تكون أعظم امتحان لها ٠

ولما كانت هذه عقيدتى التى ظللت ثابتا عليها بعد عودتى من

(*) محمد على وشوكت على : كانا من أهم الشخصيات الاسلامية التى كانت تجاهد من أجل الخلافة ٠

جنوب افريقية ، فقد كان طبيعيا أن أعتز بصداقتى للأخوين محمد وشوكت على ، ولكننى ما كدت أوثق صلتى بهما حتى كانا قد دخلا السجن فكان مولانا محمد على يكتب الى الخطابات المطولة كلما سمح له سجانوه بذلك ، كما طلبت أن أزورهما فى سجنهما ، ولكن طلبى ذهب أدراج الرياح ٠

وقد انتقدنى بعض أصدقائى وبعض النقاد عامة على مسلكى من مسألة الخلافة الاسلامية(*) ولكننى على الرغم من هذا النقد لا أجد ثمة ما يدفعنى الى تغيير هذا المسلك ، أو يحملنى على الأسف على تعاونى مع المسلمين ، بل اننى لأتبع نفس المسلك الآن لو جد من الظروف ما يدعو الى ذلك ٠

ولهذا فلما ذهبت الى دلهى بشأن المؤتمر الذى دعا اليه نائب الملك ذهبت اليها وأنا معتزم عرض قضية المسلمين أمام نائب الملك على الرغم من أن موضوع الخلافة لم يكن قد اكتسب الأهمية التى اكتسبها فى الأيام المقبلة ٠

على أننى ما كدت أصل الى دلهى حتى اعترضتنى صعوبة أخرى فى سبيل حضور ذلك المؤتمر ، فقد أثار الأب اندروز من الاعتبارات الخلقية ما كان يحول دون اشتراكى فى مؤتمر يتصل بأعمال الحرب،

(*) هال المسلمين من أهل الهند فى خلال الحرب الأوروبية الأولى أن يحدث لخليفة المسلمين ، أى للسلطان العثمانى بوصفه الرئيس الروحى للمسلمين ، ما يهدد كيانه ، ويؤثر فى مستقبل الخلافة ٠ وقد حاول غاندى أن يظفر بمعاونة الهندوس وغيرهم من الطوائف غير الاسلامية فى الهند ، لنصرة هذه القضية الهامة بالنسبة للمسلمين فى الهند وخارج الهند على السواء ٠

وأطلعني على الجدل الذى كان يدور في الصحف الانجليزية وقتئذ بشأن معاهدات سرية قيل انها عقدت بين انجلترا وايطاليا ، ثم سألنى كيف يجوز لى أن أشترك فى مثل هذا المؤتمر اذا كانت انجلترا قد ارتبطت بمعاهدات سرية مع دولة أوربية أخرى . ولم أكن فى الحقيقة أعرف شيئا عن تلك المعاهدات ، ولكن كلام اندروز قد قطع جهيزة كل قول بالنسبة لى . ومن ثم فقد حررت الى اللورد تشلمسفورد ، نائب الملك ، خطابا شرحت له فيه ترددى فى الاشتراك فى أعمال المؤتمر .

ودعانى اللورد تشلمسفورد الى مقابلته لبحث هذه المسألة معه فكان لى حديث طويل فى ذلك معه ومع سكرتيره المستر مافى وافقت على اثره على الاشتراك فى أعمال المؤتمر . والى القارىء حجة نائب الملك فى حديثه معى . قال : « لا شك أنك لا تعتقد بأن نائب الملك يعرف كل قرار قد يتخذه مجلس الوزراء فى بريطانيا . وأنا لا أزعم، ولا أحد غيرى يزعم ، بأن الحكومة البريطانية منزهة عن كل خطأ . ولكنك اذا كنت توافقنى على أن الامبراطورية كانت على وجه العموم عاملا من عوامل الخير ، وآمنت بأن الهند قد أفادت بصفة عامة من ارتباطها بهذه الامبراطورية ، أفلست ترى أن واجب كل هندى فى تلك الحالة أن يساعد الامبراطورية فى وقت محنتها ؟ اننى مثلك قرأت ما جاء فى الصحف البريطانية عن تلك المعاهدات السرية ، وأستطيع أن أؤكد لك بأننى لا أعرف من أمر تلك المعاهدات أكثر مما كتب عنها فى تلك الصحف ، وأنت تعرف بعض أكاذيب الصحف أحيانا . فهل تستطيع ، اعتمادا على مجرد روايات ترد فيها ، أن تمتنع عن معاونة الامبراطورية فى مثل هذا الظرف العصيب ؟ انك تستطيع أن تثير ما تشاء من الاعتبارات الخلقية ، وأن تتحدانى بقدر ما تستطيع ، ولكن بعد نهاية الحرب ، لا فى هذه الآونة الحرجة » .

ولم تكن حجة نائب الملك بالحجة الجديدة ، ولكنها بدت جديدة لى فى تلك اللحظة بسبب الطريقة التى عرضت بها ، والوقت الذى عرضت فيه . ومن ثم فقد وافقت على حضور المؤتمر . أما عن مطالب المسلمين فقد اتفق على أن أبعث بشأنها خطابا الى نائب الملك .

وهكذا حضرت المؤتمر . وكان نائب الملك حريصا على أن يرانى أعضد القرار الخاص بتعبئة الهنود ، فطلبت الاذن بالكلام باللغة الهندية ، ووافق نائب الملك على طلبى ، ولكنه اقترح أن أتحدث باللغة الانجليزية كذلك . وما كنت معتزما فى الواقع أن أتحدث ، فقد نطقت بجملة واحدة قلت فيها : « اننى ادراكا لمسئولياتى أشرف بأن أزكى هذا القرار » .

والآن ماذا عساى أن أفعل لكى أجمع المتطوعين ؟ ثم من أين أبدأ الا أن يكون ذلك من اقليم خيدا ؟ ومن ذا الذى أستطيع أن أدعوه الى التطوع فيلبى غير زملائى فى الكفاح ؟ ولذلك فما كدت أصل الى نادياد حتى عقدت مؤتمرا من بعض أصدقائى فى ذلك الاقليم لبحث المسألة معهم . فأما بعضهم فلم ترقهم الفكرة ، أو هم لم يتقبلوها بسهولة . وأما من راقتهم فقد انتابتهم الشكوك فى مدى نجاحها . ذلك أنه لم يكن بين الحكومة وبين طبقات الشعب التى كنت أعتمد عليها فى ذلك حب مفقود ، فقد كانت ذكرياتهم المريرة عن معاملة موظفى الحكومة لهم لا تزال عالقة فى أذهانهم .

وما أعظم الفرق بين حالتين ! فبينما كان الناس خلال حملة الضرائب يقدمون الينا عرباتهم عن طيب خاطر وبلا مقابل ، وكنا اذا احتجنا الى متطوع تقدم الينا اثنان ، كان من الصعب علينا الآن أن نحصل على عربة واحدة ولو بأجر ، فما بالك بالحصول على متطوعين للانضمام الى فرق الجيش ؟ ولم نيأس مع ذلك . فقررنا الاستغناء عن

العربات ، وأن نتنقل فى تجوالنا سيرا على الأقدام ، فكان علينا أن نقطع قرابة عشرين ميلا فى اليوم • ثم اذا كان الناس يضنون علينا بعرباتهم ، فقد كان من العبث أن ننتظر منهم أن يطعمونا • ولذلك قررنا أن يحمل كل متطوع منا حاجتـــه من الزاد فى حقيبته • أما الفراش والغطاء فلم تكن بنا حاجة الى كليهما ، فقـــد كان الوقت صيفا •

كنا نعقد الاجتماعات أينما ذهبنا • وكان النـــاس يحضرون اليها • ولكن قلما كان يتقدم منهم للتطوع سوى واحد أو اثنين •كان الناس يقولون لى : « انك تدعو الى المحبـــة وتحض على التنزه عن العنف فكيف بك تطلب الينا الآن أن نحمل السلاح ؟ » ، كما كان بعضهم يتساءل : « ماذا فعلت الحكومة من أجل الهند حتى تستحق تعاوننا معها ؟ » •

على أن جهودنا سرعان ما أخذت تؤتى ثمرها بعد ذلك تدريجيا، فأخذ عدد لا بأس به من المتطوعين يقبلون على تسجيل أســمائهم • وكنت فى ذلك الوقت أوزع المنشورات أستحث فيهـــا الناس عـلى التطوع فكان من بين الحجج التى كنت أستخدمها فى سبيل ذلك حجة لم يستسغها حاكم الاقليم ، فقد كنت أقول لهم : « ان التاريخ وهو يحكم على مساوىء الحكم البريطانى فى الهند سوف يحكم على القانون الذى يحرم شعبا بحاله من السلاح على أنه أسوأ ما فى ذلك الحكم • فاذا أردنا أن نلغى قانون حمـــل الســـلاح ، واذا أردنا أن نتعلم استخدام السلاح ، فها هى فرصتنا الذهبية • فاذا أتيح للطبقـات المتوسطة الآن أن تؤدى للحكومة فى ساعة حرجها معونة اختيـارية زال سوء الظن بين الفريقين وألغى تحريم حمل السلاح » • وقد أشار الحاكم الى هـــذه العبارة بقوله : انه يقدر جهـودى على الرغم من الفوارق بيننا فى الرأى •

٧٠ ـ قانون راولات (*)

ما كدت أتماثل للشفاء من مرض شديد ألم بي حتى وقع نظرى فى الصحف صدفة على تقرير للجنة راولات ، فهالتنى التوصيات التى جاءت فى ذلك التقرير ، ثم اتصل بى شانكرلال بانكر وأوبار سوبانى بعد ذلك يقترحان على أن أتخذ اجراء عاجلا فى هـذا الموضوع ، فلم يمض شهر حتى كنت قد ذهبت الى أحمد أباد ٠ فلما كنت فيهـــا ذكرت لصديقى فالابهبهاى ، وكان يعودنى كل يوم تقريبا ، ما كان يعتمل فى نفسى من المخاوف من جراء تلك التوصيات وقلت له : «لابد من عمل شيء » ، وسألنى : « وماذا عسانا نستطيع أن نفعل فى مثل تلك الظروف ؟ » ، وأجبته : « اننا لو ظفرنا بعدد أصابع اليد من الرجال الذين يقبلون أن يوقعوا على تعهد بالمقاومة ومرت التوصيات بعد ذلك حتى صارت قانونا فان من واجبنا فى تلك الحالة أن نشرع فى ممارسة الساتياجراها على الفور ٠ والواقع أننى لو لم أكن مريضا كما ترانى لخضت المعركة وحدى على أمل أن يتبعنى غيرى ٠ أما وأنا فى حالتى الراهنة من الضعف فانى أجد نفسى غير ند لهذا العمل »٠

وكان من نتيجة هذا الحديث أن تقررت الدعوة الى اجتمـــاع صغير ممن كانوا على صلة بى ٠ ولما كان كل أمل فى أن تنضوى أية

(*) صدر هذا القانون فى سنة ١٩١٩ فأعطى للحكومة سلطات خاصة فى سبيل قمع الحركات الموجهة ضد سلامة الدولة وأباح لها القبض على الأشخاص الذين يشتبه فى أن لهم نشاطا معاديا للحكومة وحجزهم دون محاكمة ٠

منظمة من المنظمات القائمة تحت لواء حركة كحركة الساتياجراها هو أمل ضائع لا محالة فقد تقرر ، بناء على اقتراحى ، أن ننشىء هيئة مستقلة اسمها لجنة الساتياجراها ٠

على أننى تبينت من بداية الأمر ان هـذه اللجنة لا يحتمل أن تحيا طويلا بعد أن رأيت بعض أعضائها ينظرون الى تمسكى بالحق واصرارى على البعد عن العنف بشىء من الاشمئزاز والضجر ٠ ومع ذلك فقد سار نشـاطنا الجديد فى بداية الأمر بخطوات سريعة وتبلورت حركتنا تبلورا ملحوظا ٠

ومع أن مشروع القانون لم يكن قد نشر فى الجريدة الرسمية بعد كقانون من قوانين الدولة النـافذة فلم تكد تصلنى دعـوة من مدراس حتى قررت أن أسافر اليها عـلى الرغم مما كان فى ذلك من مخاطرة بصحتى ٠ وكان راجا جوبالتشار قد استقر بهـا منذ فترة قصيرة ، فكنا دائبى التفكير فى الخطـة التى يجب أن يسير عليهـا كفاحنا ٠ على أننى بعد أن وصلت اليها استعصى على التفكير فيما هو أكثر من عقد الاجتماعات العامة ، وألفيت نفسى فى حـيرة لا أدرى كيف أبدأ حركة الـكفاح احتجاجا على مشروع راولات لو قدر لهـذا المشروع أن يصبح قانونا ، اذ ما سبيلنا الى عصيان قانون لم تهيىء لنا الحكومة بعد فرصة عصيانه ؟ وهل فى استطاعتنا دون ذلك ، من الناحية الأدبية ، أن نعصى غيره من القوانين القائمة ؟ واذا كان ذلك جائزا فما هو الحد الفاصل فى كل ذلك ؟ هذه وغيرها من الأسئلة كانت موضوع مناقشاتنا الدائمة ٠

وبينما هـذه الأفكار تراودنا اذا بالأنباء تصـلنا بأن مشروع قانون راولات قد أصبح قانونا وأنه نشر بالجريدة الرسمية ٠ ونمت ليلتها وأنا أفكر فى الموضوع ، فلما كانت الساعات الأولى من الصباح

صحوت مبكرا عن عادتى كل يوم ، وكنت لا أزال فى مرحلة الغفوة التى تفصل بين النوم وبين الادراك ، حين هبطت على الفكرة التى كنت أبحث عنها فجأة وبلا مقدمات ، كما لو كنت فى حلم .

وقلت لراجا جوبالتشارى بعد أن طلع النهار : « لقد جاءتنى فكرة وأنا فى حلم فى الليلة الماضية ، هى أن ندعو البلاد الى اضراب عام ، فالساتياجراها ما هى الا عملية من عمليات تطهير النفس ، وكفاحنا كفاح مقدس . وقد بدا لى أن من صواب الرأى أن نبدأ كفاحنا بعمل من أعمال تطهير النفس . واذن فليتوقف الناس فى جميع أرجاء الهند عن عملهم فى أحد الأيام وليحتفلوا به كيوم من أيام الصوم والعبادة . وقد يصعب أن نتنبأ بما اذا كانت جميع المقاطعات سوف تستجيب لدعائنا ، ولكنى أكاد أطمئن الى ما سوف يفعله السكان فى مقاطعات بومباى ومدراس وبيهار والسند . وما من شك فى أنه اذا راعى أهل تلك المقاطعات الاضراب فى ذلك اليوم فان ذلك وحده كاف لبعث الشعور بالرضى الى نفوسنا » .

وراق اقتراحى لراجا جوبالتشارى ، كما رحب به غيره من الأصدقاء حين علموا به . وحدد يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١٩ يوما للاضراب المنشود ثم عدل هذا الموعد الى يوم ٦ ابريل . لقد كان هذا الموعد لا يترك للناس فسحة كافية من الوقت ، غير أنه بالنظر الى ضرورة البدء بالاضراب على الفور ، لم يكن فى استطاعتنا أن نهيىء لهم فسحة أطول .

ومع ذلك فقد راعت الهند من أولها الى آخرها هذا اليوم ، بما فيها من مدن ومن قرى ودساكر . لقد كان يوما مشهودا .

٧١ ـ ذلك الأسبوع الخالد

وصلت الى بومباى بعد جولة قصيرة فى جنوب الهنـد ، وكان الاستعداد فيها على قدم وساق لبدء العصيان المدنى الذى دعوت اليه فى جميع أرجاء البلاد • وقد تناقشنا فى مسألتين أو ثلاث تتصـل بهذه الحركة واستقر رأينا على ألا يدعى الناس الى تحـدى القوانين الا ما كان منها يسمح بطبيعته لأن يكون موضع تحدى الناس عامة • وكانت ضريبة الملح (*) ضريبة منفرة ، مبغضـة الى قلوب الناس جميعا ، ومن ثم فقد اقترحت أن يقوم الناس باستخراج حاجتهم من الملح فى بيوتهم مما يحملونه اليها من ماء البحر ، متحدين فى ذلك قانون الملح • أما اقتراحى الآخر فى هذا الصـدد فقد كان متعلقا بالمطبوعات الممنوعة ، وقد رأيت وقتها أن كتابين من كتبى وهمـا « استقلال الهند » و « سارفودايا » (وهو اقتباس لـكتاب راسكين « حتى هذه النهاية » كتب باللغة الجوجيراتية) يصلحان لأن يكونا مادة لحركة العصيان المدنى ، اذ بدا لى أن طبعهما وبيعهما همـا أسهل وسيلة من وسائل العصيان المدنى • وهكذا طبعنا عـددا كافيا منهما واتفقنا على بيعهما عقب انفضاض الاجتماع الحاشد الذى كان مقررا أن يعقد فى المساء بعد انقضاء يوم الصـوم الذى دعونا اليه •

(*) اختار غاندى ضريبة الملح مادة لكفاحه لأنها كانت ضريبة تؤذى الفقراء بالنظر الى أن الملح كان يدخل فى اعداد كثير من ألوان الطعام التى يأكلونها •

فلما جاء يوم ٦ ابريل انطلق جيش من المتطوعين يبيعون هذين الكتابين ، وهما من الكتب الممنوعة ، للناس علنا ٠ وكان من المقرر أن تنفق المبالغ التى تتأتى من بيعهما فى دعم حركة العصيان ٠ وقدر ثمنا للنسخة الواحدة من كل منهما أربع انات (١٦ مليما) ، وان كنت لا أذكر أن شخصا واحدا اشترى احداهما بثمنها الاسمى ، فقد كان عدد كبير من النـــــاس يفرغون ما فى جيوبهم من النقود ثمنا للنسخة الواحدة ، وكان مبلغ خمس أو عشرة روبيات يدفعها بعضهم فى سبيل شراء نسخة واحدة أمرا عاديا ٠ بل انى لأذكر أن نسخة بيعت بخمسين روبية ٠

وقد أطلعنا الناس وقتها على ما يتعرضون له من خطر السجن بسبب شرائهم لهـــذه المطبوعات الممنوعة ، ولـكنهم كانوا فى تلك اللحظة قد خلعوا عن أنفسهم رداء الخوف من السجن أو الاعتقال ٠ على أن الحكومة اعتبرت اعادة طبع الكتب الممنوعة على أنه صور جديدة من هذه الكتب ومن ثم فلم يكن بيعها مما يقع تحت طائلة القانون ٠ وقد بعث ذلك الخبر فى نفوس الناس عامة كثيرا من الحسرة وخيبة الأمل ٠

ورحلت الى دلهى وامريتسار فى اليوم السابع من الشهر ، فلما وصلت الى ماتهورا فى اليـوم الثامن ترامت الى الشائعات بأن من الجائز أن يقبض على ٠ ثم جاءنى اتشاريا جيدفانى فى المحطة التالية فأكد لى قرار القبض على ، وعرض على خدماته اذا كنت فى حاجـة اليها ٠

وقبل أن يصل انقطار الى محطة سكة حديد بالوال وصلنى أمر كتابى بمنعى من دخول ولاية البنجاب بحجة أن وجودى بها من شأنه أن يؤدى الى وقوع اضطرابات فيها ٠ وطلب الى البوليس مغـــادرة

القطار ولكنى أبيت أن أطيع هذا الأمر وقلت لهم : « اننى أريد أن أذهب الى البنجاب استجابة لدعوة ملحة من بعض أهلهـــا ، لا لأثير الاضطرابات ، ولــكن لأخفف من حدتهـا • ولذلك يؤسفنى أننى لا أستطيع الرضوخ لهذا الأمر » •

وأخرجت عنوة من القطار ووضعت فى رعاية البوليس الى أن وصل قطار آخر قادما من دلهى فوضعت فى احدى عربات الدرجـة الثالثة به تصحبنى ثلة من رجال البوليس • فلما وصلنا الى ماتهورا ساروا بى الى احدى ثكنات البوليس • فلما كانت الساعة الرابعـة من فجر اليوم التالى أيقظونى ثم دفعوا بى دفعا الى قطار من قطارات البضاعة كان فى طريقه الى بومباى •

فلما وصلنا الى أطراف المدينة قال لى ضابط البوليس : « انك الآن حـــر طليق ، وان كان خـــيرا لك لو أنك نزلت عنـــد حى البحارة(*) حيث أستطيع أن أوقف القطار من أجلك ، فقد يحتمل أن تجد فى حى كولابا حشدا كبيرا من النـــاس » • وهكذا غادرت القطار عند حى البحارة ، وتصادف أن كانت سيارة صديق لى تمر فى تلك اللحظة فحملتنى الى بيت رفاشــانكر جهافيرى حيث علمت منه بأن نبأ القبض على قد أثار ثائرة الناس وأحنقهم على السلطات ودفعهم الى شبه حالة من الجنون أصبح يخشى معها وقوع اضطرابات عنيفة فى حى بيدهونى حيث حشـــدت السلطات قوات كبـيرة من البوليس •

ولم آكد أستقر فى بيت صـــديقى حتى جاءنى أومار سوبانى والسيدة اناسويابهن وطلبـــا منى أن أتوجه بالسيارة على الفـــور

(*) أحد الأحياء الرئيسية فى مدينة بومباى •

الى حي بيدهوني وهما يقولان : « لقد فرغ صبر النـاس وأصبحوا في حالة شديدة من الهياج حتى استعصى علينا أن نهدىء من ثورتهم، وما من شيء يمكن أن يعيد اليهم هدوءهم سوى وجودك بينهم » ٠

وركبنا السيارة حتى اذا كنا على مقربة من حي بيدهوني ألفيت الجموع الحاشدة وقد وقفت كالبنيان المرصوص ٠ فلما وقع نظرهم على فرحوا بوجودى فرحا لا مزيد عليه ثم سـاروا فى موكب ضخم وهم يهتفون فيتردد هتافهم فى عنان السـماء : « يحيا الوطن ! الله أكبر ! » وسرنا حتى وصـــلنا الى حي بيدهوني فشاهدنا رجـال البوليس وقد أخذت الحجارة تتساقط فوق رءوسهم من كل صوب ٠ ووقفت أناشد المتجمهرين أن اهدءوا ، ولكن الموقف بدا كما لو كان من المستحيل علينا أن ننجو بأنفسنا من سيل الحجـارة التى كان المتظاهرون يمطرون بها رجال البوليس ٠ واندفع موكب المتظاهرين بعد ذلك من شارع عبد الرحمن الى سوق كروفورد فاذا بهم يجدون أنفسهم وجها لوجه مع فريق من رجال البوليس وقد امتطوا خيولهم ووقفوا مستعدين للقـــاء المتظاهرين والحيلولة بينهم وبين مواصلة سيرهم نحو حصن المدينـــة ٠ وازداد تزاحم المتظـــاهرين فى تلك اللحظة حتى التفت الساق بالساق فاندفعوا نحو رجال البـــوليس يريدون أن يشقوا طريقهم من خلال النطاق الذى ضرب حولهم ، بل كادوا يفلحون ٠

وما كان من المعقول أن يصل صوتى فى مثل هـذا الحشر الى آذان الناس ٠ وفى تلك اللحظة الرهيبة أعطى ضابط البوليس الأمر لرجاله بتفريق المتظاهرين ، فانطلقـوا نحوهم وهم فوق خيـــولهم يلوحون بحرابهم فى الهواء ، وسرعان ما تشتتت الجموع المحتشدة فى كل اتجاه ، واضطرب أمرهم ، وتعالت أصواتهم ، بعـد أن وقع

بعضهم تحت سنابل الخيل ، وأوذى البعض الآخر فى جسده ونفسه ايذاء شديدا •

وفى وسط هذه الكتل البشرية المتماوجة استحال على الخيل أن تشق لنفسها طريقا ، كما استحال على النـــاس فى الوقت ذاته أن يجدوا لأنفسهم منفذا يتفرقون منه • وهكذا جعل فرسان البوليس يندفعون بخيولهم على غير هدى ، حتى ليستحيل على أن أتصـــور أنهم كانوا يدركون فى تلك اللحظة ما يفعلونه بالناس • لقـد كان موقفا رهيبا اختلط فيه الفرسان بالناس اختلاطا جنونيا •

وتفرق المتظاهرون فى النهاية ، وحيـــل بينهم وبين مواصلة السير فى مواكبهم • وسمح لنا أخيرا بالسير ، فلما وصلنا الى مكتب مدير البوليس ترجلت وذهبت أشكو له مسلك رجاله •

وطال بنا الجدل ، فقد استحال علينا أن نتفق ، وقلت له فى النهاية اننى أعتزم أن أخطب فى النـــاس فى اجتماع عام فى حى تشوباتى(*) لكى أستحثهم على المحافظة على النظام ، وطلبت منه أن يسمح لى بذلك • وعقد الاجتماع فوق الرمال القريبـــة من البحر وتحدثت فيه حديثا مستفيضا عن واجب الناس من حيث انبعد عن كل عنف وعن الحدود التى تفرضـــها الساتياجراها ، وقلت لهم : « ان الساتياجراها هى سلاح الحق ، والمؤمن بهـــا ينبغى أن ينأى بنفسه عن العنف ، ولذلك فاننى سأكف عن الدعوة الى ممارســـة الساتياجراها الى أن يتعلم الناس كيف يرعون أصولهـا بأفكارهم وبألسنتهم وبعقولهم » •

(*) أحد « بلاجات » مدينة بومباى •

ولم تلبث السيدة اناسويابهن أن سمعت بأن اضطرابات عنيفة قد عمت مدينة أحمد أباد كذلك على اثر شائعة أشاعها بعض الناس بأنها هي كذلك قد قبض عليها ، فاستشاط عمـال مصانع النسيج غضبا لهذا القبض المزعوم وأضربوا عن العمـل ثم أوغلوا فى بعض أعمال العنف مما أدى الى قتل أحد الجاويشية ٠

وذهبت الى أحمد أباد فعلمت فيها بأن الناس قد حاولوا رفع قضبان السكة الحديد على مقربة من محطة نادياد ، وبأن أحد موظفى الحكومة قد قتل عند فيرماجام ، وبأن مدينة أحمد أباد قد أصبحت تئن تحت نير الأحكام العرفية ، وبأن الناس فيها يعيشون فى خوف مقيم بعد أن أسرفوا فى أعمال العنف فحقت عليهم نقمـــة الحكومة بأكثر مما كانوا يستحقون ٠

وذهبت لمقابلة المستر برات مدير البـوليس فوجدته فى حالة شديدة من الغضب ، ولكنى تحدثت اليه فى رقة ودعة ، وعبرت له عن أسفى على ما حدث من اضطرابات ، واقترحت عليه الغاء الأحكام العرفية مبديا استعدادى للتعاون معه فى كل ما عساه يبـــذله من جهود لاعادة الهدوء والسكينة الى المدينة ، واستأذنته فى عقد اجتماع عام فى فناء صومعة سابارماتى ٠ وراق له هذا الاقتراح ، وعقـــد الاجتماع بالفعل ، وكان على ما أظن فى يوم الأحد ١٣ ابريل ٠ وقد ألغى الحكم العرفى فى المدينة فى اليوم التالى أو لعله ألغى بعد ذلك بيوم ٠

وقد حاولت وأنا أخطب فى الناس فى هذا الاجتماع أن أحملهم على ادراك الخطأ الذى وقعوا فيه ، وأعلنتهم بأننى سوف أصـــوم ثلاثة أيام توبة وندما ، وناشدتهم أن يصوموا مثلى يوما واحدا ، كما نصحت أولئك الذين ارتكبوا عملا من أعمـــال العنف بأن يعترفوا بذنبهم ٠

لقد كان واجبى في هذا الصدد واضحا أمامى وضوح الشمس فى رابعة النهار ، فقد ضاقت نفسى وامتلأ قلبى حسرة عندما علمت بأن العمـــال الذين عشت بينهم بعض أيامى ، وعملت من أجلهم ، وكنت أنتظر منهم أن يسلكوا مسلكا خيرا من ذلك ، قد اشتركوا فى أعمال الشغب ، وشعرت من أجل ذلك بأننى شريكهم فى اثمهم ٠

وكما دعوت النـــاس الى الاعتراف باثمهم ، كذلك دعـــوت الحكومة الى التغاضى عن جرمهم ، ولكن واحدا من الطرفين لم يستجب لدعائى ٠

وجاءنى المغفور له السير رامانبهاى وغيره من أهـل الرأى فى المدينة يطلبون منى وقف حركة الساتياجراها ، وما كانت بهم حاجة الى ذلك ، فقد كنت قررت بينى وبين نفسى وقفها بالفعل طالما الناس لم يتعلموا درس السلام ٠

ومـــع ذلك ، فاذا كان الوفد الذى جاءنى يرجو وقف حركة الساتياجراها قد سعد بهذا القرار فقد شقى له كثـيرون ، أولئك الذين أحسوا بأننى اذا كنت أنشد السلام فى كل مكان وأراه شرطا سابقا على مزاولة الساتياجراها ، فان معنى ذلك استحالة مزاولتها يوما ما ٠ ولقد أحزننى أن أختلف مع هـــذا الفريق من الناس فى الرأى ٠ فاذا كان أولئك الـذين عملت معهم وكنت أنتظر منهم أن يعودوا أنفسهم التنزه عن العنف ، مهمـــا كان فى ذلك من عـذاب للنفس ، لا يستطيعون أن ينأوا بأنفسهم عن الانغماس فى أعمـــال العنف فان الساتياجراها ولا شك تصبح أمرا مستحيلا ٠ فلقد كنت مؤمنا بأن من كانوا يريدون أن يدفعوا الناس الى مزاولة الساتياجراها عليهم أولا أن يعملوا على ابقاء النـــاس فى حدودها المرسومة فلا يتعدوها ٠

ولا زلت أومن بهذا الرأى حتى يومنا هذا ٠

٧٢ ـ خطأ جسيم فى التقدير

ذهبت الى نادياد على الفور عقب الاجتماع العام فى أحمد أباد ٠ وكنت وأنا لا أزال فى أحمد أباد قد أدركت بصورة مبهمة الخطأ الذى وقعت فيه حين دعوت الناس الى العصيان المدنى ، ولـكنى بعد أن وصلت الى نادياد ، ورأيت الأمور فيهـــا على حقيقتهـــا ، وسمعت الروايات تجرى بأن عددا كبيرا من أهل اقليم خيدا قد قبض عليهم ، بدأ يتكشف لى أننى ارتكبت خطأ أشد جسامة مما كنت أتصور حين طلبت الى النـــــاس ، فى ذلك الاقليم وفى غيره ، أن يبدءوا حملة العصيان قبل أن تتهيأ نفوسهم لذلك ، كما وضح لى الآن ٠ واعترفت للناس بذلك وأنا أخطبهم فى اجتماع عام ، فكان اعترافى باعثا على سخريتهم فأخذوا يمطروننى بعبارات السخرية والتهكم ٠ على أننى لم أندم يوما على هذا الاعتراف ، فقد كان من رأيى دائما أن المرء لن يستطيع أن يصل الى تقدير نسبى بين أخطائه وأخطاء غيره الا اذا نظر الى أخطائه بمنظار مكبر والى أخطاء غيره بمنظار عادى ٠ كذلك كان من رأيى أن مراعاة هذه القاعدة بذمة وضمير أمر لا غنى عنه لمن أراد أن يكون تابعا من أتباع الساتياجراها ٠

ولننظر الآن كيف كان هذا الخطأ الجسيم فى التقدير ٠ ذلك أن على المرء ، قبل أن يصبح أهلا لممارسة العصيان المدنى ، أن يتعلم طاعة قوانين الدولة عن رغبة فيها واحترام لها ٠ فان المرء لن يكون فى وضع يستطيع منه أن يحكم على قيمة القوانين ، وأن يميز بين الطيب منها والخبيث ، العـادل منها والظالم ، الا اذا كان قد أطاع

قوانين الدولة وأخلص لها · بذلك وحده يكتسب الحق فى ممارسة العصيان المدنى لبعضها فى ظروف معينة ·

أما فى هذه الحالة فقد دعوت الناس الى ممارســـة العصيان المدنى قبل أن يكونوا أهلا لذلك · وبدا لى هذا الخطأ مجسما الآن ، اذ ما كدت أدخل اقليم خيدا حتى عادت الى ذكرياتى القديمة عنه وما كان لنا من كفاح فيه من قبل ، وعجبت لنفسى كيف يمكن أن أكون قد عجزت عن ادراك هذه الحقيقة الواضحة · نعم ، لقد أدركت الآن أن من واجب الناس قبل أن يمارسوا العصيان المدنى أن يتفهمــوا مقتضياته ، وأن يقفوا على كنهه وحدوده · وما دام الأمر كذلك فقد أصبح من واجبى ، قبل أن أعاود حملة العصيان المدنى ، أن أنشىء جمــــاعة من المتطوعين ممن خلصت نفوسهم ، وصفت قلوبهم من الأدران ، وامتحنوا فى عقيدتهم ، لكى يتفهموا الشروط التى يجب توافرها فى كل حركة من حركات الساتياجراها فيستطيعوا بدورهم أن يشرحوها لعامة الناس ويسهروا على التأكد من أنهم يسيرون فى الطريق السوى ·

وذهبت بعد ذلك الى بومباى ورأسى يزدحم بهذه الأفكار ، فما كدت أصل اليها حتى شرعت أنشىء فريقا من المتطوعين من أنصــار الساتياجراها ، وأخذت أستعين بهم فى تعليم الناس المعانى العميقة التى تكمن وراءها ، وكانت المنشورات الملائمة التى تغرس هــذه التعاليم فى عقول الناس من أهم الوسائل التى استعنا بها ·

وقد تبين لى رغم هذا النشاط أن مهمة حمل الناس على تبين الجانب السلمى من حركة الساتياجراها لم تكن مهمة سهلة ميسرة ، فقد تقاعس عدد كبير عن التطوع لأداء هــذه الخدمة ، ومن تطوعوا

كثـــيرا ما كانوا يتخلفون عن تلقى تدريبهم بانتظـام ، ثم لم تلبث أعدادهم أن تضاءلت بدلا من أن تنمو وتزداد ٠

ولجأت بعد ذلك الى جريدتى « نافا جيفان » و « الهند الفتاة » أستعين بهما على تحقيق مهمتى وتعليم الرأى العـــام المتنور آداب الساتياجراها ، وان كان توزيعهما قـــد هبط هبوطا ملحوظا عقب اعتقالى ٠

وقد عارضت منذ البداية فى تخصيص بعض أعمـــدة هاتين الجريدتين للاعلانات ٠ ولا أظن أنهما خسرتا بذلك شيئا ، بل عـلى العكس لعلهمـــا قد كسبتا من وراء ذلك القدرة على الاحتفـــاظ باستقلالهما ٠

ومن ناحية أخرى فقد ساعدتنى هاتان الجريدتان على أن أظل فى سلام مع نفسى بعد أن أصبح الالتجاء الى العصـــيان المدنى فورا مسألة خارجة عن نطاق البحث ، بما هيأتاه لى من وسيلة للتنفيس عن آرائى والتعبير عن مشاعرى بحرية ، وما زودتانى به من وسيلة لبث روح جديدة فى قلوب الناس ٠

٧٣ ـ مؤتمر امريتسار

كان الاعلان الملكى الذى يتضمن الاصلاحات الجديدة(*) قد صدر منذ فترة قصيرة ، ولم تكن تلك الاصلاحات مرضية من جميع جوانبها حتى من وجهة نظرى . أما فى نظر الكثيرين غيرى فقد كانت غير مرضية بالمرة . ومع ذلك فقد كنت أشعر فى ذلك الوقت أن من الممكن قبولها على الرغم مما كان يعتورها من عيوب .

أما ديشابندهو تشيتارانجان داس(**) فقد كان رأيه على عكس ذلك . فقد تشبث بضرورة رفض تلك الاصلاحات من أساسها على اعتبار انها غير كافية وغير مرضية جملة وتفصيلا . وأما المغفور له لوكامانيا فقد كان أميل الى الحياد وان كان فى الوقت نفسه معتزما أن يلقى بدلوه الى جانب أى مشروع يراه ديشابندهو مرضيا .

على أن فكرة اختلافى مع مثل هذه الشخصيات المجربة ، التى

(*) وتعرف كذلك باصلاحات مونفورد . وقد صدرت فى سنة ١٩١٩ وكانت تقضى بانشاء حكومات ثنائية فى بعض الولايات فيعهد ببعض الوزارات فيها الى وزراء من الهنود ويترك البعض الآخر فى أيدى البريطانيين . أما الحكومة المركزية فقد كانت خارجة عن نطاق هذه الاصلاحات .

(**) أحد أعضاء المؤتمر الوطنى الهندى البارزين وهو من ولاية بنغال .

حنكها الدهر ، وكان لها من المكانة في نفوس الناس عامة ومن حسن تقديرهم الشيء الكثير ، كانت آكثر مما أطيق • غير أن صوت الضمير مع ذلك كان واضحا بينا ، فحاولت أن أتخلف عن جلسات المؤتمر الوطنى وعرضت على بانديت مالافيا وبانديت موتيلال(*) أنه قد يكون من المصلحة العامة لو أننى تغيبت عن جلسات المؤتمر الى نهاية دورته الحالية ففى ذلك خلاص لى من ضرورة الاعلان عن اختلافى فى الرأى مع هؤلاء الزعماء الموقرين ، ولكن هذا الاقتراح لم يصادف قبولا لدى هاتين الشخصيتين الكبيرتين اللتين تعلوانني رأيا ومقاما•

وهكذا صغت اقتراحي وقررت ، وقلبى ينتفض خجلا ، أن أعرضه على المؤتمر • وكان من المتفق عليه أن يسانده أمامه كل من مالافيا(**) وجناح(***) • ومع أن اختلافنا فى الرأى كان مبرأ من كل حقد ومن كل أثر من آثار المرارة التى تعتور النفوس ، وخطبنا كانت خلوا من كل شيء الا ما كان قائما على المنطق البحت والحجة الخالصة ، فقد تكشف لى أن الناس لم يحتملوا مجرد فكرة الاختلاف بيننا فى الرأى ، وآلمهم ذلك أيما ايلام من فرط حرصهم على الوحدة الشاملة بيننا حتى لا يكون للاختلاف مكان بيننا •

وحتى حينما كانت الخطب تلقى من فوق منصة المؤتمر كانت الجهود تبذل بغير انقطاع لمحاولة التوفيق بين الرأيين ، والمذكرات

(*) هو موتيلال نهرو والد رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو وكان محاميا بارزا ، وله فضل كبير فى توجيه المؤتمر الوطنى وتكييف سياسته •

(**) زعيم هندى مخضرم ومؤسس جامعة بنارس الهندوسية•

(***) مؤسس باكستان ، وكان في ذلك الوقت عضوا بالمؤتمر الهندى الوطنى •

تتبادل بين الزعماء لهـــذا الغرض • ولم يترك مالافيا وسيلة لرتق الصدع الا ولجأ اليها • وفي وسط هذه المحاولات سلمني جيرامداس اقتراحا بالتعديل متوسلا الى بأسلوبه الأخاذ الا ما أنقذت المؤتمر من الانقسام الذى يتهدده • وراقنى تعديله المقترح ، فقد كان فى نظرى خليقـــا بأن يقبله الطرفان • وما كاد ديشابندهو يومىء الى ايماءة الموافقـــة هو الآخر ، وحتى قبل أن تخرج كلمـــة « نعم » من بين شفتيه ، حتى كان مالافيا قد اختطف قصاصة الورق التى تحتوى على التعديل ثم اتجه الى الأعضاء وهو يقول : « أيها الاخوة ! لقـــد وصلنا الى اتفاق مرضى » • أما ما تلا ذلك فهـــو ما يعجز القلم عن وصفه ، فقد دوت قاعة الاجتماع بالتصفيق الحاد وحـــل الانشراح محل الكآبة على وجوه الحاضرين •

لقد كان اشتراكي في أعمـــال مؤتمر امريتسار ، في نظرى ، أول دخول لى فى حلبة الشئون السياسية المتصلة بأعمـــال المؤتمر الوطنى فى الهند •

وقد كشفت تجربتى فى ذلك المؤتمر عن جانب أو جانبين لعلى كان لى فيهما بعض الكفاية التى يمكن استخدامها لخيره •

فقد كان أمام المؤتمر لدورته المقبلة فى العام التـــالى مسألتان كان لى بهما اهتمام خاص • كانت احداهما مسألة اقامة نصب تذكارى لشهداء مذبحة حديقة جالياناوالا ، وكان المؤتمر قد وافق عليه وسط عاصفة من الحماس الشديد ، وأصبح من الضرورى بعد ذلك جمع مبلغ يقرب من ٥٠٠٠٠٠ روبية لاقامته • وكنت واحدا من الأوصياء الذين عهد اليهم الاشراف على جمع المال • واذ كانت لبانديت مالافيا سمعة هائلة فى مضمار جمع النقود ، حتى وصف بأنه أمير الشحاذين فى المسائل ذات النفع العام ، فقـد كنت أدرك كذلك بأننى لا أقل

عنه كثيرا فى هذه الناحية بعد أن اكتشفت هـــذه القدرة فى نفسى وأنا فى جنوب افريقية ٠

أما الجانب الآخر من جوانب كفايتى التى كان يمكن للمؤتمر أن يفيد منها فقد كان قدرتى على التحرير ، فقد كشف المؤتمر فى موهبة الايجاز فى التعبير ، وهى موهبة اكتسبتها عن طريق مرانى الطويل ٠ ولما كان دستور المؤتمر الذى يجرى به العمـــل فى ذلك الوقت قد وضعه جوكهال فى بداية الأمر وكان يتألف من مجمـوعة من القواعد قصد منها وقتئذ أن تهيىء أساسا يسير عليه جهـــاز المؤتمر ، فقد أصبح كل واحد الآن مؤمنا بأن هذا الدستور لم يعـد كافيا لمواجهة أعمال المؤتمر المتزايدة ٠

واضطلعت بمسئولية وضع دستور جديد ، وان كنت اشترطت أن يشترك كل من لوكامانيا وديشابندهو ، بحق ما لهما من نفـوذ واسع بين الرأى العام ، فى لجنة الدستور بوصفهما ممثلين للشعب٠ ولما كان من الواضح أن عملهما لن يسمح لهما بالاشتراك بشخصيهما فى تلك اللجنة ، فقد اقترحت تعيين شخصين آخرين حائزين عـلى ثقتهما للاشتراك فى وضع الدستور الجـــديد ، على ألا يزيد عـدد أعضاء اللجنة على ثلاثة ، وقبل هذا الشرط ٠

ولم تستطع لجنة الدستور أن تلتقى ولو مرة واحدة ، فاكتفينا بمشاورة بعضنا بعضا عن طريق المكاتبات ، وخرجنا من ذلك بتقرير رفعناه باجماع الآراء ٠ بل انى لأنظر الى هذا الدستور فى كثير من الزهو ، فقد كان من رأيى أن مجرد استطاعتنا أن نخرج دســتورا صالحا يسير عليه المؤتمر كان خطوة تقربنا من الحكم الذاتى ٠

٧٤ ـ مولد المغزل البيتى

لا أظن أننى كنت قد رأيت منسجا يدويا أو عجلة من عجلات الغزل حين تحدثت عنهما فى كتابى « الحكم الذاتى فى الهند » الذى كتبته فى سنة ١٩٠٨ ووصفتهما وقتها بأنهما العلاج الشافى لما تئن منه الهند من فقر متزايد • فقد افترضت فى كتابى ذاك أن كل عمل يساعد البلاد على الخلاص من الفقر المدقع الذى تنوء به الأغلبية العظمى من أهلها هو فى الوقت نفسه خطوة تساعدها على تحقيق استقلالها الذاتى • ولذلك فلما أنشأنا أشرم (صومعة) سابارماتى أدخلنا فيه بعض المناسج اليدوية ، ولكنا ما كدنا نفعل ذلك حتى اعترضتنا احدى الصعوبات • فقد كنا جميعا من أصحاب المهن الحرة ومن أرباب الأعمال المالية ولم يكن من بيننا من يحذق الحرف الفنية، ولذلك كنا فى حاجة ماسة الى خبير من ذوى الدراية فى أعمال النسيج يعلمنا كيف ننسج قبل أن نستطيع استخدام الأنوال التى ابتعناها • واهتدينا أخيرا الى خبير من أهل بالامبور ولكنه كان يضن علينا بخبرته • ولم يكن ماجنلال غاندى بالرجل الذى يرضى بالهزيمة أو يقعد عن تحقيق ما تتوق اليه نفسه • ولما كان موهوبا بطبيعته فى الأعمال الميكانيكية فقد استطاع أن يمهر فى فن الغزل والنسيج فى وقت غير طويل ، ولم يلبث أن تبعه فى ذلك نفر آخر ممن تلقوا تدريبهم داخل الأشرم •

وكان الهدف الذى نبتغيه من وراء كل ذلك أن نستطيع صنع حاجتنا من الملابس مما تخرجه أيدينا ، فلم نلبث أن خلعنا ملابسنا التى تخرجها المصانع وقررنا ألا نرتدى بعد ذلك الا ما كان مصنوعا

من خيوط الغزل الهندى ، فكان ذلك مصدر خبرة واسعة لنا ، اذ مكن لنا ذلك ، وما استتبعه من الاتصال الدائم بسوق الغزل والنسيج ، من الالمام بظروف الحياة بين النساجين ، ومدى ما ينتجونه ، وما يعترضهم من صعوبات فى سبيل الحصول على حاجتهم من خيوط الغزل ، وما كانوا يتعرضون له من أساليب الغش والتدليس ، ثم مدى ما يتراكم فوقهم من ديون متزايدة • ولم نكن فى بداية الأمر فى وضع يسمح لنا بأن نصنع على الفور جميع الأقمشة التى نحتاج اليها ، فلم يكن أمامنا بديل الا أن نستكمل حاجتنا منها مما يخرجه النساجون الذين يعملون على أنوال يدوية • غير أنه تبين لنا أن الحصول على أقمشة مصنوعة من خيوط الغزل الهندى لم يكن بالأمر الهين سواء من تجار الأقمشة أو من النساجين اليدويين أنفسهم اذ كانت جميع المنسوجات الرفيعة ، حتى ما كان ينسج منها على أنوال يدوية ، كلها من الغزل الذى يأتى من الخارج•

ولم يكن ذلك نهاية متاعبنا ، فقد صادفتنا صعوبات أخرى كثيرة ، اذ عجزنا عن الحصول على عجلات للغزل أو الاهتداء الى غزال يعلمنا كيف نغزل • وكنا فى ذلك الوقت نستخدم بعض العجلات لملء الوشائع (المكوك) التى يستلزمها نسج الأقمشة داخل الأشرم ، وما كنا ندرى وقتها أن تلك العجلات كان يمكن أن تستخدم كعجلات للغزل •

ومرت بنا الأيام يوما بعد يوم ونحن لا نجد مخرجا من تلك الصعوبة حتى عيل صبرى وضجرت بسير الأمور ، وكنت كلما جاءنا زائر آنس فيه بعض المعرفة بشئون الغزل والنسيج أمطرته بوابل لا ينقطع من الأسئلة والاستفسارات عن هذا الفن • وتبين لنا فى النهاية أنه لن ينقذنا من ورطتنا الا امرأة نهتدى اليها صدفة

تدلنا على ما نريد ، فقد كان هذا الفن قد أخذ يندثر وما تبقى منه كان فى الغالب حكرا على بعض النسوة ٠

وأخذنى بعض أصدقائى من جوجيرات لأترأس المؤتمر التعليمى الذى عقد فى سنة ١٩١٧ وكنت هنـــاك حينما اكتشفت تلك المرأة الفذة ، السيدة جانجابهن ماجموندار ٠ كانت أرملة ولـــكن قدرتها على العمل كانت لا تعرف حدا ٠ واذا كان حظها من التعليم ، بمعناه المألوف ، غير كبير فقد كان لها من شجاعتها وادراكها قسط يفوق ما لكثير من النساء المتعلمـــات ٠ وكانت فوق ذلك قد تخلصت من سبة التمييز الطبقى الذى كان يجعل من « المنبوذين » طبقة محقرة ، فكانت تختلط بهم ، أولئك الذين غلبوا على أمرهم ، وتعمـــــل من أجلهم ، لا تخشى فى ذلك لوما ولا نقدا ٠ كانت لها مواردها الخاصة وكانت حاجاتها مع ذلك قليلة محدودة ٠ وكانت تتمتع ببنية طيبة عركها الزمن فكانت تخرج الى كل مكان دون أن تكون فى حاجة الى حماية أحد ٠ وقد زادت صلتى بهذه السيدة الفضلى ومعرفتى بهـــا بعد مؤتمر جودهرا ، فأفضيت اليها بكل ما كان ينتابنى من حزن بسبب عجزى عن الحصول على عجلات للغزل ، وكان وعدها بأن تولى البحث عنها كل عنايتها بلسما خفف من الأسى الذى كان يثقل كاهلى ٠

وأخيرا اهتدت هذه السيدة الكريمة ، بعـــد بحث طويل ، الى عدد من عجلات الغزل فى مدينة فيجابور بولاية بارودا ، فقـــد كان كثيرون من أهل تلك المدينة يقتنون تلك العجلات ولكنهم كانوا قد أودعوها مخازنهم منذ وقت طويل على أنها أخشاب متخلفة لم تعـــد ذات فائدة ٠ وقد أبدوا الآن استعدادهم لجانجابهن لأن يســـتأنفوا غزلهم عليها اذا وجـــــدوا من يمدهم بكميات متواصلة من لقطـــــات (لفائف) القطن المندوف ٠ وكان تزويدهم بذلك مشـــكلة أخرى ٠ فلما ذكرت أمر هؤلاء الغزالين لاومار سوبانى حل المشكلة بأن تعهد

بارسال كميات كافية مما يحتاجون اليه منها من مصانعه ، وسرعان ما أخذت خيوط الغزل تتدفق بعد ذلك على الأشرم بسرعـــة جعلت ملاحقتها مشكلة أخرى ٠

لقد كان كرم أومار سوبانى عظيما ولكن ما كان فى استطاعتى أن أظل أطغى على كرمه ، وأخذت أشعر بالخجل كلما أرسل كمية بعد أخرى من لقطات القطن المندوف ٠ يضاف الى ذلك اعتبار آخر ، فقد بدا لى أن من الخطأ استخدام لفائف القطن الذى تندفه المصانع، اذ لو جاز ذلك لجاز للمرء ،ستخدام الخيوط التى تخرجها المصانع كذلك فيريح ويستريح ٠ وسأءلت نفسى : ترى كيف كان القدماء فى العصور الغابرة يأتون بحاجتهم من هـــذه اللفائف ؟ ان من المؤكد انهم لم يتزودوا منها مما تخرجه المصانع ٠ واقترحت على الســيدة جانجابهن أن تحاول البحث عن صناع يستطيعون تزويدنا بحاجتنا منها ، واضطلعت هذه السيدة بهذه المهمة فى ثقة واعتداد بنفسها ، فلم تلبث أن استخدمت ندافا يندف القطن الـلازم لغزلنا ٠ وطلب هذا الصانع خمسة وثلاثين روبية ان لم يكن أكثر من ذلك أجرا له فى الشهر ٠ وما كان هـــذا المبلغ ، أو حتى أكثر منه ، باهظا فى نظرى أمام قدرتنا على التغلب على صعوباتنا ٠ ولم نكتف هذه السيدة بذلك بل شرعت تمرن عددا من الشباب على هذا العمل ٠ واستجديت من ناحيتى كميات من القطن من بومباى فاستجاب ياشوانت براساد ديساى لرجائى على الفور ٠ وهكذا نجحت جانجابهن نجاحا موفقا فى عملها واستطاعت أن تجد من النساجين من ينسجون الخيوط المغزولة فى فيجابور ، وسرعان ما اكتسب غزل فيجابور سمعة هائلة وأصبح علما على نفسه ٠

وبينا الأمور تتطور فى فيجابور على هذا النحو كانت عجلات الغزل تثبت وجودها بسرعة داخل الأشرم ٠ وأخذ ماجنلال غاندى

بما وهب من قدرة فى الأعمال الميكانيكية يولى هذه العجلات عنايته حتى استطاع أن يدخل عليها عدة تحسينات ، بل لقـــد أصبح من الممكن بعد ذلك صنعها وصنع ما يلزمها منقطع الغيار داخل الأشرم.

وكلفتنا أول قطعة من النسيج اليدوى أخرجها الأشرم ١٧ أنة (٦٨ مليما) للياردة الواحدة ، ولم أتردد فى أن أوصى أصـــدقائى باستخدام هذا القماش على خشونته وارتفاع سعره نسبيا فاستجابوا لذلك ودفعوا هذا الثمن عن طيب خاطر .

وكنت فى مدينة بومباى بعد ذلك حين مرضت ، وان لم يكن مرضى الى الحد الذى يحول بينى وبين أن أبحث عن عجــلات للغزل فيها . والتقيت مصادفة باثنين من الغزالين كانا يتقاضيان منى روبية عن كل سير (نحو ثلاثة أرباع الرطل) من خيوط الغزل . وكنت أجهل فى ذلك الوقت اقتصــاديات النسيج البيتى وكنت الى جانب ذلك أعتقد أنه ما من ثمن يمكن أن يكون باهظا فى سبيل الحصول على الغزل اليدوى . ولكنى لما قارنت هذا السعر بعد ذلك بما كان يتقاضاه غزالو فيجابور وجـــدت أننى قد خدعت . ورفض غزالو بومباى خفض أسعارهم ومن ثم فقد استغنيت عن خدماتهم ، ولكنهم فى الوقت عينه قد حققوا لى غرضا هاما ، فقد علموا صناعة الغزل لثلاثة من السيدات هن افانتيكاباى ، وراميباى كامدار أم شانكر لال بانكر الأرملة ، ثم فاسوماتيبهن . وسرعان ما أخـــذت عجلة الغزل تهمهم فى حجرتى فى مرح فكان لذلك أثره فى نفسى ، وقد لا أكون مبالغا اذا قلت ان طنينها الجـــذاب كان بعض السبب فى ابلالى من مرضى . وأنا مســـتعد للاعتراف بأن أثرها كان نفســيا أكثر منه جسمانيا ، ولكن حتى اذا كان الأمر كذلك فهو دليل على مدى تأثر الجسد بالنواحى المعنوية . وقد شاركت فى ادارة عجل الغزل ولكنى لم أفلح كثيرا فى ذلك الوقت .

وكنت فى ذلك الوقت قد فرغ صبرى وأصبحت فى شوق الى الاقتصار فى جميع ملابسى على الأقمشة اليدوية وكان ازارى لا يزال مما تخرجه مصانع النسيج الهندية • ولما كان القماش الخشن الذى كان يصنع فى الأشرم وفى فيجابور لا يزيد عرضه على ٣٠ بوصـة فقد أنذرت السيدة جانجابهن بأنها اذا لم تستطع أن تزودنى بقماش لازارى عرضه ٤٥ بوصة فى خلال شهر واحد فسوف أجـد نفسى مضطرا الى ارتداء ازار قصير • ووقع هذا الانذار عليها كالصاعقة . ولكنها أثبتت بعد ذلك أنها ند لما طلب منها ، فقد أرسلت الى . ولما ينقضى الشهر ، ازارين عرضهما ٤٥ بوصـة ، وبذلك أنقذتنى من موقف صعب لو تحقق لكان مثار حرج كبير لى •

وجاء لاكشميداس الى الأشرم فى حوالى ذلك الوقت ، يصحبه رام جى النساج وزوجتـه فعكفا على تحسين صناعة الأقمشة التى تستخدم فى عمـل الازارات • ولم يكن الدور الذى أدياه فى نشر صناعة النسيج اليدوى بالدور الذى يستهان به ، فقد علما طائفـة كبيرة من الناس ، فى جوجيرات وفى غيرها ، فن صناعة النسيج من الخيوط المغزولة باليد •

٧٥ ـ وداعـا

حان الوقت الذى يجب على أن أنهى فيه الآن فصول هـــذه القصة ٠

فقد أصبحت حياتى بعد الآن مرتبطة بالمسائل العـامة ، فلم يعد فيها ما لا يعرفه الناس جميعا ٠

بل الواقع ان قلمى ليرفض أن يطـــاوعنى لو أننى حاولت أن أسرد شيئا من قصة حياتى بعد ذلك ٠

ومع ذلك فلن أستطيع أن أودع القارىء فى هذه المرحلة الا اذا انتزعت نفسى منه انتزاعا ٠

ان لتجاربى قدرا كبيرا فى نظرى ، وان كنت لا أدرى هـــل استطعت أن أوفيها حقها من العرض السليم ٠ وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننى لم أدخر وسعا لكى أروى قصة حياتى بصدق وأمانة ٠ لقد كان جهدى كله متجها الى تقصى الحق كما تجلى لى ، فكان ذلك معينا لا ينضب من المدد الروحى الذى بعث الى نفسى الاســـتقرار والسكينة وأوحى الى عقلى بالهدوء والسلام ، فان أعظم أمنية لى من رواية تجاربى هى أن يكون فيها ما يعيد الايمان بالحق وبالمحبة لمن كان مترددا أو كان فى قلبه زيغ ٠

فلقد أقنعتنى تجاربى فى مختلف نواحى الحياة بأنه ما من اله غير الحق ٠ واذا كان فى صفحات هذه الفصول ما لا يوحى الى القارىء

بأن الطريق الوحيد للوصول الى الحق هو طريق المحبة ، فلا مناص لى من أن أعتبر كل ما بذلته من جهد فى تصنيف هذه الفصول قد ضاع هباء منثورا . وحتى اذا كانت جهودى في هـــذا السبيل لم تثمر ، ولم تؤت أكلها ، فرجائى الى القارىء أن يذكر أن الخطأ فى ذلك انما هو فى طريقة العرض ، لا فى المبدأ نفسه . على أن جهودى فى سبيل نشر المحبة مهما كانت خالصة مخلصة فهى بالضرورة غير كافية وغير مبرأة من كل شائبة . فاللمحات السريعة التى استطعت فيها أن أتبين الحق لا يمكن أن تعطى صـــورة كاملة عن نور الحق المتلألىء الذى يسمو فى اشعاعه على نور الشمس الساطعة ، الذى نراه بأعيننا كل يوم ، ملايين المرات . بل الواقـــع ان ما رأيته من ذلك النور ليس الا بصيصا خافتا من نور الحق المشرق . ولـكن شـيئا واحدا مع ذلك أستطيع أن أقوله فى ثقة ويقين بعد كل تجـاربى ، وهو أنه لا سبيل الى رؤية الحق الا بعد السمو الى أقصى المراتب فى محبة الكائنات جميعا .

نعم ، فلكى نستطيع أن نشاهد روح الحق التى تسود الكون وتتخلل كل جنب من جنباته ونلقاها وجها لوجه يجب أن نتعلم كيف نحب أدنى المخلوقات وأقلها شأنا كما نحب أنفسنا . والرجل الذى يطمع فى ذلك لن يستطيع مع ذلك أن ينأى بنفسه عن أى ميدان من ميادين الحياة . وهذا هو السبب فى أن اخلاصى للحق قد جذبنى الى ميدان السياسة . وانى لأســـتطيع أن أقول فى غير تردد على الاطلاق ، ولكن فى تواضع كبير ، ان من يقولون بأن الدين لا شأن له بالسياسة لا يعرفون كنه الدين .

وكذلك لن يستطيع المرء أن يتعرف على كل شىء حى الا اذا طهر نفسه من أدرانها . فمن غير أن يطهر الانسان نفسه ستبقى كل طاعة لقانون المحبة حلما غامضا وسرابا يخدع الناظرين . والله تعالى لن

يتجلى لمن كان قلبه أعمى ، لذلك كان تطهير النفس معناه تخليصها من جميع أدرانها فى كل ناحية من نواحى الحياة • ولما كان تطهير النفس ينتقل بالعدوى كان تطهير الانسان لنفسه باعثا على تطهير البيئة التى يعيش فيها •

غير أن طريق الطهر طريق شاق شديد الانحدار • ولكى يصل الانسان الى أكمل درجات الطهر يجب أن يتخلص فى تفكيره ، وفى حديثه ، وفى فعله ، من كل أثر للشهوات ، وأن يرقى بنفسه فوق مستويات التذبذب بين الحب والكراهية ، بين الوصل والبعد • وانى لأدرك أننى لم أصل بعد الى الطهر المنشود فى هذه النواحى الثلاث ، على الرغم من جهودى التى لا تنقطع فى سبيل ذلك ، ولهذا كان اطناب العالم كله لا يهزنى أو يحركنى ، بل انى كثيرا ما أحس بوخزه •

وان قهر الشهوات الكامنة فى النفس لهو أشق بكثير من قهر العالم أجمع بحد السيف • وقد أحسست منذ عودتى الى الهند بأثر هذه الشهوات التى ترقد فى كوامن النفس وتختفى فى أعماقها ، فكان احساسى بذلك يشعرنى بالذلة والهوان وان لم يشعرنى بالهزيمة •

ومع أن تجاربى كانت تشد من أزرى وتبعث فى نفسى سرورا عظيما ، فانى أعلم مع ذلك علم اليقين أن الطريق أمامى لا يزال طويلا ووعرا ، وأن على أن أنقص من قدر نفسى وأن أتضاءل حتى أكون صفرا ، فانه لا سبيل الى خلاص المرء الا اذا اتخذ مكانه طائعا مختارا فى نهاية الصف بين زملائه فى البشرية • ذلك أن المحبة والتعفف عن العنف والكراهية هما أعلى مراتب التواضع •

وانى اذ أودع القارىء الآن ، على الأقل مؤقتا ، أرجو منه أن يشاركنى فى الدعاء الى الاله الحق أن يسبغ على نعمة المحبة فى تفكيرى ، وحديثى ، وفعلى •

فهـــرس

مطابع دار المعارف بمصر — (إيداع رقم ١٩٦٩/٤٨٨٣)

